شرح

رسالة آداب الدارس والمدرس

الطبعة الأولى

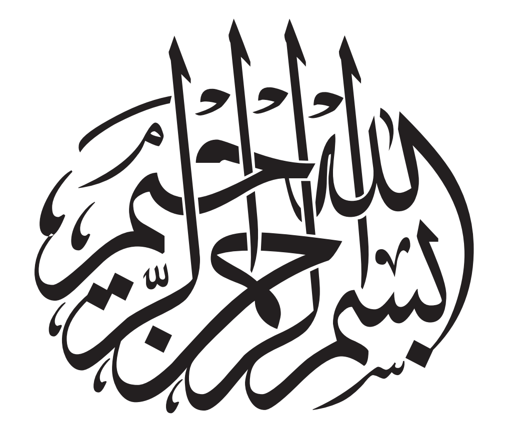
١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م

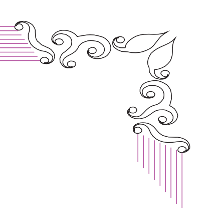
شَرْحُ رِسَالَةِ
آدَابِ الدَّارِسِ وَالمُدَرِّسِ

وهي التي انتقاها
من «المجموع» للإمام النووي (٦٧٦هـ)

العلَّامةُ الشيخ
محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي (١٣٣٢هـ)

شرحها
عبد الله بن صالح الفوزان


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة الشارح

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبيّنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن فضل العلم وشرف أهله وبيان ثمرته والحث على طلبه مما تواترت فيه الأدلة الشرعية، وتكلم فيه العلماء والمربون والمختصون، وقد أدرك العلماء أن العلم لا يتم نشره على الوجه الصحيح، ولا يؤتي ثماره للعالم والمتعلم تحصيلًا وعملًا إلا بالتحلي بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب المذكورة في هذا الباب «آداب العالم والمتعلم».

لذا؛ فقد عُني العلماء بهذا الباب، وجمعوا ما يتعلق بالوصايا الطيبة والمنهج السديد والتوجيه السليم لكلٍّ من الدارس والمدرس مما ينفع ويفيد في أصول التعليم والتصنيف.

ذلك أن المعلم قد يكون عنده حصيلة من العلم لكن قد لا يوصلها إلى الطالب بأيسر الطرق؛ لأنه بحاجة إلى مجموعة من الآداب والسلوك ومعرفة الطريقة المثلى لتوصيل معلوماته لطلابه. والطالب قد يكون جادًّا في التحصيل وله رغبة أكيدة، ولكن لا يصل إلى مطلبه من العلم ويحصل على الثمرة المرجوة؛ لفقده الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها طالب العلم.

ومما جاء في هذا الموضوع ما ذكره الإمام العلامة أبو زكريا يحيى بن شرف النووي في مقدمة كتابه «المجموع في شرح المهذب» فقد ذكر جملة نفيسة من «آداب العالم والمتعلم».

ثم قام علّامة الشام محمد جمال الدين القاسمي باختصارها[(١)] في أسلوب جميل وعرض بديع، فاقتصر على ما يُحتاج إليه في هذا الزمان، وحذف ما يُستغنى عنه، فجاء هذا المختصر رسالة وافية نافعة، يدعو ما سُطِّرَ فيها إلى قراءتها والاستفادة منها؛ لأن النفوس تميل في مثل هذا الموضوع إلى الإيجاز.

وقد يسَّر الله تعالى لي شرح رسالة القاسمي هذه، بأسلوب يناسبها، وقسّمته إلى ثمانية عشر درسًا، وأودعت في شرحها جملة من النقول عن الأئمة والعلماء والأدباء؛ لأن هذا مما يشجع على الطلب؛ لاشتمال سيرهم وأخبارهم على ما يشحذ الهمم، فهم أتقى لله تعالى وأهدى سبيلًا، وما ذكروه هو خلاصة تجاربهم وثمرة جهودهم[(٢)].

كما أودعت في أثناء صفحاتها شيئًا من التجارب التعليمية المستفادة أثناء الدراسة في المعهد العلمي وكلية الشريعة، ثم الفوائد المستفادة من التدريس في المسجد والمعهد والجامعة مما استفدناه من مشايخنا وأُستاذينا، راجيًا أن يستفاد منها.

وفي الختام أقول: إن مثل هذه الآداب جديرة بأن تدرَّس في المساجد والدورات العلمية وفي الدراسات النظامية ـ في الثانوية والجامعة ـ فما أحوج الدارس والمدرس إليها! أما المدرس فهو محتاج إلى جملة من الآداب في نفسه ودرسه وتعليمه، وأما الطالب فهو بحاجة إلى أن يتأدب مع العلم وأهله وكتبه، ومع نفسه وزميله، حتى يؤتي العلم ثماره، وينفع الطرفين.

هذا؛ وقد اعتمدت في هذ الشرح على رسالة «آداب الدارس

---

(١) ذكر فضيلة الشيخ محمد بن ناصر العجمي ـ حفظه الله ـ المعتني برسالة القاسمي (ص٥) أن هذه الرسالة مختصرة من رسالة أطول منها.

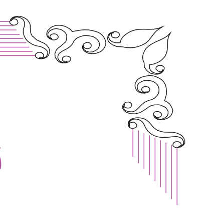
(٢) اطلعت بعد نهاية هذا الشرح على كتاب نفيس بعنوان «فقه النفس» للشيخ الدكتور: يحيى بن إبراهيم اليحيى. واستفدت منه بعض النقول التي أضفتها بعد الرجوع إلى مصادرها.

والمدرس» التي اعتنى بها الشيخ العلَّامة المحقق: محمد بن ناصر العجمي ـ وفَّقه الله ـ الطبعة الأولى (١٤٣١هـ) نشر دار البشائر الإسلامية، مع الرجوع إلى الأصل، وهو كتاب «المجموع» للإمام للنووي[١]؛ لأن المطبوع خلا من ألفاظ موجودة في الأصل، والسياق قد يستدعيها، ولا أدري هل حذفها القاسمي عمدًا، أو أنها ساقطة؟!

والله أسأل أن يجعل عملي صالحًا، ولوجهه خالصًا، ولعباده نافعًا، إنه سميع قريب مجيب.

وكتبه
عبد الله بن صالح الفوزان
نهار الجمعة ٢٤/ ٢/ ١٤٣٨هـ
Alfuzan.net@gmail.com

(١) فإذا قلت: الأصل فالمراد المجموع للنووي، وإذا قلت المطبوع فالمراد طبعة دار البشائر، ولم أستطع الوقوف على نسخة القاسمي المنشورة في مجلة المقتبس الدمشقية، إلا ما نُشر في الشبكة، وهو مليء بالأغلاط، لذا لم ألتفت إليه.



ترجمة موجزة للإمام النووي
صاحب الأصل

نسبه:

هو شيخ الإسلام، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مُرِّي بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام، النووي مولدًا، الشافعي مذهبًا، الدمشقي إقامة.

مولده:

ولد في المحرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة (٦٣١هـ) في «نوى» إحدى قرى حوران جنوبي دمشق.

نشأته:

ولد النووي من أبوين صالحين، ونشأ في أسرة مسلمة زكية، فتولى والده رعايته وتأديبه فوجَّهه منذ الصغر إلى طلب العلم، فختم القرآن وقد ناهز الحُلُمَ، ثم قدم به أبوه إلى دمشق سنة (٦٤٩هـ) وكان عمره تسع عشرة سنة، فسكن في المدرسة الرواحية، ثم في دار الحديث، وبدأت رحلة الطلب، فجدَّ واجتهد، وأعطى العلم وقته دراسة وبحثًا وتأليفًا.

شيوخه:

سمع الكثير من الشيوخ، منهم: عبد العزيز بن محمد الأنصاري (ت٦٦٢هـ)، وإسحاق بن أحمد المغربي ثم المقدسي (ت٦٥٠هـ)،

وعبد الرحمٰن بن محمد بن قدامة المقدسي صاحب «الشرح الكبير على المقنع» (ت٦٨٢هـ)، وسلَّار بن الحسن الإربلي ثم الحلبي ثم الدمشقي (ت٦٧٠هـ)، وغيرهم.

تلاميذه:

تخرَّج بالنووي جماعة من أهل العلم منهم: علي بن داود بن العطار، وكان من الملازمين للنووي حتى كان يقال له: مُخْتَصَرُ النووي[1]، قال عن شيخه: «كان رفيقًا بي، شفيقًا عليَّ، وقرأت عليه كثيرًا من تصانيفه ضبطًا وإتقانًا، وأذن لي في إصلاح ما يقع لي في تصانيفه، فأصلحت بحضرته أشياء، فكتبه بخطه، وأقرني عليه...». ومن تلاميذه: محمد بن إبراهيم بن جماعة، صاحب «تذكرة السامع والمتكلم»، وأحمد بن فرج الإشبيلي، وغيرهم كثير.

ثناء العلماء عليه:

اتفق العلماء الذين ترجموا للنووي على أنه فقيه الأمة، وشيخ الإسلام، وآية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح للحكام، قال الحافظ الذهبي: «الإمام، الحافظ، الأوحد، القدوة، شيخ الإسلام، عَلَمُ الأولياء.. صاحب التصانيف النافعة، لازم الاشتغال والتصنيف ونشر العلم، والعبادة والأوراد والصيام والذكر، والصبر على العيش الخشن في المأكل والملبس...». وقال ابن العماد الحنبلي: «شيخ الإسلام الفقيه الشافعي، الحافظ، الزاهد، أحد الأعلام».

(١) انظر: «البداية والنهاية» (١٨/ ٢٥١).

وقال السبكي: «شيخ الإسلام، أستاذ المتأخرين، وحجة الله على اللاحقين، والداعي إلى سبيل السالفين»، وقال الحافظ بن كثير: «العالم، العلامة، شيخ المذهب، وكبير الفقهاء في زمانه...».

مصنفاته:

ألَّف النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في فنون كثيرة، **ومنها**:

١ ـ «روضة الطالبين» في فقه الشافعية.

٢ ـ «المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج».

٣ ـ «المجموع في شرح المهذب»، ولم يتمه، بل وقف فيه أثناء باب «الربا» ثم أكمله أبو الحسن علي بن عبد الكافي السبكي (ت٧٥٦هـ) ثم أكمله من بعده المطيعي، وأنت تلحظ تفاوتًا كبيرًا بين الشروح الثلاثة، فأعلاها الأول، ثم الذي يليه بالترتيب، وكلٌّ ميسر لما خلق له[١].

٤ ـ «رياض الصالحين».

٥ ـ «الأذكار».

٦ ـ «إرشاد طلاب الحقائق».

٧ ـ «تهذيب الأسماء واللغات».

٨ ـ «الإيضاح في المناسك».

٩ ـ «الخلاصة في أحاديث الأحكام». وصل فيه إلى أثناء كتاب الزكاة.

١٠ ـ «التبيان في آداب حملة القرآن» وغيرها.

---

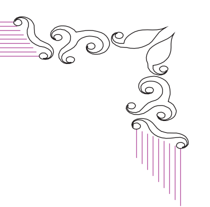
(١) انظر: «لمحات في المكتبة والبحث والمصادر» لشيخنا الدكتور: محمد عجاج الخطيب (ص٢٤٩)، «البحث الفقهي» (ص١٣٩).

وفاته:

توفي الإمام النووي في الرابع والعشرين من شهر رجب، سنة ست وسبعين وستمائة (٦٧٦هـ) ولم يتجاوز الخامسة والأربعين، ودفن في بلده «نوى»[١].



(١) من مصادر ترجمته:
١ ـ «تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين» لابن العطار (ص٦٤ ـ ٦٨).
٢ ـ «طبقات الشافعية الكبرى» (٨/ ٣٩٥).
٣ ـ «تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٤٧٠).
٤ ـ «العبر» (٥/ ٣١٢).
٥ ـ «شذرات الذهب» (٥/ ٣٥٤).
٦ ـ «البداية والنهاية» (١٣/ ٢٧٨).
٧ ـ «فوات الوفيات» (٤/ ٢٦٤).



ترجمة موجزة للقاسمي

هو إمام الشام في عصره، محمد جمال الدين[(١)] بن محمد سعيد بن قاسم الحلَّاق، المعروف بالقاسمي نسبة إلى جده المذكور.

ولد في دمشق في جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف، ونشأ في بيت صلاح وعلم وأدب، وقد وُصِفَ بيت آل القاسمي بأنه بيت شرف وعلم، ومجد وفضل، تعدد فيهم العلماء والصلحاء والأدباء.

تربى القاسمي في كنف والده، واستفاد منه، كما استفاد من علماء عصره، متحليًّا بالجد والمواظبة، مستفيدًا من وقته، يستثمر كل دقيقة تمر به؛ ولذا برع في كثير من فنون العلم في زمن قليل، وبارك الله في عمره، فزادت مؤلفاته على مائة مع أنه توفي ولم يبلغ الخمسين.

وفي سنة (١٣٠٨هـ) انتدبته الحكومة للرحلة وإلقاء الدروس العامة في القرى والبلاد السورية، فأقام على عمله هذا أربع سنوات، ثم رحل إلى مصر، وزار المدينة مستفيدًا من أهل العلم في رحلاته.

وقد حصلت له حادثة في سنة (١٣١٣هـ) تسمى بحادثة المجتهدين، اتُّهم فيها بأنه ينوي تأسيس مذهب جديد في الدين،

(١) التلقيب بلقب مضافٍ إلى الدين هو من محدثات القرون المتأخرة، ولم يكن معروفاً في القرون المفضلة، بل هو من تقليد المسلمين للأعاجم، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٦/ ٣١١ ـ ٣١٢)، «ربيع الأبرار» للزمخشري (٢/ ٣٨٤)، «الألقاب الإسلامية» للدكتور حسن الباشا (ص١٠٣، ١٤١، ١٥٦)، «معجم المناهي اللفظية» للشيخ بكر أبو زيد رحمه الله (ص٩٢).

فقبضت عليه الحكومة، وسألته، فَرَدَّ التهمة، فَأُخْلِيَ سبيله، فانقطع في منزله للتأليف، وإلقاء الدروس العامة والخاصة في التفسير وعلوم الشريعة والأدب، ونشر بحوثًا كثيرة في المجلات والصحف.

ومن مؤلفاته:

١ـ تفسيره «محاسن التأويل» وقد قضى في تأليفه ستة عشر عامًا.

٢ ـ «قواعد التحديث في فنون مصطلح الحديث».

٣ ـ «إصلاح المساجد من البدع والعوائد».

٤ ـ «الوعظ المطلوب من قوت القلوب».

٥ ـ «المسح على الجوربين».

٦ ـ «تاريخ الجهمية والمعتزلة»، وغيرها

توفي القاسمي في دمشق في جمادى الأولى سنة (١٣٣٢هـ)[١].

❁ ❁ ❁

(١) من مصادر ترجمته:

١ ـ إمام الشام في عصره: جمال الدين القاسمي، جمع وتعليق: محمد بن ناصر العجمي.

٢ ـ ترجمة موجزة لابنه ظافر القاسمي في مقدمة «قواعد الحديث».

٣ ـ «الأعلام» للزركلي (٢/ ١٣١).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

❋ الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على سيدنا محمد خاتم النبيِّين، وعلى آله وصحبه في كل وقت وحين[١].

آداب الدَّارس والمُدرِّس

❋ من استقرأَ ما كُتب في هذا الباب الواسع قديمًا وحديثًا يرَ عددًا من المؤلفات والمقالات لا يأتي عليها الحصر، ولا يخفى أن لروح كُلِّ عَصْرٍ مَظْهرًا فيما كُتب في واجباته ومطالبِهِ، وكثير منها تبدل بغيرها؛ لمسيس الحاجةِ إلى ما هو أهم منها، أو اختلاف العادات في أطوارها وشؤونها.

❋ إلَّا أن ما يتقاضاه العلم من آداب القائمين عليه دَرْسًا وتدريسًا تَتلاقى أُصوله مع كل زمان ومكان، لذا رأيت من المهم نقل أبدع ما كُتِبَ في هذا الباب؛ إذ الأُمة لا تبلغ أَوْجَ المجدِ إلَّا بالعلم، ولا عِلْمَ إلَّا بصلاح الدارسِ والمُدَرِّس والعالم والمتعلم؛ إذ هم القائمون على تهذيب الملَكاتِ وإرشاد العقول، والهادون إلى صراط الحق وميزان العدل والصدق.

❋ وقد رأيت من أحسن ما جُمِعَ في مقاصد هذا البحث الجليل ما أَورده محيي الدِّين النووي ـ أحد أئمة الرِّوايةِ وَالدِّراية

---

(١) هذه الخطبة ليست موجودة في رسالة القاسمي المختصرة، وإنما هي في المطولة، كما ذكر الشيخ محمد العجمي حفظه الله.

المشاهير ـ في مقدمة «شرح المهذب» فآثرت عنه خلاصة ما أثره عن أساطين الحكمة المُتقدمين، وجعلته مقالة مُوجزة.

الشرح

شرح خطبة المؤلف

قولـه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢...﴾ هذه خطبة الكتاب، وهي من كلام العلامة الشيخ محمد جمال الدين القاسمي، **وقد تضمنت الأمور التالية:**

الأمر الأول: الابتداء بالبسملة؛ اقتداءً بكتاب الله العظيم، واتباعًا لسنة رسول الله ﷺ.

الكلام على البسملة

قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الباء: للاستعانة، وهي حرف متعلق بمحذوف، يقدر بفعل؛ لأنه هو الأصل في العمل، ويكون متأخرًا موافقًا للمبدوء به في مادته؛ ليحصل التبرك بالبدء بالبسملة من وجه، ولإفادة الحصر من وجه آخر. والتقدير: باسم الله أكتب، أو باسم الله أقرأ... وهكذا. وحذفت ألف اسم لكثرة الاستعمال، **ولذلك شرطان:**

١ ـ أن يكون ذلك في البسملة، بشرط أن تذكر كاملة.

٢ ـ ألا يذكر المُتَعَلَّقُ، فإن ذكر كتبت الألف، سواء أكان متقدمًا نحو: أقرأ باسم الله، أم متأخرًا نحو: باسم الله أقرأ.

والمراد بـ(اسم الله) هنا: كل اسم من أسماء الله تعالى سَمَّى به نفسه، فيعم جميع أسمائه، ومعنى ﴿ٱللَّهِ﴾: المألوه؛ أي: المعبود حبًّا وتعظيمًا، و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ذو الرحمة الواسعة التي من آثارها الإنعام والإحسان، وهو اسم من أسماء الله الخاصة به، و﴿ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ موصل رحمته من شاء من خلقه، وهو ليس خاصًّا بالله تعالى، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨].

الأمر الثاني: مما تضمنته الخطبة: الثناء على الله تعالى بالحمد

بواسطة الجملة الاسمية التي هي أبلغ من الفعلية، والحمد: ذكر أوصاف المحمود الكاملة، وأفعاله الحميدة، مع محبته وتعظيمه، فإن تجرد عن ذلك فهو مدح لا حمد، والحمد يكون على النعمة، وعلى الصفات، والأفعال، بخلاف الشكر فإنه يكون على النعمة؛ لكنه أعم من حيث إنه يكون بالقلب واللسان والجوارح، وأما الحمد فهو بالقلب واللسان، دون الجوارح.

الأمر الثالث: الصلاة والسلام على النبي ﷺ، قال أبو العالية: «صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء»[١]، وكذا صلاة غير الملائكة.

قوله: **(وعلى آله)** وهم من تحرم عليهم الصدقة، أو ذريته وأزواجه خاصة، أو أتباعه على دينه، وضعَّف هذا ابن القيم[٢].

قوله: **(وصحبه)** اسم جمع لصاحب، وقيل: جمع، وهم الذين رأوه أو اجتمعوا به مؤمنين، وماتوا على ذلك.

تعريف: الآداب، الدارس، المدرس

قوله: **(آداب الدارس والمدرس)** الآداب: جمع أدب، كأجل وآجال، والأدب لغة: بفتح الهمزة والدال، مصدر أَدُبَ الرجل ـ بكسر الدال وضمها لغة ـ إذا صار أديبًا في خُلق أو علم.

ومادة «أَدِبَ» تؤذن بالاجتماع، ومن معانيها: الدعاء، وتجميع الناس إلى الطعام، والآدِبُ: الداعي إلى الطعام.

وفي الاصطلاح تنوعت عبارات العلماء في تعريف الأدب: قال صاحب «المصباح»: «أدَّبته أدبًا... علمته رياضة النفس ومحاسن الأخلاق»[٣] وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «علم الأدب: هو علم إصلاح اللسان والخطاب، وإصابة مواقعه، وتحسين ألفاظه، وصيانته عن الخطأ

(١) انظر: «فتح الباري» (٨/ ٥٣٢).
(٢) انظر: «جلاء الأفهام» (ص٢٣٦ ـ ٢٥٢).
(٣) «المصباح المنير» (ص٩).

والخلل، وهو شعبة من الأدب العام»[١] وقال ـ أيضًا ـ: «حقيقة الأدب: استعمال الخُلق الجميل»[٢].

وقال الحافظ ابن حجر: «استعمال ما يحمد قولًا وفعلًا»[٣].

والمقصود بالآداب هنا: الشروط والواجبات أو القواعد المثلى التي يجب انتهاجها لتأدية التعليم على أحسن وجه، واكتساب التعلم بأفضل الأساليب وأكثرها نفعًا[٤].

والدارس: اسم فاعل من دَرَس؛ أي: تعلم، فالدارس تعني المتعلم.

والمدرس: اسم فاعل من دَرَّس؛ أي: عَلَّمَ غيره، فالمدرس هو المعلم، والدراسة لها عدة معانٍ في اللغة: فهي بمعنى القراءة، والتلاوة، والاستذكار، والحفظ، والتعلم، والفهم. وكلها معانٍ متقاربة.

وأصل الدراسة: الرياضة والتعهد للشيء وتكراره لئلا ينساه، وقد جاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝٣٧﴾ [القلم: ٣٧] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ۝٤٤﴾ [سبأ: ٤٤].

والدراسة في الاصطلاح: كل مجهود يُبذل في سبيل التعلم، وغلب إطلاق هذا اللفظ على الدراسة النظامية بغية حيازة شهادة علمية[٥].

وقد أحسن القاسمي عندما اختار هذا العنوان دون: آداب العالم والمتعلم، لأجل أن يشمل دروس المساجد، ودروس المدارس

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٧٦).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٣٧٧).
(٣) «فتح الباري» (١٠/ ٤٠٠).
(٤) انظر: «الفكر التربوي عند ابن جماعة» (ص١٥).
(٥) انظر: «مقاييس اللغة» (٢/ ٢٦٧)، «المفردات في غريب القرآن» (ص١٦٧)، «تاج العروس» (١٦/ ٧٠)، «رسائل لم يحملها البريد» في مجلة الجامعة الإسلامية عدد (٣٧). «الزواج والدراسة» للدكتور: فهد السنيدي (ص٥٨).

النظامية، ومحاضرات الجامعات؛ لأن كلًّا من الموضعين بحاجة ماسة إلى هذه الآداب التي سيأتي ـ إن شاء الله ـ ذكرها وشرحها.

سبب كثرة المؤلَّفات في الآداب وأنواعها

قوله: (من استقرأ ما كتب في هذا الباب الواسع قديمًا وحديثًا يَرَ عددًا من المؤلفات والمقالات لا يأتي عليها الحصر)؛ أي: إن ما يتعلق بآداب الدارس والمدرس باب واسع لكثرة مباحثه وتفريعاته، وعظم فائدته، وشدة الحاجة إليه؛ ولذا كثرت فيه المؤلفات، وتعددت المقالات. وكُتُبُ هذا الفن **نوعان**:

الأول: كتب في آدابٍ على وجه العموم.

والثاني: كتب في آدابٍ على وجه الخصوص، كآداب حملة القرآن الكريم، وآداب المحدث، وآداب المفتي، وآداب القاضي ونحو ذلك.

ومن الكتب المصنفة في آداب الدارس والمدرس:

بعض المؤلفات في آداب الدارس والمدرس

١ ـ «الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه»، لأبي هلال العسكري (ت بعد ٣٩٥).

٢ ـ «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»، للخطيب البغدادي (ت٤٦٣).

٣ ـ «الفقيه والمتفقّه» له.

٤ ـ «جامع بيان العلم وفضله»، لابن عبد البر (ت٤٦٣هـ).

٥ ـ «تعليم المتعلم طريق التعلم»، للزَّرنوجي (ت٥٩٣هـ).

٦ ـ «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم»، لابن جماعة الشافعي (ت٧٣٣هـ).

٧ ـ «أدب الطلب»، للشوكاني (ت١٢٥٠هـ).

٨ ـ «حلية طالب العلم»، لبكر أبو زيد (ت١٤٢٩هـ).

٩ ـ ومما يحسن ذكره هنا أن الإمام أبا إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت٧٩٠هـ) له في كتابه «الموافقات» مباحث تربوية نفيسة لم يُسبق إليها، تؤكد أن الشاطبي ليس مجرد أصولي مجدد، أو فقيه متميز،

ولكنه مع ذلك معلم كبير ومربٍّ عظيم، فقد عُني الشاطبي بكل الأركان أو المقومات الأساسية لعملية التربية، وهي المادة العلمية، والمعلم، والطالب، والطريقة التي يوصل بها المعلمُ المادةَ إلى الطالب[1]. وسيرد ـ إن شاء الله ـ في هذا الشرح شيء من ذلك.

١٠ ـ كذا ابن الجوزي (ت٥٩٧) فإن له في كتابه «صيد الخاطر» فوائد نفيسة، وتنبيهات لطيفة في هذا الموضوع. سيأتي ـ إن شاء الله ـ شيء منها.

١١ ـ وكذا علّامة القصيم في زمنه الشيخ عبد الرحمٰن السعدي (ت١٣٧٦هـ) فقد جاء في آخر كتابه: «الفتاوى السعدية» صفحات مليئة بالتوجيهات النفيسة التي تنفع العالم والمتعلم، وهي توجيهات صادرة من الشيخ عن تجربة وتطبيق، وسيرد شيء منها ـ إن شاء الله تعالى ـ.

الاستغناء عن بعض ما كتبه المتقدمون

قوله: (ولا يخفى أن لروح كل عصر مظهرًا فيما كُتِب في واجباته ومطالبه، وكثير منها تبدل بغيرها...) هذه لفتة جميلة جدًا من المؤلف، مُفادها أن بعض ما كتبه الأقدمون تبدّل بغيره، فلم تكن الحاجة داعية إلى إيراده، مثلما يتعلق باستعارة الكتب ونسخها وصفة النسخ ووسائل الكتابة ونحو ذلك؛ لأن لكل عصر احتياجاته الملائمة له، وطريقته المناسبة لأبنائه، وهذا ظاهر في عصرنا الحاضر كتغير طريقة التعليم، وطريقة المناهج الدراسية، فظهرت المطابع، وتنوعت وسائل التعلم كالشبكة العنكبوتية مثلًا، وذكر المؤلف لهذا التبدّل **سببين**:

الأول: ظهرت أمور في التعلم صارت العناية بها أكثر.

الثاني: اختلاف العادات في أطوارها وشؤونها؛ تلبية لحاجة العصر.

أصول آداب الدارس والمدرس لا تتغير

قوله: (إلا أن ما يتقاضاه العلم من آداب القائمين عليه درسًا وتدريسًا تتلاقى أصوله مع كل زمان ومكان)؛ أي: ومع هذا الاختلاف وظهور حاجة العصر إلا أن أصول آداب الدارس والمدرس لا تتغير في

(١) انظر: «التربية عند الإمام الشاطبي» للقرضاوي (ص١٢).

أي زمن، ولذا فنحن بحاجة إلى معظم ما كتبه الأقدمون كما تقدم.

أهمية دراسة آداب الدارس والمدرس

قوله: (لذا رأيت من المهم نقل أبدع ما كتب في هذا الباب) أفاد بذلك أنه لن يكتب في الموضوع ابتداء، وإنما سينقل عن غيره أحسن ما كتب في هذا الباب. كما سيأتي.

قوله: (إذ الأمة لا تبلغ أوج المجد إلا بالعلم، ولا عِلْمَ إلا بصلاح الدارس والمدرس، والعالم والمتعلم) هذا تعليل لبيان أهمية دراسة آداب الدارس والمدرس، ومضمونه أن الأمة لا تبلغ المكانة العالية، والمنزلة القوية بين البشرية إلا بالعلم، ولا علم إلا بصلاح الدارس والمدرس، وصلاحهما؛ وهذا يقتضي: الاهتمام بآدابهما.

وقوله: (أوج)؛ أي: علو، وهو ضد الهبوط، قاله في «القاموس» وأغفل هذه اللفظة الجوهري وابن منظور وغيرهما[(١)]، وقيل: إنها معرَّبة، وهي كلمة هندية معناها العلو، كما تقدم[(٢)].

منزلة العلماء وقدرهم في المجتمع

قوله: (إذ هم القائمون على تهذيب الملكات وإرشاد العقول، والهادون إلى صراط الحق وميزان العدل والصدق) هذا في بيان منزلة العالم وقيمته في المجتمع وبيان أثره ونفعه، وقد جاء في أحاديث ضعيفة وموضوعة تشبيه العلماء بالنجوم[(٣)]، وقد عبر العلماء عن هذا بألفاظ متعددة. قال أبو مسلم الخولاني: «العلماء في الأرض مثل النجوم في السماء، إذا بدت للناس اهتدوا بها، وإذا خفيت عليهم تحيروا» وقال أبو الأسود الدؤلي: «ليس شيءٌ أعزَّ من العلم، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك»[(٤)].

---

(١) «تاج العروس» (٥/ ٤٠٦).

(٢) انظر: «قصد السبيل» (١/ ٢٢٢).

(٣) انظر: على سبيل المثال حديث أنس رضي الله عنه في «المسند» (٢٠/ ٥٢). وانظر: «موافقة الخُبْر الخَبَر» (١/ ١٤٥)، «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» (١/ ٧٨ ـ ٨٤).

(٤) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٤٢).

وجه تشبيه العلماء بالنجوم

وقال الحافظ ابن رجب عن تمثيل العلماء بالنجوم: «هذا مثل في غاية المطابقة؛ لأن طريق التوحيد والعلم بالله تعالى وأحكامه وثوابه وعقابه لا يدرك بالحس، إنما يعرف بالدليل، وقد بين ذلك كله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.

فالعلماء بما أنزل الله على رسوله هم الأدلاء الذين يهتدى بهم في ظلمات الجهل والشبه والضلال، فإذا فُقدوا ضل السالك.

وقد شبّه العلماء بالنجوم، والنجوم في السماء فيها **ثلاث فوائد**:

يهتدى بها في الظلمات، وهي زينة للسماء، ورجوم للشياطين الذي يسترقون السمع منها. والعلماء في الأرض تجتمع فيهم هذه الأوصاف الثلاثة:

بهم يهتدى في الظلمات، وهم زينة الأرض، وهم رجوم للشياطين الذين يخلطون الحق بالباطل، ويُدخلون في الدين ما ليس منه من أهل الأهواء، وما دام العلم باقيًا في الأرض فالناس على هدى..»[(١)].

وقد جاء في هذا المعنى قول النبي ﷺ: «**النجوم أَمَنَةٌ للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماءَ ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون**»[(٢)].

وقول المؤلف: (وتهذيب الملكات) جمع مَلَكَةٍ: وهي الصفة الراسخة في النفس.

إشارة القاسمي إلى اختصاره هذه الرسالة من «المجموع» للنووي

قوله: (وقد رأيت من أحسن ما جمع في مقاصد هذا البحث الجليل ما أورده محيي الدين النووي ـ أحد أئمة الرواية والدراية المشاهير ـ في مقدمة «شرح المهذب»، فآثرت عنه خلاصة ما أثره عن أساطين الحكمة المتقدمين، وجعلته مقالة موجزة).

---

(١) «ورثة الأنبياء شرح حديث أبي الدرداء رضي الله عنه» مجموع رسائل ابن رجب (١/ ١٤ ـ ١٥).

(٢) رواه مسلم (٢٥٣١) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

ذكر أنه استفاد ما سطره في هذه الرسالة من الإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، ووصفه **بقوله**: (أحد أئمة الرواية والدراية)؛ لأنه معدود من المحدثين، وهو كذلك من كبار فقهاء الشافعية ـ كما تقدم ـ، فوصفه بأنه من أئمة الدراية، وهي الفهم والفقه.

وقوله: (في مقدمة «شرح المهذب») المسمى بـ«المجموع» وقد شرح النووي في هذا الكتاب كتاب «المهذب» لأبي إسحاق الشيرازي الشافعي (ت٤٧٦هـ) ولم يكمله، ـ كما تقدم ـ.

قوله: (فآثرت)؛ أي: فضلت واخترت، قال تعالى حكاية عن إخوة يوسف عليه السلام: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ [يوسف: ٩١].

قوله: (خلاصة ما أثره)؛ أي: نَقَلَهُ.

قوله: (عن أساطين الحكمة المتقدمين، وجعلته مقالة موجزة) الأساطين في الأصل: جمع أسطوانة، وهي العمود والسارية، ويعبر بهذا عمن لهم قدم راسخة في العلم، يقال: فلان من أساطين العلم أو الحكمة. قال في «المعجم الوسيط»(١): أساطين العلم أو الأدب: الثقات المبرزون فيه، مفرده: أسطون.

وقد أحسن القاسمي في هذا الاختيار، وأحسن في الاختصار، لكنه حذف في بعض المواضع ألفاظًا مكملة، أو مصححة للمعنى، كما أنه أبدل بعض الألفاظ بألفاظ أخرى، ولعله رأى أنها أنسب للمراد في هذا العصر، وقد زاد شيئًا من الألفاظ والمصطلحات. فرحمه الله وجزاه على ما قدم للأمة خير الجزاء. والله أعلم.



(١) (ص١٨).



أحكام درس العلوم الشرعية

* أنواع العلوم الشرعية لا تُعَدُّ، وفي أحكامها ثلاثة أقسام:

* القسم الأول: فرض العين منها:

* ويقال له: الضروري، وهو درس المكلف ما تصح به عقيدته، وتجزئ معه عبادته، وتنفذ عقوده ومعاملته، وما لا غنى له عنه مما يتناوله ويستعمله.

* ويدخلُ في ذلك درس أمراض القلب، كالحسد، والعُجب، والبُخل وأمثالها من المهلكات، فقد قال الغزالي: معرفة حدودها وأسبابها وطِبِّها وعلاجها فرض عين.

* القسم الثاني: فرض الكفاية:

* ويقال له: الحاجي، وهو درس ما لا بد للناس منه في إقامة دينهم؛ كحفظ القرآن والأحاديث وعلومهما، والأصول، والفقه، والنحو، واللغة، ومعرفة رواة الحديث، والإجماع، والخلاف.

* ومنه: ما يُحتاج إليه في قِوام أمر الدُّنْيا؛ كالطب، والحساب، والهندسة.

* ومنه: تعلُّم الصنائع التي هي سبب قيام مصالح الدُّنيا كالزراعة ونحوها.

❋ القسم الثالث: النفـل:

❋ ويقال له: التحسيني، وهو كالتبحر في أصول الأدلة، والإمعان فيما وراء القَدْر الذي يحصل به فرض الكفاية والتوسع في فنون الأدب والمعقول.

الشرح

أركان مهمة التربية والتعليم

اعلم أن الأركان أو المقومات الأساسية لعملية التربية والتعليم أربعة:

١ ـ المادة العلمية التي تُعلَّم للدارس.

٢ ـ الأستاذ أو العالم الذي يقوم بعملية التربية والتعليم.

٣ ـ الطريقة التي يُوصِّل بها العالم المادة إلى الطالب.

٤ ـ الطالب الذي يتلقى العلم[١].

وهذه الرسالة قد اشتملت على بيان وافٍ لما يتعلق بهذه الأركان الأربعة، كما ستراه ـ إن شاء الله تعالى ـ.

تقسيم العلوم باعتبار حكمها

قوله: (أنواع العلوم الشرعية لا تعد، وفي أحكامها ثلاثة أقسام) هذا فيه بيان ما يتعلق بالمادة العلمية التي تتضمنها الكتب، ويسعى إلى تحصيلها طلاب العلم، كما يسعى المعلمون إلى بثها، وفيه بيان مدى قيمتها ومبلغ أصالتها وفائدتها، وقد أفاد أن هذا التقسيم من حيث الحكم الشرعي كما سيتبين.

تقسيم العلوم باعتبار غايتها

وهناك تقسيم آخر للعلوم باعتبار غايتها، وهي **نوعان**:

١ ـ علوم نافعة تزكي النفوس، وتهذب الأخلاق، وتصلح العقائد، وتكون بها الأعمال الصالحة مثمرة، وهي علوم الشريعة وما يتبعها مما يعين عليها من علوم العربية.

---

(١) انظر: «التربية عند الإمام الشاطبي» (ص١٢).

٢ ـ علوم لا يقصد بها تهذيب الأخلاق وإصلاح العقائد والأعمال، وإنما القصد منها المنافع الدنيوية. فهي صناعة من الصناعات، ويتفاوت أجرها بتفاوت منافعها، فإن قُصد بها الخير، وبنيت على الإيمان صارت علومًا دينية يثاب القائم بها، وإلا صارت دنيوية محضة؛ بل قد يترتب عليها الذمّ والعتاب إذا وُجهت وجهة غير صحيحة[١].

أقسام العلوم باعتبار حكمها: ١ ـ فرض العين

قوله: (القسم الأول: فرض العين منها: ويقال له الضروري) أصل فرض العين: ما طَلَبَ الشارع فعله من كل فرد من أفراد المكلفين به، ولا يجزئ قيام مكلف به عن آخر[٢].

وقوله: (ويقال له الضروري)[٣]؛ أي: في هذا الباب، وهو باب أنواع العلوم. والضروري: نسبة إلى الضرورة، وأصلها المشقة والحاجة الشديدة[٤]. والمراد هنا: العلوم التي لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا.

تعريفه وأمثلته

قوله: (وهو درس المكلف ما تصح به عقيدته وتجزئ معه عبادته، وتنفذ عقوده ومعاملته، وما لا غنى له عنه مما يتناوله ويستعمله) المراد بهذا: ما يتوقف عليه معرفة عبادة يريد فعلها، أو معاملة يريد القيام بها. وعليه حمل جماعات من أهل العلم حديث: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[٥]، وهذا الحديث معناه صحيح وإن كان في سنده مقال.

---

(١) انظر: «الفتاوى السعدية» (ص١٠٤ ـ ١٠٥).
(٢) «فرض الكفاية في الشريعة الإسلامية» (ص٧٨).
(٣) التعبير بالضروري والحاجي والتحسيني من تعبير القاسمي، وهي ألفاظ مستعملة عند الأصوليين، كما سيأتي ـ إن شاء الله ـ في كلام الشاطبي.
(٤) انظر: «معجم مصطلحات أصول الفقه» (٢٦٥ ـ ٢٦٦).
(٥) أخرجه من أصحاب الكتب الستة ابن ماجه (١/٨١)، وأخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٢٨٣٧)، والطبراني في «الأوسط»: (١/٣٣)، وغيرهم كثيرون. وقد اختلف أهل العلم في هذا الحديث، فمنهم من صححه، ومنهم من ضعفه، فقد نقل ابن الجوزي في «العلل» (١/٦٦) قول الإمام أحمد: (لا يثبت عندنا =

والمراد بالعلم هنا: العلم الشرعي، والمقصود به كل علم يحتاج إليه المكلف في أمر دينه، كأصول الإيمان، وشرائع الإسلام، وما يحتاج إليه في المعاملات، ونحو ذلك مما لا يتم الواجب إلا به، فالعلم به واجب. قال الإمام أحمد: (يجب أن يطلب من العلم ما يقوم به دينه)، فقيل له: فكل العلم يقوم به دينه! قال: (الفرض الذي يجب عليه في نفسه لا بد له من طلبه)، قيل: مِثْلُ أيِّ شيء؟ قال: (الذي لا يسعه جهله: صلاته، وصيامه، ونحو ذلك)، قال ابن مفلح: ومراد أحمد: ما يتعين وجوبه، وإن لم يتعين، ففرض كفاية[(١)].

ما يدخل فيه من باب الآداب

قوله: (ويدخل في ذلك درس أمراض القلوب؛ كالحسد، والعُجب، والبُخل، وأمثالها من المهلكات)؛ أي: ويدخل في العلم الضروري الذي لا بد منه لكل مسلم: ما يتعلق بأمراض القلوب. ومعنى ذلك أن العلم الضروري ليس مختصًّا بالأحكام الشرعية، سواء ما تعلق بالاعتقاد، أو ما تعلق بعمل المكلف، وإنما يدخل في ذلك ما

= في هذا الباب شيء) والحديث مروي عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم. وله طرق جمعها السيوطي في جزء مطبوع. ورواه ابن الجوزي في «العلل»: (١/ ٥٧) من أربعة عشر طريقاً من حديث أنس رضي الله عنه ثم تكلم عليها. ولعل تعدد رواياته وطرقه يدل على أن له أصلاً، وقد صححه بعض الحفاظ المتأخرين، قال ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (١/ ٢٥٨): (قال الحافظ المزّي الشافعي: وله طرق كثيرة عن أنس، يصل مجموعها إلى مرتبة الحسن... وفي «تلخيص الواهيات» للذهبي: رُوِي عن علي وابن مسعود وابن عمر وابن عباس وجابر وأنس وأبي سعيد رضي الله عنهم، وبعض طرقه أوهى من بعض، وبعضها صالح، والله أعلم).

ومال السخاوي في «المقاصد»: (٢٧٥) إلى تصحيحه، ونقل المناوي في «فيض القدير»: (٤/ ٣٥٤) أن السيوطي حسّنه. وممن صححه الألباني في «تخريج أحاديث مشكلة الفقر» وقال بعد أن تكلم عن طرقه: (إن طرقه يقوي بعضها بعضاً، بل إن أحدها حسن، فالحديث بمجموع ذلك صحيح بلا ريب عندي).

قال السخاوي في «المقاصد»: (٢٧٧): (وقد ألحق بعض المصنفين بآخر هذا الحديث «ومسلمة» وليس لها ذكر في شيء من طرقه، وإن كان معناها صحيحاً).

(١) الفروع (٢/ ٣٤٢).

تعلق بأمراض القلوب مثل: الحسد والحقد والكبر والخيلاء والعجب وسوء الظن والبخل والمكر وحب الرئاسة وغير ذلك. ومرض القلب لا يخرج عن شهوة أو شبهة أو مركَّب منهما.

كلمة الغزالي في دخول معرفة أمراض القلوب في فرض العين

قوله: (فقد قال الغزالي[١]: معرفة حدودها، وأسبابها، وطبِّها وعلاجها فرض عين)؛ أي: إن الغزالي رحمه الله ذكر في كتابه «إحياء علوم الدين»[٢] أن معرفة حدود أمراض القلوب وضوابطها، ومعرفة أسباب أمراضها، ومعرفة علاجها من هذه الأمراض داخل في فرض العين، فيكون ذلك واجبًا على كل مسلم بعينه، لا يقوم غيره مقامه؛ لأن المطلوب من المكلف السعي إلى إصلاح قلبه، وإزالة أمراضه، ومعالجة أدرانه، ولا يمكن ذلك إلا بمعرفة هذه الأمور الثلاثة: «حدود أمراض القلب، وأسبابها، وعلاجها»؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ومن لا يعرف الشر يقع فيه. هذا قول الغزالي في هذه المسألة.

وقال غيره: إن رُزق المكلف قلبًا سليمًا من هذه الأمراض المحرمة كفاه ذلك، ولا يلزم تعلم دوائها، وإن لم يسلم نُظِرَ، فإن تمكن من تطهير قلبه من ذلك بلا تعلم لزمه التطهير، كما يلزمه ترك الزنا ونحوه من غير تعلم أدلة الترك، وإن لم يتمكن من الترك إلا بتعلم العلم المذكور تعين حينئذٍ. والله أعلم[٣].

ولا ريب أن سلامة القلب وصحته وخلوصه عما يعيقه في سيره

(١) هو: أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، فيلسوف، متصوف، نسبته إلى صناعة الغزل (عند من يقوله بتشديد الزاي) أو إلى غزالة من قرى طوس (لمن قال بالتخفيف)، من كتبه: «إحياء علوم الدين»، «أيها الولد»، «شفاء العليل» في أصول الفقه، «المستصفى من علم الأصول»، وغيرها كثير، توفي سنة (٥٠٥) رحمه الله «وفيات الأعيان» (٤/٢١٦)، «الأعلام» (٧/٢٤٧).

(٢) (١/١٥).

(٣) انظر: «المجموع» (١/٢٦).

إلى الله تعالى والدار الآخرة سبب لسعادة الدارين، وسلامته من هذه الأمراض وغيرها عنوان فلاحه وسبب نجاته، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩].

كلمة نفيسة لابن القيم في هذا الباب

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يتحدث عن الأمور التي تتم بها سعادة العبد وفلاحه، فذكر منها: «أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير، ويكون له بصيرة في ذلك بما يشاهده في العالم، وما جربه في نفسه وغيره، وما سمعه من أخبار الأمم قديمًا وحديثًا. ومن أنفع ما في ذلك تدبر القرآن، فإنه كفيل بذلك على أكمل الوجوه، وفيه أسباب الشر والخير جميعًا مفصلة مبينة، ثم السُّنَّة، فإنها شقيقة القرآن، وهي الوحي الثاني. ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما عن غيرهما، وهما يريانك الخير والشر وأسبابهما، حتى كأنك تعاين ذلك عيانًا...»(١).

٢ ـ فرض الكفاية

قوله: (القسم الثاني: فرض الكفاية) أصل فرض الكفاية: ما يتحتم أداؤه على جماعة المكلفين، فإذا قام به من يكفي سقط عن الباقين، وعليه ففرض الكفاية مطلوب فيه إيقاع الفعل من غير نظر إلى فاعله، لكنَّ القادر على أداء الفرض الكفائي مطالب بأن يقوم به، وغير القادر عليه أن يحث القادر ويحمله على القيام به، فإن أُدي الفرض الكفائي سقط الإثم عنهم جميعًا، وإذا أُهمل أثموا جميعًا(٢).

قوله: (ويقال له الحاجي) نسبة إلى الحاجة من حاج إليه: إذا افتقر، ومرتبة الحاجة دون مرتبة الضرورة. فالجوع الذي يؤدي إلى مشقة ولا يؤدي إلى هلاك صاحبه يُعَدُّ حاجة، ولا يبيح له أكل المحرم، فإن أدى إلى هلاك صاحبه صار ضرورة، يبيح له ما ذكر(٣).

تعريفه هنا، وأمثلته

قوله: (وهو درس ما لا بد للناس منه في إقامة دينهم)؛ أي: من

(١) «الداء والدواء» (ص٣٥).
(٢) انظر: «الموافقات» (١/١٧٨ ـ ١٧٩)، «الحكم التكليفي» (ص٩٩).
(٣) انظر: «مصطلحات أصول الفقه» (ص١٦٤).

العلوم الشرعية وما يتبعها مما يعين عليها من علوم الآلة **(كحفظ القرآن، والأحاديث وعلومهما، والأصول، والفقه، والنحو، واللغة، ومعرفة رواة الحديث)**؛ أي: رجال الإسناد **(والإجماع)**؛ لئلا يعمل أو يفتي بما يخالف الإجماع **(والخلاف)**؛ أي: معرفة المسائل الخلافية؛ لأنه يحتاج إليها في الفتوى.

قوله: **(ومنه ما يحتاج إليه في قِوام أمر الدنيا؛ كالطب)** في بقاء الأبدان؛ لكونه ضروريًّا، وكذا علم البيطرة المتعلق بأحوال الدواب من صحة ومرض **(والحساب)** لكونه ضروريًّا في المعاملات، وقسمة المواريث، والوصايا ونحوها **(والهندسة)**[١]؛ لأنه يحتاج إليها في شؤون المباني والصناعات، وكذا علم المساحة؛ لأنه يحتاج إليه في قسمة الأراضي وغيرها. فهذه من فروض الكفايات، ليس لأنها من العلوم الشرعية، ولكن لأنها لا تتم مصالح الأمة إلا بها، ولا شك أنها إذا وجدت من أبناء الأمة الإسلامية، فإن هذا يعني الاكتفاء الذاتي والاستغناء عن الأمم الأخرى، فلا تكون الأمة المسلمة عالة على غيرها، وهذا مطلوب.

دخول علوم الدنيا في فرض الكفاية

قوله: **(ومنه: تعلم الصنائع التي هي سبب قيام مصالح الدنيا؛ كالزراعة)**؛ أي: ومن فروض الكفايات تعلم الصنائع التي يحتاج إليها، كالزراعة، وهو علم الفِلاحة، الذي يراد به معرفة أحوال النبات من حيث تنميته بالسقي والعلاج من بدء كونه إلى تمام نشأته، فهذا ضروري للإنسان في معاشه، ولهذا اشتق اسمه من الفَلاحِ وهو البقاء[٢].
(ونحوها)؛ أي: من الصنائع التي تحتاجها الأمة، كالحدادة والنجارة والصناعة بأنواعها.

رأي ابن القيم في هذه المسألة

على أن ابن القيم رحمه الله تعالى لم يرتضِ عدَّ تعلم الصنائع من فروض الكفايات، فقال رحمه الله تعالى: «وأما فرض الكفاية فلا أعلم

---

(١) هذه اللفظة من زيادات القاسمي رحمه الله وقد استعملها ابن القيم ـ كما سيأتي ـ.
(٢) انظر: «المصباح المنير» (ص٤٨٠)، «خزانة العلوم» (ص١٨٠).

فيه ضابطًا صحيحًا؛ فإن كل أحد يُدخِل في ذلك ما يظنه فرضًا، فيدخل بعض الناس في ذلك علم الطب وعلم الحساب وعلم الهندسة والمساحات، وبعضهم يزيد على ذلك علم أصول الصناعات؛ كالفِلاحة والحِياكة والحِدادة والخِياطة ونحوها... وكل ذلك هَوَسٌ وخبط...»[١].

٣ـ النفل تعريفه، وأمثلته

قوله: **(القسم الثالث: النفل)** وهو ما زاد عن الفرض العيني والكفائي **(ويقال له التحسيني)** نسبة إلى التحسين والتزيين، وهو ما استحسن عادةً من غير احتياج إليه، وعليه فليس هو ضروريًّا ولا حاجيًّا **(وهو كالتبحّر في أصول الأدلة)**؛ أي: الكتاب والسُّنَّة والإجماع والقياس. والتبحر في العلم: التعمق والتوسع كتوسع البحر[٢]. **(والإمعان فيما وراء القدر الذي يحصل به فرض الكفاية)**؛ أي: ما زاد عن المطلوب في فرض الكفاية **(والتوسع في فنون الأدب)** كالشعر الذي لا سخف فيه، وكذا تواريخ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام **(والمعقول)** ومن ذلك علم الميقات، وهو أحد فروع علم الفلك «الهيئة» وهو علمٌ يعرف به أزمنة الأيام والليالي وأحوالها[٣]. ومن ذلك ـ أيضًا ـ علم العروض: وهو ما يعرف به صحيح أوزان الشعر من فاسدها. وعلم القوافي: وهو ما يعرف به أحوال آخر الأبيات الشعرية.

وهذا التقسيم للعلوم الذي ذكر المؤلف منظور فيه إلى الغاية، وإلا فالعلم من حيث إنه علم فضيلته لا تنكر ولا تذم، فالعلم بالشيء النافع أولى من جهله[٤].

تقسيم العلم للإمام الشاطبي

هذا وقد رأيت للإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامًا نفيسًا في تقسيم العلم، لم يُسبق إليه ـ في نظري ـ رأيت اختصاره؛ لما فيه من الفائدة.

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥).
(٢) انظر: «تاج العروس» (١٠/ ١٢٥).
(٣) انظر: «خزانة العلوم» (ص١٦٦).
(٤) انظر: «أبجد العلوم» (١/ ٥٠).

فقد قسَّم الإمام الشاطبي العلم باعتبار أصالته وفائدته **ثلاثة أقسام**:

١ ـ ما هو من صُلْبِ العلم.

٢ ـ ما هو من مُلَحِ العلم.

٣ ـ ما ليس من صلبه ولا ملحه.

١ ـ ما هو من صُلْب العلم

فالأول: ـ وهو ما كان من صلب العلم ـ: هو الأصل المتعمد؛ لأنه لُباب العلم وجوهره، وهو الذي عليه مدار الطلب، وإليه تنتهي مقاصد الراسخين، وهو ما كان قطعيًّا أو راجعًا إلى قطعي، والشريعة المباركة المحمدية منزلة على هذا الوجه، ولذلك كانت محفوظة في أصولها وفروعها، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحِجر: ٩].

وهذا النوع يرجع إلى حفظ المقاصد التي بها يكون صلاح الدارين: وهي الضروريات، والحاجيات، والتحسينات، وما هو مكمل لها ومتمم لأطرافها. وهذا القسم يمتاز عن غيره بالعموم والاطراد، والثبوت والاستمرار، وكون العلم حاكمًا لا محكومًا عليه.

٢ ـ ما هو من مُلَح العلم

والثاني: ما كان من مُلَحِ العلم، وهو ما لم يكن قطعيًّا ولا راجعًا إلى أصل قطعي، وهذا دون الأول في قيمته ونفعه، وفيه إمتاع للنفس بما يشتمل عليه من مُلح وطرائف يحتاج إليها الإنسان بعد كِلَالِ الذهن والبدن.

وقد ذكر الشاطبي لهذا القسم أمثلة كثيرة، ومنها: الحِكَمُ المستخرجة للأحكام الشرعية التي لا يعقل معناها؛ كاختصاص الوضوء بالأعضاء المخصوصة، وهيئات الصلاة، والتأنق في استخراج الحديث من طرق كثيرة لا على قصد طلب تواتره، ومن ذلك التفريعات والعلل في مسائل العربية، ونحو ذلك مما يكون الاشتغال به من مُلح العلم لا من صلبه.

٣ ـ ما ليس من صُلْب العلم ولا مُلَحِه

والقسم الثالث: ما ليس من صلب العلم ولا مُلَحه، وهو الذي لا يرجع إلى أصل قطعي ولا ظني، ولا ثبوت فيه ولا اطراد، ولا هو من ملح العلم؛ لأن المُلَحَ هي التي تستحسنها العقول وتستملحها النفوس، إذ ليس يصحبها مُنَفِّرٌ، ولا هي مما تعادي العلوم؛ لأنها ذات أصل مبني عليه في الجملة، بخلاف هذا القسم فإنه ليس فيه شيء من ذلك. ومثال ذلك: ما انتحلته الحركات الباطنية في كتاب الله تعالى من تأويلات باطلة تبعد القرآن عن ظاهره، وأنه لا سبيل إلى نيل ذلك بعقل ولا نظر، وإنما يُنال ذلك عن طريق التعليم من الإمام المعصوم أو من معلم ينيبه. وقد كثرت في الأزمنة المتأخرة الدعاوى على الشريعة بأمثال ما ادعاه الباطنية، وكل ذلك ليس له أصل يبنى عليه، ولا ثمرة تجنى منه؛ بل هو وبال على صاحبه. والله المستعان.

ثم ذكر الشاطبي أنه يعرض للقسم الأول أن يُعَدَّ من الثاني، ويتصور ذلك في خلط بعض العلوم ببعض، كالفقيه يبني فقهه على مسألة نحوية مثلًا، فيرجع إلى تقريرها كما يقررها النحوي، وهكذا سائر العلوم التي يخدم بعضها بعضًا. وقد يعرض للقسم الثاني أن يصير من الثالث، ويتصور ذلك فيمن يتبجح بذكر المسائل العلمية لمن ليس من أهلها، أو ذكر كبار المسائل لمن لا يحتمل عقله إلا صغارها على ضد التربية المشروعة، التي سيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ بيانها. والله تعالى أعلم[١].

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «الموافقات» (١/ ٧٧ ـ ٨٧)، «التربية عند الإمام الشاطبي» (ص١٣).



آداب المدرِّس: أدبه في نفسه

❋ أهم ما يطلب منه أن يعتني به: أدبه في نفسه، وأدبه في درسه.

❋ القسم الأول: أدبه في نفسه:

❋ وذلك في أمور:

❋ منها: أن يقصد بتعليمه وجه الحَقِّ، لا توسلًا إلى غرض دنيوي ـ كمالٍ، أو جاه، أو شهرةٍ، أو تكثير المختلفين إليه، أو نحو ذلك ـ كما كان عليه سلف الأمة.

❋ فقد قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وددت أن الخلقَ تعلموا هذا العلم على ألا يُنْسَبَ إليَّ حرف منه.

❋ وقال أيضًا: ما ناظرتُ أحدًا قط على الغلبة، ووددتُ إذا ناظرت أحدًا أن يَظهر الحقُّ على يده.

❋ ومنها: أن يتخلقَ بالمحاسن التي ورد الشَّرع بها وحثَّ عليها، والخلال الحميدة، والشيم المرضية التي أرشد إليها؛ كالحِلْم، والصبر، والسَّخاء، والجود، وطلاقة الوجه من غير خروج إلى حدِّ الخلاعة، وملازمة الورع، والوقار، والتَّواضع، والتنظف في البدن واللِّبْسة.

❋ ومنها: الحذر من الحسد والرِّياء والإعجاب، وتزكية النفس، وازدراء الناس، وإن كانوا دونه بدرجات.

❁ ومنها: أنَّه إذا ترخص في أمر جائز وخِيفَ أن يُظَنَّ خلافه: أن يخبر أصحابه ـ ومن يراه ـ حقيقة ذلك الفعل؛ لينتفعوا، ولئلا يأثموا بظنهم السَّيِّئ.

الشرح

لماذا بدئ بآداب المدرس؟

بدأ المؤلف بذكر آداب المدرس؛ لأنه الأصل، والقدوة، فصلاحه في نفسه؛ يعني: صلاح من يأخذ عنه؛ ولأنه الذي يؤخذ عنه العلم، فهو الواسطة الضرورية لنقل العلم إلى عقل الطالب وقلبه.

مجمل آداب المدرس أربعة

قوله: (أهم ما يُطلب منه أن يعتني به: أدبه في نفسه، وأدبه في درسه) ذكر المؤلف أربعة آداب تتعلق بالمدرس، وهي أدبه في نفسه، وأدبه في درسه، وأدبه في تصنيفه، وأدبه في تعليمه.

القسم الأول: أدبه في نفسه، معناه

قوله: (القسم الأول: أدبه في نفسه): والمراد بذلك: الآداب التي تتعلق بشؤون نفسه، وأمور حياته التي تخصه، كالإخلاص، وحسن الخلق، وجمال المظهر، والبعد عما لا يليق به.

أدبه في نفسه أنواع:
١ ـ الإخلاص

قوله: (وذلك في أمور: منها: أن يقصد بتعليمه وجه الحق...) هذا الأدب الأول من أدبه في نفسه، وهو من أهم آداب المدرس ـ ومثله طالب العلم كما سيأتي ـ، وهو الإخلاص وسلامة النية؛ لأن العلم عبادة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيِّنة: ٥]. قال بعض العلماء: «العلم صلاة السِّرِّ، وعبادة القلب، وقربة الباطن» وقيل: الإفادة من أفضل العبادة[١]. فإن فَقَدَ العلم إخلاص النية انتقل من أفضل الطاعات إلى أحطّ المخالفات.

تنزيه العلم عن المطامع والأغراض الدنيوية

بقوله: (لا توسلًا)؛ أي: توصلًا (إلى غرض دنيوي كمالٍ) أي: لا ينبغي للعالم أن يجعل علمه وتعليمه سُلَّمًا يتوصل به إلى شيء من

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٨٦)، «أبجد العلوم» (١/ ١٦٧).

الأغراض الدنيوية، بل عليه أن يبذله ابتغاء وجه الله تعالى؛ اقتداءً بأنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [هود: ٢٩] وقال تعالى عن نبيه هود عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ﴾ [هود: ٥١] وقال تعالى عن نبيه محمد ﷺ: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦﴾ [ص: ٨٦]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (تعليم القرآن والعلم بغير أجرة أفضل الأعمال، وأحبُّها إلى الله، وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام، ليس هذا مما يخفى على أحد ممن نشأ بديار الإسلام، والصحابة والتابعون وتابعو التابعين وغيرهم من العلماء المشهورين عند الأمة بالقرآن والحديث والفقه إنما كانوا يعلمون بغير أجرة، ولم يكن فيهم من يعلم بأجرة أصلًا)(١)، وقال الشيخ الشنقيطي: (إن الواجب على أتباع الرسل من العلماء وغيرهم أن يبذلوا ما عندهم من العلم؛ ابتغاء وجه الله تعالى والدار الآخرة، وأنه لا ينبغي أخذ الأجرة على تعليم كتاب الله تعالى، ولا على تعليم العقائد والحلال والحرام)(٢).

ومسألة أخذ الأجرة على تعليم القرآن والحديث والفقه ونحوها موضع خلاف بين أهل العلم، وليس هذا موضع بسطه، لكن يجوز أن يعطى المعلم من بيت المال، كما يعطى الأئمة والمؤذنون والقضاة وغيرهم، ويجوز للمحتاج المتفرغ للتعليم أخذ الأجرة على ذلك(٣).

ومما يدل على ما تقدم أن عمر بن عبد العزيز بعث يزيد بن أبي

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٠/ ٢٠٤).

(٢) «أضواء البيان» (٣/ ٢٠).

(٣) انظر: «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٣٠/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧)، «الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن الكريم» (٢/ ١٤٣٥)، «التفسير والبيان لأحكام القرآن» (٣/ ١٥٩٩)، «الجامع في كتب آداب المعلمين» (ص٧٨).

مالك، والحارث بن أبي محمد إلى البادية أن يعلما الناس، وأجرى عليهما الرِّزْقَ. فقبل يزيد، ولم يقبل الحارث. وقال: ما كنت لآخذ على علم علمني الله أجرًا. فَذُكِرَ ذلك لعمر بن عبد العزيز. فقال: ما نعلم بما صنع يزيد بأسًا، وأكثر الله فينا مثل الحارث[١]. وقال أبو حازم: «لا يكون العالم عالمًا حتى يكون فيه ثلاث خصال: لا يحقر من دونه في العلم، ولا يحسد من فوقه، ولا يأخذ على علمه دنيا»[٢].

قوله: (أو جاه أو شهرة أو تكثير المختلفين إليه، أو نحو ذلك) هذا معطوف على **قوله**: (كمالٍ) والمراد أن العالم لا يجعل علمه وسيلة إلى تحصيل مال أو الطمع في جاهٍ أو سمعة أو شهرة أو تكثير الدارسين عليه والآخذين عنه، أو نحو ذلك مما يكون له أثر على الإخلاص وسلامة القصد.

وقوله: (كما كان عليه سلف الأمة) هذا متعلق **بقوله**: (أن يقصد بتعليمه وجه الحق) والمراد بذلك: أن الإخلاص وسلامة القصد هو الذي عليه سلف الأمة، ولهذا نفع الله بهم، وصاروا أئمة يقتدى بهم.

قال النووي: «وليحذر العالم كل الحذر من قصده التكثر بكثرة المشتغلين عليه، والمختلفين إليه، وليحذر من كراهته قراءة أصحابه على غيره ممن يُنتفع به، وهذه مصيبة يبتلى بها بعض المعلمين الجاهلين، وهي دلالة بينة من صاحبها على سوء نيته وفساد طويته؛ بل هي حجة قاطعة على عدم إرادته بتعليمه وجه الله تعالى الكريم، فإنه لو أراد الله بتعليمه لما كَرِهَ ذلك؛ بل قال لنفسه: أنا أردت الطاعة بتعليمه وقد حَصَلَتْ، وقد قصد بقراءته على غيري زيادة علم، فلا عَتْبَ عليه»[٣].

فعلى العالم أن يحذر أن ينوي بعلمه إقبال الناس عليه، أو

(١) «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن الحكم (ص١٦٧).
(٢) «تهذيب الكمال» (١١/ ٢٧٦)، «الآداب الشرعية» (٢/ ٤٥).
(٣) «التبيان» (ص١٦).

استجلاب شيء من حطام الدنيا، أو طلب الكرامة عند السلطان أو غيره. قال محمد بن الحسن: «لو كان الناس كلهم عبيدي، لأعتقتهم، وتبرأت عن ولائهم». يريد بذلك متاركتهم بالكلية، وعدم النظر إلى ما في أيديهم. وذلك لأن من وجد لذة العلم والعمل به، قلما يرغب فيما عند الناس.

وقد استثنى العلماء ما إذا طلب الجاه والمنصب للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنفيذ الحق، وإعزاز الدين، لا لأجل تحصيل مراد النفس، فيجوز ذلك بقدر ما يقيم به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١].

روى الخطيب في «الجامع»[٢] عن سفيان بن عيينة أنه قال: «كنت أوتيتُ فهم القرآن، فلما قبلت الصُّرَّةَ من أبي جعفر سُلبته»؛ أي: لما قبلت العطية من المال من الخليفة أبي جعفر المنصور سُلِبْتُ فهم القرآن، مع أن عطية السلطان يجوز أخذها إذا لم تكن بتطلع إليها، لكنه أراد ذم نفسه وعيبها، ولعل هذا ـ والله أعلم ـ هو مراده **بقوله**: **(أبى الله أن يجتمع فهم القرآن وحطام الدنيا في قلب عبد مؤمن أبدًا)**.

كلمة الشافعي في الإخلاص

قوله: **(فقد قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم على ألا ينسب إليَّ حرف منه)**[٣] مراد الشافعي أنه يتمنى أن الخلق استفادوا من كتبه وأخذوا العلم منها، دون أن ينسب إليه شيء من ذلك، وهذا من علامات الإخلاص؛ لأن المقصود ظهور الحق وبيان الشريعة، والاستفادة مما يؤلَّف، وليس حب التصدر والظهور.

قوله: **(وقال أيضًا: ما ناظرت أحدًا قط على الغلبة، ووددت إذا ناظرت أحدًا أن يظهر الحق على يده)** هذا فيه الإخلاص كما تقدم، وفيه

---

(١) انظر: «تعليم المتعلم» مع شرحه (ص١٠ ـ ١١).
(٢) (١/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨).
(٣) «أدب الشافعي ومناقبه» (ص٦٨)، «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ١٨).

ـ أيضًا ـ أدب عظيم من آداب المناظرة. والمناظرة: المحاورة بين فريقين حول موضوع، لكل منهما وجهةُ نظرٍ فيه، تخالف وجهة نظر الفريق الآخر، فيحاول كل فريق إثبات وجهة نظره، وإبطال وجهة نظر خصمه، مع رغبته الصادقة بظهور الحق والاعتراف به لدى ظهوره[(١)].

ومن أعظم آداب المناظرة: أن يكون قصد المناظر ظهور الحق، واتباع السُّنَّة، ولو كان على لسان غيره ممن يناظره أو يخالفه. وقد استحسن الإمام أحمد ما حكي عن حاتم الأصم أنه قيل له: أنت رجل أعجمي لا تفصح، وما ناظرك أحد إلا قَطَعْتَهُ، فبأي شيء تغلب خصمك؟ فقال: بثلاث: أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ لساني عنه أن أقول له ما يسوءه. فقال أحمد: ما أعقله من رجل![(٢)].

وقال الإمام الشافعي: «والله ما ناظرت أحدًا فأحببت أن يخطئ»[(٣)]. وقال ـ أيضًا ـ: «ما ناظرت أحدًا قطُّ إلا على النصيحة»[(٤)].

٢ ـ الأخذ بأحسن الأعمال ظاهرًا وباطنًا

قوله: **(ومنها: أن يتخلّق بالمحاسن التي ورد الشرع بها وحث عليها، والخلال الحميدة، والشيم المرضية التي أرشد إليها)** هذا الأدب الثاني من أدب المدرس في نفسه، وهو أن يعمر ظاهره وباطنه بمحاسن الأخلاق وجميل الصفات، التي جاءت بها الشريعة؛ لأنه أولى الناس بذلك؛ لأن العالم لا يعد عالمًا إلا إذا كان عاملًا، ولا يكون العالم عاملًا بعلمه حتى يتحلى بعمارة الظاهر والباطن. قال الإمام مالك: «عليك بمعالي الأمور وكرائمها، واتق رذائلها وما سفَّ، فإن الله تعالى يحب معالي الأمور، ويكره سفاسفها»[(٥)]. وقال الشافعي: «ليس العلم

(١) «معجم مصطلحات أصول الفقه» (ص٤٥٠).
(٢) «الفرق بين النصيحة والتعيير» (ص٣٥).
(٣) رواه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٥٠).
(٤) «حلية الأولياء» (٩/ ١١٨).
(٥) «ترتيب المدارك» (٢/ ٦٥).

ما حُفِظ، العلم ما نفع»[١].

بعض محاسن الأخلاق

قوله: (كالحلم، والصبر، والسخاء، والجود) هذه بعض من محاسن الأخلاق التي ينبغي للمدرس أن يتخلق بها.

١ ـ الحِلْم

فالحِلْم: خلاف الطيش، وهو ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب[٢]. والمدرس ـ ولا سيما في المدارس النظامية ـ بحاجة إلى الحلم والترفع عن سرعة الانفعال، والبعد عن الألفاظ التي لا تليق بمكانته ولا بمكانة درسه.

وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ مزيد لهذا عند الكلام على صفة الحِلْم في حق طالب العلم في الدرس الرابع عشر.

٢ ـ الصبر

والصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش[٣]، والواجب على المدرس تحمل ما يحصل من الأذى من الطلاب أو من غيرهم؛ لأن المدرس لا يسلم من شيء يكرهه؛ لأنه أمام جمع من الطلاب، تختلف فيهم الاتجاهات والنزعات والعواطف والاستعدادات، فإذا لم يتحلَّ بالصبر انفلت الأمر من يده، وضاع درسه، وذهبت هيبته، وتعدّت آثار عدم الصبر إلى صحته.

٣ ـ الجود والسخاء

ثم ذكر المؤلف السخاء والجود: وهي مما ينبغي أن يتصف به المدرس، وظاهر كلام المصنف أنهما متغايران، فالجود: كثرة العطاء من غير سؤال؛ صيانةً للأخذ من ذلِّ السؤال، والسخاء: أن يلين الإنسان عند السؤال، ويُسَهِّل إعطاءه للسائل[٤]، ويرى ابن القيم أن السخاء أعلى مراتب العطاء والبذل، ويليه الجود. فإذا كان لا ينقصه

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٤٨).
(٢) «المفردات في غريب القرآن» (ص١٢٩).
(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٩٢).
(٤) انظر: «الفروق» للعسكري (ص١٦٧).

البذل ولا يصعب عليه العطاء، فهذا هو السخاء، وإن كان يعطي الأكثر ويبقي له شيئًا، أو يبقي مثل ما أعطى، فهذا هو الجود. وبقيت مرتبة ثالثة، وهي أن يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه، وهذا هو الإيثار[(١)]، ويرى آخرون أن السخاء بمعنى الجود، وهو بذل ما يقتنى بغير عوض[(٢)].

٤ ـ طلاقة الوجه بشرطه

قوله: (وطلاقة الوجه من غير خروج إلى حَدِّ الخلاعة) هذا أدب رفيع جاء الحث عليه في السُّنَّة النبوية الشريفة. فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طَلْق**»[(٣)] وطَلْقُ الوجهِ: ضاحكه ومشرقه. ففي هذا دليل على استحباب طلاقة الوجه وبشاشته عند اللقاء.

ويتأكد هذا في حق المدرس؛ لما في البشاشة من إيناس الطلاب وإدخال السرور عليهم، وفَهْمِ ما سيقوله لهم، وهذا أمر محسوس، ومع هذه الفائدة العظيمة فإن طلاقة الوجه لا تكلف الإنسان شيئًا، فهو فعل هين عظيم الأجر، كثير الفائدة.

وقوله: (من غير خروج إلى حد الخلاعة) هذا قيد لا بد منه؛ لأن طلاقة الوجه إذا زادت عن المطلوب صارت مسخرة ومذمة، وفيها ما يُشير إلى ضعف العقل، وقلة الحياء، وعدم الرزانة.

والخلاعة: مصدر خَلُعَ أي: ترك الحياء، وركب هواه، فهو خليع[(٤)].

٥ ـ الورع

قوله: (وملازمة الورع، والوقار) تنوعت عبارات السلف والعلماء في تفسير الورع على أقوال، ومحصلها: أن الورع يكون في المشتبهات

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٩٢).
(٢) انظر: «فتح الباري» (١٠/ ٤٥٧)، «تاج العروس» (٣٨/ ٢٥١).
(٣) رواه مسلم (٢٦٢٦).
(٤) انظر: «اللسان» (٨/ ٧٧)، «المعجم الوسيط» (ص٥٢).

التي قد يكون فيها حرام أو مكروه، فيتورع عما فيه شبهة خشية الوقوع في المحذور، ويكتفي بما اتضح له وبان وجهه؛ حرصًا على سلامة دينه. قال عمر بن الخطاب: «كنا ندع تسعة أعشار الحلال؛ مخافة أن نقع في الحرام»[(١)]. وقال الحسن: «ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيرًا من الحلال؛ مخافة الحرام»[(٢)]. وقال سفيان الثوري: «ما رأيت أسهل من الورع، ما حاك في نفسك فاتركه»[(٣)].

٦ـ الوقار

والوقار: السكينة والرزانة والوداعة، وقد ذكر العلماء أن الوقار يكون في الهيئة كغض البصر، وخفض الصوت، وعدم الالتفات. والسكينة: التأني في الحركات واجتناب العبث بيد أو رجل.

٧ـ التواضع

قوله: **(والتواضع)** هو خفض الجناح وإلانة الجانب من غير خسة ولا مذلة، وهو ضد الكبر، والتواضع سبب الرفعة في الدنيا، بأن يرفع الله المتواضع ويجعل له منزلة عالية عند الناس، ويرفعه في الآخرة، فيثيبه على تواضعه بالجنة. قال النبي ﷺ: «**ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»[(٤)]. قال ابن حبان: «الواجب على العاقل لزوم التواضع ومجانبة التكبر، ولو لم يكن في التواضع خصلة تحمله إلا أن المرء كلما كثر تواضعه ازداد بذلك رفعة، لكان الواجب عليه ألا يتزيَّا بغيره»[(٥)] فما أحوج المدرس إلى التواضع، يكسب بذلك محبة الطلاب، ويورثه الألفة والإقبال عليه في قاعة الدراسة وخارجها، ويكون قدوة لطلابه في هذا الخلق العظيم.

كلام نفيس للماوردي في التواضع

يقول أبو الحسن الماوردي: «فأما ما يجب أن يكون عليه العلماء

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٨/ ١٥٢).
(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص٣٠١).
(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٢)، «منحة العلام» (١٠/ ١٣٨).
(٤) رواه مسلم (٢٥٨٨).
(٥) «روضة العقلاء» (ص٥٩)، وقوله: (تحمله) هكذا في المطبوع بالحاء المهملة، ولعلها: «تجمله» بالجيم.

من الأخلاق التي هي بهم أليق، ولهم ألزم: فالتواضع، ومجانبة العُجْبِ؛ لأن التواضعَ عَطُوفٌ، والعُجْبَ مُنَفِّر، وهو بكل أحد قبيح، وبالعلماء أقبح؛ لأن الناس بهم يقتدون، وكثيرًا ما يداخلهم الإعجاب، لتوحدهم بفضيلة العلم، ولو أنهم نظروا حق النظر، وعلموا بموجب العلم، لكان التواضع بهم أولى، ومجانبة العجب بهم أحرى؛ لأن العجب نقص ينافي الفضل... فلا يفي ما أدركوه من فضيلة العلم بما لحقهم من نقص العجب... وكفى بالمرء علمًا إذا عَبَدَ الله عَزَّ وَجَلَّ، وكفى بالمرء جهلًا إذا أُعجب برأيه... وعلة إعجابهم انصراف نظرهم إلى كثرة مَن دونهم من الجهال، وانصراف نظرهم عمن فوقهم من العلماء، فإنه ليس متناهٍ في العلم إلا وسيجد من هو أعلم منه، إذ العلم أكثر من أن يحيط به بشر، قال الله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: ٧٦]،... فينبغي لمن علم أن ينظر إلى نفسه بتقصير ما قصّر فيه؛ ليسلم من عُجْبِ ما أدرك منه، وقد قيل في منثور الحكم: «إذا علمتَ فلا تفكر في كثرة من دونك من الجهال، ولكن انظر إلى من فوقك من العلماء»... وقلما تجد بالعلم معجبًا، وبما أدركه منه مفتخرًا، إلا من كان فيه مقلًّا ومقصرًا؛ لأنه قد يجهل قدره، ويحسب أنه نال بالدخول فيه أكثره، فأما من كان فيه متوجهًا، ومنه مستكثرًا، فهو يعلم من بُعْدِ غايته، والعجز عن إدراك نهايته، ما يصده من العجب به. وقد قال الشعبي: العلم ثلاثة أشبار، فمن نال منه شبرًا شمخ بأنفه، وظن أنه ناله، ومن نال الشبر الثاني صغرت إليه نفسه، وعلم أنه لم ينله، وأما الشبر الثالث فهيهات، لا يناله أحد أبدًا»[١]؛ لأن من دخل في الشبر الثالث علم أنه ما يعلم[٢].

---

(١) «أدب الدنيا والدين» (٥٧ ـ ٥٩) بتصرف.

(٢) «حلية طالب العلم» (ص٥٧).

٧ ـ العناية بالبدن والمظهر

قوله: (والتنظُّف في البدن واللِّبسة) هذه إشارة مهمة ولفتة جميلة؛ لأن عناية المدرس ببدنه ومظهره مطلب عظيم، دلت عليه عمومات الشريعة، وجاء التنبيه عليه في كتب آداب العالم والمتعلم مثل: «الجامع» للخطيب البغدادي في فصول متوالية[١].

فينبغي للمدرس ـ سواء في دروس المسجد أو المدارس النظامية ـ أن يُعنى بمظهره ولباسه ورائحة بدنه، فذلك أدعى للقبول والاحترام من جهة، وليكون قدوة لطلابه في هذه الصفة من جهة أخرى. قال الميموني: «ما أعلم أني رأيت أحدًا أنظف بدنًا، ولا أشد تعاهدًا لنفسه في شاربه وشعر رأسه وشعر بدنه، ولا أنقى ثوبًا بشدة بياض من أحمد بن حنبل»[٢].

وعلى المدرس في باب الزينة أن ينتبه **لأمرين:**

على المدرس في باب الزينة أن ينتبه لأمرين

الأول: الالتزام بالضوابط الشرعية والآداب المرعية، فيحذر إسبال اللباس، أو حلق اللحية، أو غير ذلك مما يخل بمظهر المدرس ويبعده عن كونه قدوة حسنة لطلابه؛ لأن عليه ـ بسبب علمه ـ ما ليس على غيره.

الثاني: البعد عن الاسترسال في التنعم والرفاهية والمبالغة في التأنق والتجمل، وإنفاق الجهد والوقت في مثل ذلك[٣].

الأدب الثالث: الحذر من مساوئ الإخلاص

قوله: (ومنها: الحذر من الحسد، والرياء، والإعجاب، وتزكية النفس، وازدراء الناس، وإن كانوا دونه بدرجات) هذا الأدب الثالث من أدب المدرس في نفسه، وهو الحذر من مساوئ الأخلاق، **ومنها:**

١ ـ الحسد. رأي ابن تيمية في تعريفه

١ ـ الحسد: وهو تمني زوال النعمة عن المحسود، سواء أحصلت له أم لم تحصل، وسواء أكانت دينية أو دنيوية. وقال شيخ

---

(١) انظر: «الجامع» (١/ ٣٧٢).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢٠٨).
(٣) انظر: «حلية طالب العلم» (ص١٤).

الإسلام ابن تيمية: «قال طائفة من الناس إن الحسد تمني زوال النعمة عن المحسود... والتحقيق: أن الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود، وهو نوعان:

أحدهما: كراهة للنعمة عليه مطلقًا، فهذا هو الحسد المذموم، وإذا أبغض ذلك فإنه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه، فيكون ذلك مرضًا في قلبه، ويلتذُّ بزوال النعمة عنه، وإن لم يحصل له نفع بزوالها، لكن نَفَعَهُ زوال الألم الذي كان في نفسه.

النوع الثاني: أن يكره فضل ذلك الشخص عليه، فيحب أن يكون مثله أو أفضل منه، فهذا حسد، وهو الذي سموه الغبطة، وقد سماه النبي ﷺ حسدًا في الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها، ورجل أتاه الله مالًا وسلطه على هلكته في الحق»[(١)].

فإن قيل: إذًا لِمَ سُمي حسدًا وإنما أحب أن ينعم الله عليه؟ قيل: مبدأ هذا الحب هو نظره إلى إنعامه على الغير وكراهته أن يتفضل عليه، ولولا وجود ذلك الغير لم يحب ذلك، فلما كان مبدأ ذلك كراهته أن يتفضل عليه الغير كان حسدًا، لأنه كراهة تتبعها محبة، وأما من أحب أن ينعم الله عليه مع عدم التفاته إلى أحوال الناس فهذا ليس عنده الحسد شيء.

ولهذا يبتلى غالب الناس بهذا القسم الثاني، وقد تسمى المنافسة، فيتنافس الاثنان في الأمر المحبوب المطلوب، كلاهما يطلب أن يأخذه؛ وذلك لكراهية أحدهما أن يتفضل عليه الآخر.

---

(١) رواه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٦)، ورواه البخاري (٥٠٢٥)، ومسلم (٨١٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

والحسد في الأصل إنما يقع لما يحصل للغير من السؤدد والرياسة، وإلا فالعامل لا يحسد في العادة، ولو كان تنعمه في الأكل والشرب أكثر من غيره، بخلاف هذين النوعين فإنهما يحسدان كثيرًا، ولهذا يوجد بين أهل العلم الذين لهم أتباع ما لا يوجد فيمن ليس له كذلك، وكذلك فيمن له أتباع بسبب إنفاق ماله، فهذا ينفع الناس بقوت القلوب، وهذا ينفعهم بقوت الأبدان، والناس كلهم محتاجون إلى ما يصلحهم من هذا وهذا[١].

وقال ابن رجب: «الحسد مركوز في طباع البشر، وهو أن الإنسان يكره أن يفوقه أحد من جنسه في شيء من الفضائل»[٢].

من أدوية الحسد

ومن أدوية الحسد: الفكر بأنه اعتراض على الله تعالى في حكمته المقتضية تخصيص المحسود بالنعمة، مع ما فيه من الغم وتعب القلب وتعذيبه بما لا ضرر فيه على المحسود[٣].

٢ ـ الرياء

٢ ـ الرياء: وهو ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله فيه، وحَدُّهُ: فعل الخير لإراءة الغير، فهو فعل لا تدخل فيه النية الخالصة ولا يحيط به الإخلاص[٤]. والرياء قد يكون بالفعل، كمراءاة المصلي بطول قيامه وحسن ركوعه وسجوده، وقد يكون بالقول كأن يتكلم في مجلسٍ مظهرًا للناس أنه عالم ومطلع، ليقال عنه: إنه عالم، وليس الأمر كذلك[٥].

من أدوية الرياء

ومن أدوية الرياء: مطالعة عيوبه وتقصيره، والإكثار من العبادات

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١١١) بتصرف.
(٢) «جامع العلوم والحكم» شرح الحديث (٣٥).
(٣) انظر: «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٥٥).
(٤) «كشاف اصطلاحات الفنون» (٢/ ٦٠٧).
(٥) انظر: «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٩٧)، ومن أهل العلم من يجعل الرياء في الفعل، والسُّمعة في القول. انظر: «فتح الباري» (١١/ ٣٣٦).

غير المشاهدة وإخفاؤها، كقيام الليل، وصدقة السر، والنظر في عاقبة الرياء في الدنيا والآخرة، واليقين بأن الخلق كلهم لا يقدرون على نفعه بما لم يقضه الله له، ولا على ضره بما لم يقدره الله تعالى عليه، فَلِمَ يُحبط عمله، ويضر دينه، ويَشغل نفسه بمراعاة من لا يملك له في الحقيقة نفعًا ولا ضرًّا؟! مع أن الله تعالى يطلعهم على نيته وقبح سريرته، وفي حديث جندب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من سَمَّعَ سَمَّعَ الله به، ومن يُرائي يُرائي الله به**»[(١)].

٣ ـ الإعجاب

٣ ـ الإعجاب: وهو مصدر أُعجب بنفسه وبرأيه إعجابًا فهو مُعْجَبٌ، ومعناه: الزُّهُوُّ والتكبر. وحقيقته: شدة السرور بالشيء حتى لا يعادله شيء عند صاحبه[(٢)]. قال بشر بن الحارث الحافي في العجب: «أن تستكثر عملك وتستقل عمل غيرك»[(٣)]. وقال أبو وهب المروزي: سألت ابن المبارك عن الكبر؟ فقال: «أن تزدري الناس»، وسألته عن العُجب؟ فقال: «أن ترى أن عندك شيئًا ليس عند غيرك»[(٤)]. وقال القرطبي: «إعجاب المرء بنفسه: هو ملاحظته لها بعين الكمال والاستحسان، مع نسيان مِنَّةِ الله تعالى، فإن رفعها على الغير واحتقره، فهو الكبر المذموم»[(٥)].

من أدوية الإعجاب

ومن أدوية الإعجاب: تَذَكُّرُ أن علمه وفهمه وجودة ذهنه وفصاحته وغير ذلك من النعم فَضْلٌ من الله عليه وأمانة عنده ليرعاها حق رعايتها، وأن معطيه إياها قادر على سلبها منه في طرفة عين، وما ذلك على الله بعزيز، ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأعراف: ٩٩][(٦)].

٤ ـ تزكية النفس

٤ ـ تزكية النفس: وأصل التزكية التطهير. وتزكية النفس: هو

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٧)، وانظر: «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣١٠)، «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٥٦).
(٢) «الفروق» للعسكري (ص٢٤٣).
(٣) «حلية الأولياء» (٨/ ٣٤٨).
(٤) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٧٨).
(٥) «المفهم» (٥/ ٤٠٦).
(٦) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٥٦).

إخبار الناس بطهارتها على وجه التمدح، وهذا هو المذموم[١]، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ [النجم: ٣٢].

ونهيُ الإنسان عن تزكية نفسه فيه تأديب، لقبح مدح الإنسان نفسه عقلًا وشرعًا، ولهذا قيل لحكيم: ما الذي لا يحسن وإن كان حقًّا؟ قال: مدح الرجل نفسه[٢]. والغالب أن هذا النوع من ذكر محاسن النفس إنما يُذكر للافتخار، وإظهار الارتفاع، والتميز على الأقران وشبه ذلك[٣]. قال الإمام مالك: «إن الرجل إذا ذهب يمدح نفسه ذهب بهاؤه»[٤].

قال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إياك والامتداح؛ فإن كل من يسمعك لا يصدقك وإن كنت صادقًا؛ بل يجعل ما سَمِعَ منك من ذلك أول معايبك»[٥].

وأما تزكية النفس بتخليصها وتطهيرها من شوائب الشرك والمعاصي والمخالفات حتى تبقى طاهرة نقية فهذا مطلوب، قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩].

٥ ـ ازدراء الناس

٥ ـ ازدراء الناس: أي: احتقارهم والاستهزاء بهم. والمدرس بحكم مهنته وتربيته يجب أن يكون أبعد الناس عن هذه الخصلة الذميمة، فإن احتقار الطالب والسخرية منه أمام زملائه خلق ذميم، وتصرف قبيح، يوغر صدر الطالب على أستاذه، ويحرمه الانتفاع منه، وسيشاركُه مشاعرَ السَّخَطِ بقيةُ زملائه. وهذا أمر محسوس.

من أدوية احتقار الناس

ومن أدوية احتقار الناس: تدبر قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٌ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرًا مِّنۡهُمۡ﴾ [الحجرات: ١١]، وقوله

(١) انظر: «تفسير ابن سعدي» (ص٨٢١).
(٢) «المفردات في غريب القران» (ص٢١٤).
(٣) انظر: «الأذكار» للنووي (ص٤٤٥).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ١٠٩)، وهو في «ترتيب المدارك» (٢/ ٦٧) بنحوه.
(٥) «الأخلاق والسير» (ص٧٧).

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحُجُرات: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ [النجم: ٣٢].

وربما كان المُحْتَقَرُ أطهر عند الله قلبًا، وأزكى عملًا، وأخلص نيةً[(١)].

قال ابن جماعة: «فالحذرَ الحذرَ من هذه الصفات الخبيثة، والأخلاق الرذيلة، فإنها باب كل شر؛ بل هي الشر كلّه»[(٢)]. وكذلك يحذر من الأخلاق السافلة من الفحش والسب والخِفّة المذمومة في المنطق والهيئة وغير ذلك. وهذه الأخلاق الذميمة قد يبتلى بها من ينتسب إلى العلم، أو يكون ممن يحب الشهرة.

من علامات العلم النافع

قالوا: من علامات العلم النافع:

- كراهية التزكية والمدح.
- كراهية التكبر على الخلق.
- ظهور التواضع وزيادته كلما زاد العلم.
- الهرب من حب الترؤس والشهرة وحب التصدر في المجالس.
- هجر دعوى العلم بأن يقول: أنا العالم[(٣)].

قصيدة القاضي أبي الحسن الجرجاني في الاعتزاز بالعلم وعلوِّ الهمة

ومن المناسب هنا إيراد قصيدة[(٤)] القاضي أبي الحسن علي بن

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٥٦).
(٢) المصدر السابق (ص٥٠).
(٣) «حلية طالب العلم» لبكر أبو زيد (ص٥١).
(٤) هذه القصيدة تناقلتها كتب الأدب وكتب الأخلاق والتعليم، وقد حصل اختلاف في عدد أبياتها، وفي ترتيبها، وشيء من ألفاظها، وأقدم من ذكرها ـ حسب اطلاعي ـ أبو منصور الثعالبي (ت٤٢٩) فقد ذكر في بعض كتبه بعض أبياتها، ومن ذلك: «يتيمة الدهر» (٤/ ٢٥) ثم ذكرها أبو الحسن الماوردي (ت٤٥٠) في كتابه «أدب الدنيا والدين» (ص٦٨) فقد ذكر عشرة أبيات بدون إسناد، ثم ذكر الخطيب البغدادي في «الجامع» (١/ ٣٧١) بإسناده ثمانية أبيات، وجاءت في «طبقات الشافعية الكبرى» (٣/ ٤٦٠ ـ ٤٦١)، وفي «معيد النعم» =

عبد العزيز الجرجاني الفقيه الأديب (ت٣٩٢هـ) التي جمع فيها ما ينبغي أن يكون عليه طالب العلم، ليسموَ به علمه إلى أعلى المقامات، ويَنْبُلَ قَدْرُهُ، وينتفعَ الناسُ به. فهو يقول:

يَقُولُونَ لِيْ فِيْكَ انْقِبَاضٌ وإنما ... رَأْوا رَجُلًا عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا
أَرَى النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمُ هَانَ عِنْدَهُمْ ... وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا
وَمَا كُلُّ بَرْقٍ لَاحَ لِيْ يَسْتَفِزُّنِي ... وَلَا كُلُّ مَنْ لَاقيتُ أَرْضَاهُ مُنْعِمَا
وَإِنِّي إِذَا مَا فَاتَنِي الأَمْرُ لَمْ أَبِتْ ... أُقَلِّبُ كَفِّي إِثْرَه مُتَنَدِّمَا
وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ العِلْمِ إِنْ كَانَ كُلَّمَا ... بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِيَ سُلَّمَا
إِذَا قِيلَ هَذَا مَنْهَلٌ قُلْتُ: قَدْ أَرَى ... وَلَكِنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا
وَلَمْ أَبْتَذِلْ في خِدْمَةِ العِلْمِ مُهْجَتِي ... لِأَخْدِمَ مَنْ لَاقَيْتُ لَكِنْ لِأُخْدَمَا
أَأَشْقَى بِهِ غَرْسًا وأَجْنِيْهِ ذِلَّةً ... إِذًا فَاتِّبَاعُ الجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا
وَلَو أَنَّ أهلَ العِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ... وَلَو عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظِّمَا[1]
وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانَ[2] ودَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بِالأَطْمَاعِ حَتَّى تَجَهَّمَا

الأدب الرابع: البعد عن مواطن الرِّيَب

قوله: (ومنها: أنه إذا ترخّص في أمر جائز، وخيف أن يظن خلافه: أن يخبر أصحابه ـ ومن يراه ـ حقيقة ذلك الفعل؛ لينتفعوا، ولئلا يأثموا بظنهم السَّيِّئ) هذا الأدب الرابع من أدب المدرس في نفسه، وهو أدب عظيم، له أثر كبير على مكانته في المجتمع،

= (ص٦٩ ـ ٧٠) وكلاهما لتاج الدين عبد الوهاب السبكي (ت٧٧١) وعدد أبياتها عشرة، لكن مع اختلاف في بعض الأبيات عما ذكر الماوردي والخطيب، والمعول على ما ذكره السبكي؛ لأن سياقه أتمّ وقد رواها بالإسناد، وذكر عبد الوهاب الزنجاني (ت٦٥٥) في كتابه «المضنون به على غير أهله» مع «شرحه» لابن عبد الكافي هذه القصيدة وأوصلها إلى عشرين بيتاً، وجاء في تعليقه بحاشية الشرح المذكور أنها تبلغ أربعة وأربعين بيتاً.

(١) هكذا الرواية بضم العين المهملة؛ بمعنى: لعظمه الناس. وقد ذكر السبكي في «معيد النعم» (ص٧٠) أن الأحسن فتح العين (لعَظَّما) لأن العلم إذا عُظِّمَ يُعَظِّمُ، وهو في نفسه عظيم. قال: ولكن الرواية بالضم.

(٢) يرى السبكي أن الأحسن: (ولكن أهانوه فهانوا) قال: ولكن الرواية: (فهان).

والاستفادة من علمه وخلقه، ألا وهو البعد عن مواطن الرِّيَبِ ومواقع الشُّبه، ومن ذلك أن العالم إذا فعل شيئًا جائزًا في نفس الأمر، ولكن ظاهره يستنكر، أو يتضمن نقص مروءة، أن عليه أن يخبر أصحابه ومن رآه يفعل ذلك بحقيقة الأمر ويبين عذره ومقصوده. وفي هذا الإخبار **ثلاث فوائد:**

الأولى: لأجل أن ينتفع ذلك الجاهل بما فعله هذا العالم.

الثانية: لئلا يأثم من يراه بوقوعه في الظن السيئ.

الثالثة: لئلا ينفر عنه من يراه، ولا يستفيد من علمه بسبب ما رآه.

ويستدل على هذا بقوله ﷺ: «**على رسلكما؛ إنها صفية**»(١)، فهذا فيه دليل على وجوب التحفظ عما يوقع في مكايد الشيطان؛ لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، وأنه ينبغي للإنسان أن يبتعد عن مواضع التهم؛ لئلا يُظن به شيء وهو بريء منه، ـ وهذا كما يقول ابن دقيق العيد ـ متأكد في حق العلماء ومن يُقتدى بهم، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلًا يوجب ظن السوء بهم، وإن كان لهم فيه مَخْلَصٌ؛ لأن ذلك سبب لعدم الثقة بهم، وإبطال الانتفاع بعلمهم(٢).

وفيه ـ أيضًا ـ مشروعية إخبار المرء بما يدفع سوء الظن به، لو عرض له فعل شيء مصادفة.

ومن الأدلة ـ أيضًا ـ أن النبي ﷺ لما ترك قيام رمضان بالصحابة رضي الله عنهم في الليلة الرابعة، تكلّم بعد صلاة الفجر بقوله: «**أما بعد، فإنه لم يَخْفَ علي مكانكم، ولكني خشيت أن يفرض عليكم...**»(٣) فهذا فيه أن الكبير إذا فعل شيئًا خلاف ما اعتاده أتباعه أنه يبين لهم عذره وحكمه والحكمة فيه؛ تطييبًا لقلوبهم، وإصلاحًا لذات البين؛ لئلا يظنوا خلاف هذا.

---

(١) رواه البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٥).
(٢) انظر: «إحكام الأحكام» (٣/ ٤٥٢ ـ ٤٥٣).
(٣) رواه البخاري (٢٠١٢)، ومسلم (٧٦١) (١٧٨).

وعن موسى بن أَعْيَن قال: قال: الأوزاعي: «كنا نضحك ونمزح، فلما صرنا يقتدى بنا، خشيت ألا يسعنا التَّبَسُّم»[(١)].

وقال ابن الجوزي: «قد رُوِّينا عن إبراهيم بن أدهم، أن أصحابه كانوا يومًا يتمازحون، فدق رجل الباب، فأمرهم بالسكوت والسكون. فقالوا له: تعلمنا الرياء؟! فقال: إني أكره أن يعصى الله فيكم».

قال ابن الجوزي: «وإنما خاف قول الجهلة: انظروا إلى هؤلاء الزهاد كيف يفعلون؟! وذلك أن العوام لا يحتملون مثل هذا للمتعبدين»[(٢)]. والله أعلم.



(١) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٣٢)، ونحوه في «تلبيس إبليس» (ص١٧٩).
(٢) «تلبيس إبليس» (ص١٧٩).

الدرس الثالث

القسم الثاني: أدبه في درسه

❊ وذلك ألا يزال مجتهدًا في الاشتغال بالعلم، قراءةً ومطالعةً، وتعليمًا ومُباحَثَةً، ومذاكرةً وتصنيفًا.

❊ وألا يستنكف من التَّعلُّم ممن هو دونه في سنٍّ أو نسبٍ أو شُهرةٍ أو دينٍ أو في علم آخر؛ بل يحرصُ على الفائدة ممن كانت عنده وإن كان دونه في جميع هذا.

❊ وألا يستحي من السؤال عما لم يعلم؛ روي عن أمير المؤمنين عمر أنَّه قال: «مَنْ رَقَّ وجْهُهُ رَقَّ عِلْمُهُ».

❊ وروى البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «نِعْمَ النِّساءُ نِسَاءُ الأَنصارِ، لم يَـمْنَعْهُنَّ الحياءُ أن يتفقَّهْنَ في الدِّين».

❊ وألا يمنعه ارتفاع منصبه وشهرته مِنْ استفادة ما لا يعرفه، فقد كان كثير من السَّلف يستفيد من تلامذته ما ليس عنده.

❊ قال الإمام النووي: قد ثبت في «الصحيح» رواية جماعة من الصحابة عن التابعين، وروى جماعات من التابعين عن تابعي التابعين، وهذا عمرو بن شعيب ليس تابعيًّا، وروى عنه أكثر من سبعين من التابعين.

❊ وثبت في «الصحيحين» أن رسول صلى الله عليه وسلم قرأ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البيِّنة: ١] على أُبيّ بن كعب رضي الله عنه؛ وقال: «أَمَرني اللهُ أَنْ أَقْرَأَ عليك».

❋ **ويسمَّى هذا النوع: رواية الأكابر عن الأصاغر.**

❋ **وأن تكون ملازمتهُ الاشتغال بالعلم هي مطلوبَه، ورأسَ ماله؛ فلا يشتغل بغيره، فإن اضْطُرَّ إلى غيره في وقتٍ فَعَلَ ذلك الغير بعد تحصيل وظيفته من العلم.**

الشرح

القسم الثاني: أدبه في درسه وهو أنواع:

قوله: **(القسم الثاني: أدبه في درسه)**؛ أي: القسم الثاني من آداب المدرس: أدبه في تحضير درسه وإعداده، وهذا ليس مختصًّا بدروس المساجد ونحوها؛ بل حتى في الدراسات المنهجية في المدارس والجامعات وغيرهما.

١ ـ الاجتهاد في الاشتغال بالعلم

قوله: **(وذلك ألا يزال مجتهدًا في الاشتغال بالعلم)** وذلك ليفيد ويستفيد، والذي ينبغي أن يوصى به في بداية هذا الموضوع: أن يجتهد المدرس في تحضير درسه لطلابه من مراجع كثيرة؛ ليستفيد ثلاث فوائد عظيمة، وكلها محسوسة، والواقع يصدقها:

فوائد الاجتهاد في تحضير الدرس

١ ـ نفع نفسه بما يقف عليه أثناء التحضير من الفوائد التي تُسهم ـ مع مرور الزمن ـ في تنمية المعلومات؛ إذ ليس المقصود من بذل الجهد في التحضير إعطاءه الطلاب؛ لأن الطلاب قدرتهم محدودة، ومنهجهم وقته معيَّن، وإنما المراد أن يستفيد المدرس نفسه.

٢ ـ الاستعداد لأسئلة طلابه، لا سيما الأسئلة المفاجئة التي لا تخطر على البال.

٣ ـ كسب ثقة طلابه؛ لأن الطلاب ـ حتى الضعاف منهم ـ يميزون بين المدرس الجاد وغيره.

ومن المفاجآت بالأسئلة: أني كنت في درس القرآن في سورة الأحزاب عند الصف الثالث الثانوي ـ أيام تدريسي في المعهد العلمي ـ فدخل عليَّ الموجه التربوي ـ وقت زيارته للمعهد ـ فسأل طالب من

الجالسين أمامي عن إعراب ﴿كُلُّهُنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ وكأن الطالب أشكل عليه أنها توكيد للمنصوب قبلها، فكيف جاءت مرفوعة؟! فيسر الله تعالى الجواب، وقلت: إنها توكيد لنون الإناث بالواقعة فاعلًا في قوله: ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾ وتوكيد المرفوع مرفوع، وهذا المثال يفيد أنه ينبغي لمدرس القرآن ـ ولا سيما في الثانوي أو الجامعة ـ أن يمُرَّ على معاني الآيات وإعراب ما قد يشكل؛ ليستفيد ويفيد.

إن المدرّس الذي لا يجتهد في التحضير، ولا يصرف وقته في تحضير درسه لا يستفاد منه، بل غاية ما عنده أن يردد ما في الكتاب الذي بأيدي الطلاب، دون أن يكون له أثر في توضيح أو تكميل أو اختصار أو نحو ذلك. قال سعيد بن جبير: «لا يزال الرجل عالمًا ما تعلّم، فإذا ترك التعلم، وظن أنه قد استغنى واكتفى بما عنده فهو أجهل ما يكون»(١). وقال أبو هلال العسكري: «من عرف العلم وفضله، لم يقضِ نَهْمَتَهُ منه، ولم يشبع من جمعه طول عمره»(٢).

فهذا يفيد أن المعلم مهما كان عنده من العلم من دروس سابقة، فإنه يبحث ويراجع في كل درس يقوم به؛ لأنه سيتجدد له من الفوائد ما لم يكن معلومًا له من قبل، وهذا شيء محسوس ومجرب.

قوله: **(قراءةً ومطالعةً، وتعليمًا ومباحثةً، ومذاكرة وتصنيفًا)**. هذه وسائل تحصيل العلم وتنمية المعلومات، وتحصيل العلم لا يتم إلا بأمرين:

الأول: حفظ الوقت، واستثماره فيما ينفع ويفيد.

الثاني: الانقطاع عن الشواغل، وعدم التوسع في الارتباط

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٥٣).
(٢) «الحث على طلب العلم» (ص٥٩)، والنَّهْمة: بالسكون: بلوغ الهمة في الشيء، ونَهِمَ نَهَمًا: زادت رغبته في العلم. «المصباح المنير» (ص٦٢٨ ـ ٦٢٩).

بالآخرين إلا لما لا بد منه. وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ زيادة كلام في ذلك.

٢ ـ ألا يستكبر من الاستفادة ممن هو دونه

قوله: (وألا يستنكف من التعلم ممن هو دونه في سن أو نسب أو شهرة أو دين أو في علم آخر) هذا أدب رفيع، وخلق جميل، وهو أن يكون العالم ـ مهما بلغ من العلم ـ حريصًا على الفائدة حيث كانت، والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها، وهذا إنما يتم إذا تعلم واستفاد ممن هو دونه في سن أو نسب أو شهرة أو في علم آخر هو أقوى به منه. قال شعيب بن أبي حمزة ـ وكان من كبار الناس ـ: رافقت الزهري إلى مكة فكنت أدرس أنا وهو القرآن جميعًا[١].

وقال عبد العزيز بن أبي حازم: سمعت أبي يقول: «العلماء كانوا فيما مضى من الزمان إذا لقي العالم من هو فوقه في العلم كان ذلك يوم غنيمة، وإذا لقي من هو مثله ذاكره، وإذا لقي من هو دونه لم يَزْهُ عليه، حتى كان هذا الزمان، فصار الرجل يعيب من هو فوقه ابتغاء أن ينقطع منه حتى يرى الناس أنه ليس به حاجة إليه، ولا يذاكر من هو مثلُه، ويَزْهَى على من هو دونه، فهلك الناس»[٢].

وقال الخليل بن أحمد: «أيامي أربعة: يوم أخرج فألقى فيه من هو أعلم مني، فأتعلم منه فذاك يوم فائدتي وغنيمتي، ويوم أخرج فألقى فيه من أنا أعلم منه، فأعلِّمُه فذاك يوم أجري، ويوم أخرج فألقى فيه من هو مثلي فأذاكره فذاك يوم درسي، ويوم أخرج فيه فألقى من هو دوني وهو يرى أنه فوقي، فلا أكلمه وأجعله يوم راحتي»[٣].

وقال الشيخ عبد الرحمٰن السعدي: «رجوع المعلم إلى فهم

(١) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٢١).
(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٢٥٠).
(٣) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٥٣٥).

المتعلم حيث يكون أقرب إلى الصواب أدلّ شيء على فضيلته، وعلو مرتبته، وحسن خلقه، وإخلاصه لله تعالى، وإذا لم يصل إلى هذه الحال فليعوّد نفسه ذلك، وليتمرّن عليه، فإن المزاولات تعطي الملكات، والتمرينات ترقي صاحبها لدرج الكمالات»[(١)].

قوله: **(بل يحرص على الفائدة ممن كانت عنده وإن كان دونه في جميع هذا)**؛ لأن العلم يستدعي التواضع لمن تعلمه، والتكبر ينافيه، فالتواضع للعلم رفعة، والذل في طلبه عزّ. وتقدم قول أبي حازم: «لا يكون العالم عالمًا حتى يكون فيه ثلاث خصال: لا يحقر من دونه في العلم، ولا يحسد من فوقه، ولا يأخذ على علمه دنيا»[(٢)].

كان يقال: «عَلِّم علمك من يجهل، وتَعَلَّم ممن يعلم، فإنك إذا فعلتَ ذلك علمتَ ما جَهِلْتَ، وحفظت ما عَلِمْتَ»[(٣)].

٣ ـ عدم الحياء من السؤال

قوله: **(وألا يستحي من السؤال عما لم يعلم؛ روِي عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه قال: «من رقَّ وجهه رقَّ علمه»[(٤)])** وعن مجاهد: لا يتعلم العلم مستحٍ ولا مستكبر[(٥)]. وفيه حث على ترك الحياء والبعد عن العجْز والتكبر في طلب العلم؛ لأن كلًّا منهما يؤثر على الطلب، ويؤدي إلى قلة التحصيل، ويحرم الفائدة.

وقد جاءت الأدلة الكثيرة في مدح السؤال، إذا كان المراد منه التفقه في الدين، والاستفادة من العلماء، والازدياد من العلم، ومعرفة الحكم الشرعي لما يحصل للمكلف، وسيأتي مزيد لهذا ـ إن شاء الله

(١) «الفتاوى السعدية» (ص١٠١).
(٢) «تهذيب الكمال» (١١/ ٢٧٦)، «الآداب الشرعية» (٢/ ٤٥).
(٣) «عيون الأخبار» (٢/ ١٢٣).
(٤) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ١٣٣)، والبيهقي في «المدخل» (٤٠٨).
(٥) علّقه البخاري في «صحيحه» (١/ ٢٢٨)، «فتح الباري»، ووصله أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٨٧). بإسناد صحيح على شرط البخاري. قاله الحافظ. وانظر: «تغليق التعليق» (٢/ ٩٣).

تعالى ـ. قال ابن شهاب: إنما هذا العلم خزائن، وتفتحها المسألة[١].

وكان الأصمعي ينشد:

شِفَاءُ العَمَى طُولُ السُّؤَالِ وإِنَّمَا دَوامُ العَمَى طُولُ السُّكُوتُ عَلَى الجَهْلِ[٢]

حرص نساء الصحابة رضي الله عنهن على السؤال

قوله: **(وروى البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «نِعْمَ النساء نساء الأنصار، لم يمنعهنَّ الحياءُ أن يتفقّهن في الدين»[٣])** هذا فيه دليل على حرص الصحابة رضي الله عنهم رجالًا ونساء على العلم، والفقه في الدين، وسؤالِ المرأةِ المسلمة عن أحوالها الخاصة بها، ولنا فيهم أسوة حسنة.

وفيه دليلٌ ـ أيضًا ـ على أن الحياء لا يمنع المرأة المسلمة من السؤال عن أمر دينها؛ لأن الحياء في الأمور الدينية غير محمود، ولذا قالت أم سُليم رضي الله عنها: «يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق، هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت؟» الحديث[٤].

٤ ـ استفادة المعلم من الطلبة

قوله: **(وألا يمنعه ارتفاع منصبه وشهرته من استفادة ما لا يعرفه)**؛ أي: ممن هو دونه، بشرط أن يكون من أهل الفضل، ومن عُلِم صلاحه، وسُبِر علمه فظهرت فضيلته. هذا إذا أريد الأخذ عنه. وثم أمرٌ آخر وهو أن يكون مقصوده ما يحتاج إليه من العلم لا مجرد استكثار الشيوخ، والمفاخرة بعددهم وكثرتهم، فهذا مذموم.

قوله: **(فقد كان كثير من السلف يستفيد من تلامذته ما ليس عنده)** وذلك لأن الحكمة ضالة المؤمن، فحيثما وجدها فهو أحق بها، وكم من شخصٍ أقلَّ منك في العلم من حيث الجملة وعنده علم في مسألة أو

---

(١) «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٦٢).

(٢) انظر: «جامع بيان العلم» (١/ ٣٢٠)، والبيت لبشار بن برد في «ديوانه» (ص٤٠٣).

(٣) أخرجه البخاري معلقًا بصيغة الجزم (١/ ٢٢٨)، «فتح الباري»، ووصله مسلم في «صحيحه» برقم (٣٣٢)، (٦١).

(٤) رواه البخاري (٢٢٨)، ومسلم (٣١٣)، (٣٢).

مسائل ليس عندك منها علم، كمسألة فقهية أو نحوية أو بلاغية.

الرجوع عن الخطأ إذا تبين الصواب

ومن هذا الباب الرجوع عن الخطأ إذا تبين الصواب، فإن الرجوع عن الخطأ لازم على المتعلم، فعلى المعلم ـ أيضًا ـ إذا أخطأ أن يرجع إلى الحق، ولا يمنعه قولٌ قاله ثم رأى الصواب في خلافه من مراجعة الحق والرجوع إليه، فإن هذا علامة الإنصاف، والتواضع للحق، وهذا خلق رفيع يزيد طلابك ثقة بك، ومحبة واقتداء، فالواجب اتباع الصواب، سواء جاء على يد الصغير أو الكبير.

ومن نعمة الله على المعلم أن يجد من تلاميذه من ينبهه على خطئه، ويرشده إلى الصواب؛ ليزول استمراره على خطئه، فهذا يحتاج إلى شكر لله تعالى، ثم إلى شكر مَنْ أجرى الله الهدى على يديه، متعلمًا كان أو غيره[(١)].

وقد روى الخطيب في «الجامع»[(٢)] عن سفيان بن عيينة قال: «لا يكون الرجل من أهل الحديث حتى يأخذ عمن فوقه، وعمن هو دونه، وعمن هو مثله». وقال عبد الرحمٰن بن مهدي (ت١٩٨هـ): سمع سفيان الثوري (ت١٦١هـ) مني حديثًا فكتبه.

وقال الحميدي ـ وهو تلميذ الشافعي ـ: «صحبت الشافعي من مكة إلى مصر، فكنت أستفيد منه المسائل، وكان يستفيد مني الحديث»[(٣)].

وقال أحمد بن حنبل: «قال لنا الشافعي: أنتم أعلم بالحديث مني، فإذا صح عندكم الحديث، فقولوا لنا حتى آخذ به»[(٤)].

---

(١) انظر: «الفتاوى السعدية» (ص٦٢٧ ـ ٦٢٨).
(٢) (٢/٢١٨).
(٣) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٥٩).
(٤) رواه ابن أبي حاتم في «آداب الشافعي» (ص٩٤ ـ ٩٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/١٠٦) وغيرهما بألفاظ مختلفة. وانظر: «سير أعلام النبلاء» (١٠/٣٣)، «إعلام الموقعين» (٣/٥٢٩).

مثال رائع للرجوع عن الخطأ، والاعتراف بالفضل لأهله

والرجوع إلى الحق خلق رفيع، وصفة متبعة عند أهل العلم والفضل قديمًا وحديثًا، وإليك هذا المثال الرائع الذي حكاه القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في «تفسيره» فقال: «أخبرني محمد بن قاسم العثماني غير مرةٍ، قال: وصلت الفُسطاط[١] مرةً، فجئت مجلس الشيخ أبي الفضل الجوهري، وحضرت كلامه على الناس، فكان مما قال في أول مجلس جلست إليه: إن النبي ﷺ طَلَّقَ وظاهر وآلى! فلما خرج تبعته حتى بلغت معه إلى منزله في جماعة، فجلس معنا في الدِّهليز[٢]، وعرَّفهم أمري؛ فإنه رأى إشارة الغربة، ولم يعرف الشخص قبل ذلك في الواردين عليه، فلما انفضَّ عنه أكثرهم، قال لي: أراك غريبًا، هل لك من كلام؟ قلت: نعم، قال لجلسائه: أفرجوا له عن كلامه، فقاموا وبقيت وحدي معه، فقلت له: حضرت المجلس اليوم مُتبركًا بك[٣]، وسمعتك تقول: آلى رسول الله ﷺ؛ وصدقت، وطلَّقَ رسول الله ﷺ؛ وصدقت، وقلت: وظاهر رسول الله ﷺ؛ وهذا لم يكن! ولا يصح أن يكون؛ لأن الظهار منكر من القول وزورٌ؛ وذلك لا يجوز أن يقع من النبي ﷺ، فضمني إلى نفسه وقبَّلَ رأسي، وقال لي: أنا تائب من ذلك، جزاك الله عني من مُعلِّم خيرًا.

ثم انقلبت عنه، وبَكَّرْتُ إلى مجلسه في اليوم الثاني، فألفيته قد سبقني إلى الجامع، وجلس على المنبر، فلما دخلت من باب الجامع ورآني، نادى بأعلى صوته: مرحبًا بمعلمي؛ أَفْسِحوا لمعلمي، فتطاولت

(١) بضم الفاء وكسرها بيت من الشعر، وهو علم على مدينة مصر القديمة التي بناها عمرو بن العاص رضي الله عنه «معجم البلدان» (٤/ ٢٦١).

(٢) بالكسر، ما بين الباب والدار «القاموس» (٢/ ٣٢٤ ترتيبه).

(٣) لعل المراد بركة مجلس العلم وما فيه من الخير، وأما التبرك بالذوات والأشخاص فهو مختص بالنبي ﷺ؛ لما جعل الله فيه من البركة، ولا يقاس عليه غيره كائنًا من كان؛ لأن فتح هذا الباب يفضي إلى الغلو والشرك، نسأل الله السلامة. انظر: «الاعتصام» (٢/ ٢٠٠).

الأعناق إلي، وحدقت الأبصار نحوي، وتبادر الناس إلي يرفعونني على الأيدي، ويتدافعونني؛ حتى بلغت المنبر، وأنا لعظم الحياء لا أعرف في أي بقعة أنا من الأرض، والجامع غاصٌّ بأهله، وأَسَالَ الحياء بدني عرقًا، وأقبل الشيخ على الخلق، فقال لهم: أنا معلمكم، وهذا معلمي؛ لما كان بالأمس قلت لكم: آلى رسول الله ﷺ، وطلق، وظاهر؛ فما كان أحد منكم فَقِهَ عني؛ ولا رَدَّ عليَّ، فاتَّبعني إلى منزلي، وقال لي: كذا وكذا ـ وأعاد ما جرى بيني وبينه ـ «وأنا تائب عن قولي بالأمس، وراجع عنه إلى الحق؛ فمن سَمِعَه ممن حضر فلا يُعَوِّلْ عليه، ومن غاب فليبلغه من حضر؛ فجزاه الله خيرًا» وجعل يَحْفِلُ في الدعاء، والخلق يؤمِّنون.

قال ابن العربي معلقًا: «فانظروا ـ رحمكم الله ـ إلى هذا الدين المتين، والاعتراف بالعلم لأهله على رؤوس الملأ من رجل ظهرت رياستُهُ، واشْتَهَرَتْ نَفَاستُهُ، لغريب مجهول العين لا يعرف من؟ ولا من أين؟ فاقتدوا به ترشدوا»[(١)].

فوائد نفيسة من هذا المثال

فهذه القصة فيها فوائد نفيسة، ينبغي لكل من شرفه الله تعالى بوظيفة التعليم أن يأخذ بها:

١ ـ الاعتراف بالفضل لأهله، كما قاله ابن العربي.

٢ ـ أن الخطأ إذا كان علنًا؛ فإنه يصحح علنًا؛ ليستفيد السامع، وهذا يكون من قِبل المعلم، وهذا أمر يحتاج إلى شجاعة وتواضع وهضم للنفس، ولا كل أحدٍ يستطيع ذلك.

وأما المتعلم فإنه لا يرد الخطأ على شيخه علنًا أمام الملأ، وإنما ينتظر حتى ينفرد به، كما فعل محمد بن قاسم العثماني؛ فإن هذا أدعى إلى القبول والوصول إلى الصواب. قال أبو عبيدة: «لا تَرُدَّنَّ على أحد خطأ في حَفْلٍ، فإنه يستفيد ويتخذك عدوًّا»[(٢)].

(١) «أحكام القرآن» (١/ ١٨٢ ـ ١٨٣).
(٢) «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٢٨٨).

٣ ـ الرجوع إلى الحق وعدم التمادي في الباطل؛ لأن هذا علامة الإنصاف والتواضع للحق، والرغبة في الوصول إلى الصواب. وسيأتي مزيد لهذا ـ إن شاء الله ـ.

٤ ـ التواضع للآخرين وكسر خلق الإعجاب بالنفس.

٥ ـ تشجيع الطالب المثالي والإشادة به بين زملائه أو على الملأ.

مثال آخر

ومن الأمثلة الجميلة في الاعتراف في الفضل ما ذكره ابن الجوزي في ترجمة الوزير ابن هبيرة: «كان إذا استفاد شيئًا قال: أفادنيه فلان، حتى إنه عُرِضَ له يومًا حديثٌ وهو «**من فاته حزبه بالليل، فصلّاه قبل الزوال كان كأنه صلّاه بالليل**»[1] فقال: ما أدري ما معنى هذا؟ فقلت له: هذا ظاهر في اللغة والفقه، أما اللغة: فإن العرب تقول: «كنت الليلة» إلى وقت الزوال، وأما الفقه: فإن أبا حنيفة يصحح الصوم بنية قبل الزوال، فقد جعل ذلك الوقت في حكم الليل. فأعجبه هذا القول، وكان يقول بين الجمع الكثير: ما كنت أعرف ما معنى هذا الحديث حتى عرفنيه فلان. فكنت أستحيي من الجماعة»[2].

الاستدلال على استفادة المشايخ من تلامذتهم

قوله: (**قال الإمام النووي: قد ثبت في «الصحيح» رواية جماعة من الصحابة عن التابعين، وروى جماعات من التابعين عن تابعي التابعين، وهذا عمرو بن شعيب ليس تابعيًّا، وروى عنه أكثر من سبعين من التابعين**) أراد بذلك الاستدلال على استفادة السلف من تلامذتهم، وأخذ الفاضل عن المفضول، وهذا فيه دلالة بينة على التواضع في العلم، والحرص على تحصيله ممن هو عنده.

من أمثلة رواية الصحابي عن التابعي

ومن أمثلة رواية الصحابة رضي الله عنهم عن التابعين ما رواه البخاري من طريق صالح بن كيسان، عن ابن شهاب، قال: حدثني سهل بن سعد رضي الله عنه قال: رأيت مروان بن الحكم جالسًا في المسجد، فأقبلت

---

(١) رواه مسلم (٧٤٧).

(٢) «المنتظم» (١٨/ ١٦٨)، «الذيل على طبقات الحنابلة» (٢/ ١٢٤ ـ ١٢٥).

حتى جلست إلى جنبه فأخبرنا أن زيدَ بن ثابت ﷺ أخبره أن النبي ﷺ أملى عليه: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾ ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥] قال: فجاءه ابن أم مكتوم ﷺ وهو يُمِلُّها عليَّ، فقال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان رجلًا أعمى. فأنزل الله على رسوله ﷺ، وفخذه على فخذي فَثَقُلَتْ حتى هَمَّت تَرُضُّ فَخِذي، ثم سُرِّي عنه، فأنزل الله عليه: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾[(١)].

قال الترمذي عَقِبَه: «وفي هذا الحديث رواية رجل من أصحاب النبي ﷺ عن رجل من التابعين، رواه سهل بن سعد الأنصاري ﷺ، عن مروان بن الحكم، ومروان لم يسمع من النبي ﷺ وهو من التابعين.

من أمثلة رواية التابعين عن تابعي التابعين

ومن أمثلة رواية التابعين عن تابعي التابعين: أن جماعة من التابعين رووا عن عمرو بن شعيب، وهذا على رأي النووي ومن وافقه، وعمرو بن شعيب (ت١١٨هـ)، وعلى هذا فهو من التابعين لا من أتباع التابعين؛ بناءً على ما ذكر الحافظ من أن قرن التابعين ما بعد سنة مائة»[(٢)]. قال الحافظ الدارقطني: «سمعت أبا بكر النقاش يقول: عمرو بن شعيب ليس من التابعين، وقد روى عنه عشرون من التابعين» قال الدارقطني: «فتتبعت ذلك فوجدتهم أكثر من عشرين». قال المزي: «وكأن الدارقطني قد وافقه على أنه ليس من التابعين، وليس كذلك، فإنه قد سمع من زينب بنت أبي سلمة، ومن الرُّبيِّع بنت مُعَوِّذِ بن عفراء ﷺ، ولهما صحبة»[(٣)]. وعلى هذا فهو تابعي، كما تقدم؛ لأن التابعي من اجتمع بالصحابي. وعمرو بن شعيب من الطبقة الصغرى الذين أكثر رواياتهم عن التابعين، ولم يلتقوا إلا بالعدد القليل من الصحابة ﷺ.

(١) صحيح البخاري (٢٨٣٢)، ورواه الترمذي (٣٠٣٣)، والنسائي (٦/ ٩).
(٢) انظر: «فتح الباري» (٧/ ٦).
(٣) «تهذيب الكمال» (٢٢/ ٧٣)، «علوم الحديث» لابن الصلاح (ص٣٠٨)، «التقييد والإيضاح» (ص٣٣١ ـ ٣٣٢).

رواية الأكابر عن الأصاغر

قوله: (وقد ثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البيِّنة: ١] على أبيٍّ بن كعب، وقال: «أمرني الله أن أقرأ عليك»[(١)]) هذا أبلغ في الاستدلال مما قبله، فإن النبي ﷺ الذي أنزل عليه القرآن قرأ على أُبي بن كعب رضي الله عنه؛ امتثالًا لأمر الله تعالى. قال الحافظ: «يؤخذ من هذا الحديث مشروعية التواضع في أخذ الإنسان العلم من أهله وإن كان دونه»[(٢)].

قوله: (ويسمّى هذا النوع: رواية الأكابر عن الأصاغر) وهو أن يروي الكبير القدر أو السن ـ أو هما ـ عمن هو دونه في كل منهما أو فيهما. ومن ذلك ما ذكره رسول الله ﷺ في خطبته عن تميم الداري رضي الله عنه مما أخبر به عن رؤية الدجال في الجزيرة التي في البحر[(٣)]. قال النووي: «هذا معدود في مناقب تميم؛ لأن النبي ﷺ روى عنه هذه القصة، وفيه رواية الفاضل عن المفضول، ورواية المتبوع عن تابعه، وفيه قبول خبر الواحد»[(٤)].

وقد روى العبادلة ـ ابن عمر وابن عباس وابن الزبير ـ وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم عن كعب الأحبار[(٥)] رحمه الله، وروى الزهري، ويحيى بن سعيد الأنصاري عن مالك، وهما من شيوخه[(٦)].

أخذ العلم عن الأصاغر

وأَخْذُ العلم عن الأصاغر ليس على إطلاقه؛ لأن أخذ العلم عن صغار الأسنان الذين لم ترسخ قدمهم في العلم، ولم تَشِبْ لحاهم فيه مع وجود من هو أكبر منهم سنًا، وأرسخ قدمًا، ليس بمنهج علمي سديد؛ لأنه يضعف أساس المبتدئ، ويحرمه الاستفادة من خبرة العلماء الكبار، ومن غزارة علمهم، واكتساب أخلاقهم وسمتهم وهديهم التي

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٥٩)، ومسلم (٧٧٩) من حديث أنس.
(٢) «فتح الباري» (٧/ ١٢٧).
(٣) رواه مسلم (٢٩٤٢).
(٤) «شرح النووي» (١٨/ ٢٩٥).
(٥) انظر ترجمته في: «تذكرة الحفاظ» (١/ ٥٢)، «الأعلام» (٦/ ٨٥).
(٦) انظر: «علوم الحديث» (ص٣٠٨)، «الباعث الحثيث» (ص١٩٥).

قَوَّمَهَا العلم والزمن؛ فإن العالم كلما امتدَّ به الزمان وتقدم به العمر ازداد علمه، ونضجت تجاربه. لكن من برز من الشباب وعُلِمَ صلاحه وظهر فضله وعلمه فإنه يؤخذ عنه العلم، ولا سيما في علم لا يوجد عند الكبار من يقوم به على الوجه المطلوب[(١)].

وقد كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يُستفتى وهو صغير، وكذا معاذ بن جبل وعتَّاب بن أَسيد رضي الله عنهما، وقد ولاهما النبي ﷺ الولايات مع صغر سنهما، فعتاب رضي الله عنه استعمله النبي ﷺ على مكة حين انصرف عنها عام الفتح وسِنُّهُ عشرون سنة، ومعاذ رضي الله عنه بعثه النبي ﷺ إلى اليمن سنة عشر، وسِنُّهُ خمسٌ وعشرون سنة تقريبًا[(٢)].

٥ـ المواظبة على الاشتغال بالعلم

قوله: (وأن تكون ملازمته[(٣)] الاشتغال بالعلم هي مطلوبَه، ورأس ماله؛ فلا يشتغل بغيره) هذا أدب نفيس من آداب المدرس، وهو استمرار المدرس في تحصيل العلم وتنمية المعلومات، وهذا لا يتم إلا بالجد والمواظبة والملازمة. وقد قيل: «من طلب شيئًا وَجَدَّ وَجَدَ، ومن قرع الباب وَلَجَّ وَلَجَ»[(٤)]. فطلب العلم يحتاج إلى زمن طويل، وصبر ومواصلة. وذلك لأن ملازمة المدرس الاشتغال بالعلم هي غاية مطلوبه، ورأس ماله، فلا يشتغل بغيره، ولا يلتفت إلى سواه مما يتعلق بأمور الدنيا، وولاية المناصب، فإنها شاغلة مانعة، قال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول: «يحتاج طالب العلم إلى ثلاث خصال: أولها: طول العمر، والثانية: سعة اليد، والثالثة: الذكاء».

---

(١) انظر: «جامع بيان العلم» (١/ ٤٩٤)، «عوائق الطلب» (ص٢٩).
(٢) انظر: «تهذيب الكمال» (١٨/ ٣٨٢) (٢٨/ ١٠٥).
(٣) هكذا في المطبوع، وفي الأصل: ملازمة الاشتغال.
(٤) وَجَدَّ: أي: اجتهد وسعى سعيًا جميلًا. وَجَدَ: أي: وجد مطلوبه وصادفه. ومن قرع الباب: أي: الشيء المقصود. وَلَجَّ: أي: أقدم فيه. وَلَجَ: أي: دخل فيه ووصل مقصوده. انظر: «شرح تعليم المتعلم» (ص٢١).

قال الحافظ الخطيب البغدادي معلقًا عليه: «أما طول العمر، فإنما قَصَدَ به: دوام الملازمة للعلم، وأراد بسعة اليد: ألا يشتغل بالاحتراف، وطَلَبِ التكسب، فإذا استعمل القناعة أغنته عن كثير من ذلك... وإذا رزقه الله تعالى الذكاء فهو أمارة سعادته، وسرعة بلوغه إلى بُغيته...»[١].

ثم إن المدرس بحاجة إلى إدراك أن طريق الطلب شاق، والمسافة بعيدة، وهذا يعني بذل الجهد وممارسة كل نشاط يسهل إدراك الهدف، ويوصل إلى الغاية المطلوبة.

قال الإمام ابن المديني: قيل للشعبي: من أين لك هذا العلم كله؟! قال: «بنفي الاعتماد، والسير في البلاد، وصبر كصبر الجماد، وبكور كبكور الغراب»[٢]، وقال يحيى بن أبي كثير: «لا يستطاع العلم براحة الجسد»[٣]، وقال الزهري ليونس بن يزيد: «لا تكابر العلم، فإن العلم أودية، فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة، فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة، ولكنَّ الشيءَ بعد الشيءِ مع الأيام والليالي»[٤].

وقال إبراهيم الحربي: «أجمع عقلاء كل أمة أن النعيم لا يدرك بالنعيم، ومن آثر الراحة فاتته الراحة»[٥].

وقال ابن القيم: «المصالح والخيرات واللذات والكمالات كلها لا تنال إلا بحظٍّ من المشقة، ولا يُعبر إليها إلا على جسر من التعب»[٦].

---

(١) «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٨٧ ـ ١٨٨).
(٢) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٨١).
(٣) ذكره الإمام مسلم في «صحيحه» بعد الحديث (٦١٢) برقم (١٧٥).
(٤) «جامع بيان العلم» (١/ ٣٥٩).
(٥) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٩٩)، وانظر: «تاريخ بغداد» (٦/ ٣٠).
(٦) «مفتاح دار السعادة » (٢/ ٨٩٥).

وقال أبو هلال العسكري: «درجة العلم أشرف الدَّرَجِ، فمن أراد مداولتها بالدَّعَةِ، وطلبَ البلوغ إليها بالراحة كان مخدوعًا. وقال الجاحظ: «العلم عزيز الجانب، لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، وأنت إذا أعطيته كلك كنت من إعطائه إياك البعض على خطر». وقد صدق، فكم من راغب مجتهد في طلبه لا يحظى منه بطائل على طول تعبه ومواصلة دأبه ونصبه...»[(١)].

وقال الشيخ عبد الرحمٰن السعدي: «اعلم أن القناعة باليسير والاقتصاد في أمر المعيشة مطلوب من كل أحد، لا سيما المشتغلون بالعلم، فإنه كالمتعيِّن عليهم؛ لأن العلم وظيفة العمر كله أو معظمه، فمتى زاحمته الأشغال الدنيوية والضروريات حصل النقص بحسب ذلك، والاقتصاد والقناعة من أكبر العوامل لحصر الأشغال الدنيوية، وإقبال المتعلم على ما هو بصدده»[(٢)].

إذا احتاج الطالب إلى التكسب لتوفير المُؤْنَةِ

قوله: (فإن اضطر إلى غيره في وقتٍ فعل ذلك الغير بعد تحصيل وظيفته من العلم)

يقصد بذلك أن من عوامل تحصيل العلم: التفرغ للطلب، وعدم الاشتغال بمهنة تستهلك الوقت وتأخذ الجهد، وتمنع من الانصراف الكلي للطلب والتحصيل، كما تقدّم. قال ابن المبارك: «من شرط العالم: ألا تخطر محبة الدنيا على باله»[(٣)]، وهذا ما عبر عنه أبو هلال العسكري بالكفاية عند ذكر عوامل التعليم وأسباب التحصيل، فقال: «لا يتم العلم إلا بستة أشياء: ذهن ثاقب، وزمان طويل، وكفاية، وعمل كثير، ومعلم حاذق، وشهوة، وكلما نقص من هذه الستة شيء نقص

(١) «الحث على طلب العلم» (ص٤٢)، ومقولة الجاحظ جاءت في «تاريخ بغداد» (٦/ ٩٧) من رواية الجاحظ نفسه قال: سمعت النظام يقول: ... ثم ذكره.
(٢) «الفتاوى السعدية» (ص٦٣٢).
(٣) «حلية الأولياء» (٨/ ١٧٨).

بمقداره من العلم»[1]، فذكر منها الاكتفاء المادي لطالب العلم، بحيث يُكفى ما يتعلق بأمور حياته من مسكن ومأكل وملبس ومركب؛ «لأن التكسب وتعذر المعاش مقطعة، والرغبة إلى الرجال مذلة، والحاجة تميت النفس وتفسد الحس»[2].

أهمية كفاية الطالب أمر معيشته

قال عبد الرحيم بن سليمان الرازي: «كنا عند سفيان الثوري، فكان إذا أتاه الرجل يطلب العلم سأله: هل لك وجهُ معيشة؟ فإن أخبره أنه في كفاية أمره بطلب العلم، وإن لم يكن في كفاية أمره بطلب المعاش»[3].

ومن هنا جاء الحرص من بعض العلماء القادرين على كفاية الطلاب بتوفير الأمور المذكورة، وذلك بإجراء أرزاق عليهم، لمساعدتهم على التفرغ التام لطلب العلم، دون أن يَشْغَلَ الطالب فكره في البحث عن طلب الرزق، وكذلك من خلال أوقاف بعض الأغنياء على طلاب العلم من السكن وتوابعه، مما كان له أثر واضح في تفرغ الطلاب ومدى استفادتهم. قال يحيى ابن أبي كثير: «كتب عمر بن عبد العزيز إلى عُمَّاله: أن أَجْروا على طلبة العلم الرَّزْق وفرغوهم للطلب»[4].

وقوله: (فعل ذلك الغير بعد تحصيل وظيفته من العلم)؛ أي: إن كان المدرس مضطرًا إلى عمل يُدِرُّ عليه ما ينفقه على نفسه ومن يمون، أو احتاج إلى صرف شيء من وقته لأداء حق أهله أو استقبال زائر أو غير ذلك مما يُحتاج إليه، فله فعل ذلك بعد القيام بتحصيل وظيفته من

---

(١) «الحث على طلب العلم» (ص٤٧)، وانظر فيه شرح هذه الأمور الستة، وإنما ذكر الشهوة؛ لأن النفس إذا اشتهت الشيء ورغبت فيه كانت أسمح في طلبه، وأنشط لالتماسه، وسيأتي لها ذكر ـ إن شاء الله تعالى ـ في كلام الماوردي في آخر الدرس الخامس عشر.

(٢) المصدر السابق (ص٤٩).

(٣) «الجامع» (١/ ٩٨).

(٤) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٦٤٧).

العلم التي لا ينبغي له أن يؤخرها، من مراجعة ما يحتاج إلى مراجعة، أو حفظ ما يحتاج إلى حفظ، أو نسخ أو نحو ذلك. وعليه مع ذلك أن يكون مواظبًا على أداء درسه، حريصًا على تنظيم وقته، وأن يحذر تأجيل ما يضر تأجيله.

والوظيفة: ما يُقَدَّرُ من عملٍ أو رَزْق أو طعام وغير ذلك، والجمع وظائف، ووظفت عليه العمل توظيفًا: قدَّرته[(١)].

والمراد هنا: ما يُطلب من المدرس أو الدارس من مراجعة أو مطالعة أو نسخ أو غير ذلك مما يتعلق بمهنة التعليم.



(١) انظر: «المصباح المنير» (ص٦٦٤).

الدرس الرابع

أدبه في تصنيفه

❁ قال النووي:

❁ ينبغي أن يعتني بالتصنيف إذا تَأَهَّلَ له؛ فَبِهِ يطلع على حقائق العلم ودقائقه، ويثبت معه؛ لأنه يضطره إلى كثرة التفتيش والمُطالعة، والتحقيق والمراجعة، والاطلاع على مُخْتَلِف كلام الأئمة ومُتَّفِقِه، وواضِحه من مُشْكِلِه، وصحيحه من ضعيفه، وجزله من ركيكه، وما لا اعتراض عليه من غيره، وبه يتصف المحقق بصفة المجتهد.

❁ وليحذر كُلَّ الحذرِ أن يشرعَ في تصنيفٍ ما لم يَتَأهل له؛ فإن ذلك يضرهُ في دينه وعلمه وعرضه.

❁ وليحذر أيضًا: من إخراج تصنيفه من يده إلَّا بعد تهذيبه، وترداد نظره فيه وتكريره.

❁ وليحرص على إيضاح العبارة وإيجازها، فلا يُوضح إيضاحًا ينتهي إلى الركاكةِ، ولا يُوجز إيجازًا يُفضي إلى المَحْقِ والاستغلاق.

❁ وينبغي أن يكون اعتناؤه من التصنيف بِـما لم يُسبق إليه أكثر.

❁ والمراد بهذا ألا يكون هناك مصنَّف يغني عن مصنَّفِهِ في جميع أساليبه، فإن أغنى عن بعضها فليصنف من جنسه ما يزيد زيادات يُحتفل بها، مع ضم ما فاته من الأساليب.

❁ وليكن تصنيفه فيما يعم الانتفاع به، ويكثر الاحتياج إليه.

الشرح

القسم الثالث: أدب المدرس في التصنيف

هذا الأدب الثالث من آداب المدرس، وهو أدبه في التصنيف.

والتصنيف جادة سلكها العلماء قديمًا، ولم يكن العلم مدونًا ولا مؤلفًا كتبًا وأبوابًا في زمن المتقدمين من الصحابة ﭫ والتابعين، وإنما فعل ذلك من جاء بعدهم.

عناية العلماء بالتأليف

وقد كان للعلماء عناية فائقة في التأليف، وبذل العمر والجهد فيه حتى الممات، حتى إن منهم من لم يكمل كتابه، منهم النووي ـ كما تقدم ـ، وأبو شامة (ت٦٦٥هـ)، والعراقي (ت٨٠٦هـ).

الفرق بين التصنيف والتأليف

والفرق بين التأليف والتصنيف: أن التأليف أعم من التصنيف، وذلك أن التصنيف تأليف صنف من العلم، ولا يقال للكتاب إذا تضمّن نقض شيء من الكلام مصنَّف؛ لأنه جَمْعٌ للشيء وضدّه، والقول ونقيضه، والتأليف يجمع ذلك كلّه[١].

تقديم التصنيف على التدريس عند ابن الجوزي

قال ابن الجوزي يحث على التصنيف: «رأيت من الرأي القويم أن نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة؛ لأني أشافه في عمري عددًا من المتعلمين، وأشافه بتصنيفي خلقًا لا تحصى ما خُلقوا بعد. ودليل هذا أن انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من مشايخهم.

حقُّه على التصنيف

فينبغي للعالم أن يتوفر على التصانيف إن وفق للتصنيف المفيد، فإنه ليس كل من صَنَّفَ صَنَّفَ. وليس المقصود جمع شيء كيف كان، وإنما هي أسرار يطلع الله عليها من شاء من عباده، ويوفقه لكشفها، فيجمع ما فُرق، أو يرتب ما شُتت، أو يشرح ما أُهمل، هذا هو التصنيف المفيد.

زمن التصنيف

وينبغي اغتنام التصنيف في وسط العمر؛ لأن أوائل العمر زمن

(١) انظر: «الفروق» للعسكري (ص٢٤٠).

الطلب، وآخره كِلَالُ الحواس...»[١].

حكم التصنيف

وقال الزركشي: إن تصنيف كتب العلم فرض كفاية لمن منحه الله فهمًا واطلاعًا، ولن تزال هذه الأمة مع قصر أعمارها في ازدياد وترقٍّ في المواهب، والعلم لا يحل كتمه، فلو تُرك التصنيف، لضُيع العلم على الناس، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧][٢].

أول من ابتدأ بالتصنيف

قيل: أول من ابتدأ بتصنيف الكتب سعيد بن أبي عَروبة (ت١٥٦)، وقيل: عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج (ت١٥٠هـ)[٣].

مقاصد التأليف الثمانية

وقد ذكر العلماء أن مقاصد التأليف **ثمانية**:

١ ـ معدوم قد اختُرِع.

٢ ـ مفرّق قد جُمع.

٣ ـ ناقص قد كمِّل.

٤ ـ مشكل قد شُرح.

٥ ـ مطول قد اختصر.

٦ ـ منثور قد رُتّب.

٧ ـ خطأٌ قد صُحح.

٨ ـ مبهم قد عُيّن.

وقد نظم بعضهم السبعة الأُول بقوله:

أَلَا فَاعْلَمَنْ أَنَّ التآليفَ سَبْعَةٌ ... لِكُلِّ لَبِيْبٍ فِي النَّصِيْحَةِ خَالِصِ

فَشَرْحٌ لِإغْلَاقٍ وتَصْحِيْحُ مُخْطِئٍ ... وإِبْدَاعُ حَبْرٍ مُقْدِمٍ غَيْرِ نَاكِصِ

(١) «صيد الخاطر» (ص٢٢٨ ـ ٢٢٩).

(٢) «المنثور في القواعد» للزركشي (٣/ ٣٥).

(٣) «العلل» للإمام أحمد (٢/ ٣١١)، «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ٢٨١)، «المحدد الفاصل» (ص٦١١)، «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٣٢٧).

وَتَرْتِيْبُ مَنْثُورٍ وجَمْعُ مُفَرَّقٍ   وتَقْصِيْرُ تَطْوِيْلٍ وتَتْمِيْمُ نَاقِصِ[(١)]

أول من تكلم في مقاصد التأليف

وأول من تكلّم في ذلك العلامة اللغوي أبو الحسين أحمد بن فارس عندما أشار إلى بعض أغراض التأليف ومقاصده في مقدمة كتابه «الصاحبي»[(٢)]، فقال: «والذي جمعناه في مُؤلَّفنا هذا مفرق في أصناف مؤلفات العلماء المتقدمين رضي الله عنهم وجزاهم عنا أفضل الجزاء. وإنما لنا فيه اختصارُ مبسوطٍ، أو بسطُ مختصرٍ، أو شرح مشكل، أو جمع متفرق»، ثم ذكرها ابن حزم الظاهري في بعض مصنفاته، ومنه أخذها أبو حيّان في أوائل «شرح التسهيل» وزاد عليها: أو ما هو مبهم فيعين[(٣)]، وهو المقصد الثامن، كما تقدم.

تحقيق الكتب ليس تصنيفًا ولا تأليفًا

أما تحقيق الكتب فليس تأليفًا ولا تصنيفًا بالمعنى الاصطلاحي؛ لأن التحقيق يقصد به بذل عناية خاصة بالمخطوطات من تحقيق عنوان الكتاب، وتحقيق اسم المؤلف ونسبة الكتاب إلى مؤلفه، وتحقيق متن الكتاب حتى يظهر بقدر الإمكان مقاربًا لنص مؤلفه، وهو بوجه عام أمر جليل يحتاج من الجهد والعناية إلى أكثر مما يحتاج إليه التأليف. وقديمًا قال الجاحظ: «ولربما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيفًا أو كلمة ساقطة، فيكون إنشاء عشر ورقات من حُرِّ اللفظ وشريف المعاني أيسر عليه من إتمام ذلك النقص حتى يرده إلى موضعه من اتصال الكلام»[(٤)] والجهد الذي يبذل في التحقيق يختلف اختلافًا بيّنًا لأسباب، ليس هذا موضع بيانها.

(١) «إضاءة الراموس» للشركي (٢/ ٢٨٨).
(٢) (ص٥).
(٣) (١/ ١١)، وانظر: «إضاءة الراموس» (٢/ ٢٨٨)، «التعريف بآداب التأليف» للسيوطي (ص٦)، «أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض» (٣/ ٣٤ ـ ٣٥)، «قواعد التحديث» للقاسمي (ص٣٨).
(٤) «الحيوان» (١/ ٧٩)، «تحقيق النصوص ونشرها» لعبد السلام هارون (ص٤٢ ـ ٥٢).

شرط الاشتغال بالتصنيف

قوله: (قال النووي: ينبغي أن يعتني بالتصنيف إذا تأهّل له)؛ أي: صار أهلًا للتصنيف، وذلك ـ كما يقول ابن جماعة ـ بتمام الفضيلة وكمال الأهليّة[(١)]، وهذا شرط عظيم، ومطلب أكيد. ومعنى ذلك: أنه ليس كل من حصل على شيء من العلم جاز له أن يصنف، ولا سيما في زماننا هذا، حيث كثر من يتصدَّى للتأليف، ساعد على ذلك وسائل تقريب المعلومات بواسطة الشبكة العنكبوتية أو بعض البرامج السائدة.

الحذر من الاشتغال بالتصنيف قبل التأهل

يقول الشيخ بكر أبو زيد: «الحذرَ الحذرَ من الاشتغال بالتصنيف قبل استكمال أدواته، واكتمال أهليتك، والنضوج على يد أشياخك، فإنك تسجل به عارًا، وتبدي به شنارًا، أما الاشتغال بالتأليف النافع لمن قامت أهليته، واستكمل أدواته، وتعددت معارفه، وتمرس به: بحثًا، ومراجعة، ومطالعة، وجردًا لمطولاته، وحفظًا لمختصراته، واستذكارًا لمسائله، فهو من أفضل ما يقوم به النبلاء من الفضلاء...»[(٢)].

فوائد الاشتغال بالتصنيف

قوله: (فبه يطلع على حقائق العلم ودقائقه، ويثبت معه؛ لأنه يضطرّه إلى كثرة التفتيش والمطالعة، والتحقيق والمراجعة، والاطلاع على مختلِف كلام الأئمة ومُتَّفِقِه، وواضحه من مشكِلِه، وصحيحه من ضعيفه، وجزله من ركيكه، وما لا اعتراض عليه من غيره، وبه يتّصف المحقق بصفة المجتهد). أشار المؤلف بهذا إلى فوائد التصنيف، وهي فوائد نفيسة، حادية لكل من تأهل للتصنيف أن يبذل فيه غاية جهده، وينفق فيه معظم وقته، محتسبًا في ذلك الأجر من الله تعالى، راجيًا أن يكون عمله لله خالصًا ولعباده نافعًا.

قال الخطيب البغدادي عن فوائد التصنيف: «فإن ذلك الفعل مما يقوّي النفس، ويثبّت الحفظ، ويُذْكي القلب، ويشحذ الطبع، ويبسط

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٥٩).
(٢) «حلية طالب العلم» (ص٥٨).

اللسان، ويجيد البيان، ويكشف المشتبه، ويوضّح الملتبس، ويُكسب ـ أيضًا ـ جميل الذكر، وتخليده إلى آخر الدهر»[(١)]. قال عبد الله بن المعتز: «عِلْمُ الإنسان وَلَدُهُ المخلَّد»[(٢)]. ولعل ابن الجوزي اقتبسه بقوله: «المُصَنَّفُ وَلَدُ العالِم المخلد»[(٣)].

ذلك أن الإنسان يوفق للتصنيف، ثم يأذن الله تعالى بانقضاء أجله، فيتقدم إلى الدار الآخرة، لكن علمه باقٍ فيما صنفه وبذل فيه جهده ووقته، على ممر الزمان وتعاقب الأجيال، وهذه ـ والله ـ نعمة عظيمة، ومنحة ربانية جسيمة، قال النبي ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[(٤)]. قال النووي: «قال العلماء: معنى الحديث: أن عمل الميت ينقطع بموته، وينقطع تجدد الثواب له إلا في هذه الأشياء الثلاثة؛ لكونه كان سببها؛ فإن الولد من كسبه، وكذلك العلم الذي خلفه من تعليم أو تصنيف، وكذلك الصدقة الجارية وهي الوقف»[(٥)]، وقال السيوطي: «حمل العلماء رحمهم الله الصدقة الجارية بعد الموت على الوقف، والعلم المنتفع به بعد الموت على التصنيف والتعليم، وهو في التصنيف أظهر؛ لأنه أطول استمرارًا»[(٦)].

مضرة الاشتغال بالتصنيف قبل التأهل

قوله: **(وليحذر كلّ الحذر أن يشرع في تصنيف لم يتأهّل له)** هذا تصريح من المؤلف بمفهوم ما تقدم من اشتراط الأهلية في التصنيف، وإنما صرح به من باب التأكيد؛ لأن الأمر يحتاج إلى تأكيد؛ خشية التسرع في التصنيف، لأغراض عِلْمُهَا عند الله تعالى.

قوله: **(فإن ذلك يضرّه في دينه وعلمه وعرضه)**؛ أي: إن الشروع

---

(١) «الجامع» (٢/ ٢٨٠).
(٢) «الجامع» (٢/ ٢٨٠).
(٣) «صيد الخاطر» (ص٢٠).
(٤) رواه مسلم (١٦٣١).
(٥) «شرح صحيح مسلم» (١١/ ٩٤).
(٦) «التعريف بآداب التأليف» (ص٣٨).

في التصنيف قبل التأهل له فيه مضرة عظيمة في الدين والعلم والعرض. قال الحافظ الخطيب البغدادي: «من صنّف فقد جعل عقله على طَبَقٍ يعرضه على الناس»[(١)]. وقال ـ أيضًا ـ: «قال أبو عمرو بن العلا: «الإنسان في فسحة من عقله، وفي سلامة من أفواه الناس: ما لم يضع كتابًا أو يقل شعرًا». وقال العتابي: «من صنع كتابًا فقد استشرف للمدح والذم، فإن أحسن فقد اسْتُهْدِفَ للحسد والغيبة، وإن أساء فقد تعرض للشتم، واسْتُقْذِفَ بكل لسان»[(٢)].

ما ينبغي أثناء التصنيف

قوله: **(وليحذر أيضًا: من إخراج تصنيفه من يده إلا بعد تهذيبه، وترداد نظره فيه وتكريره)**. هذا فيه بيان ما ينبغي للمصنف أثناء تصنيفه، وقد بسط النووي الكلام في هذا الأدب لما له من الأهمية كما تقدم. وهو ألَّا يستعجل في إخراج كتابه والمبادرة إلى طباعته إلا بعد كمال العناية به: مراجعة، وتصحيحًا، وتدقيقًا، وتهذيبًا وتكرار نظر، وهو في كل مراجعة يطرأ عليه حذف أو زيادة أو تعديل أو تصويب أو غير ذلك، ومن تعاطى التصنيف رأى ذلك واضحًا. قال الخطيب: «ولا يضع من يده شيئًا من تصانيفه إلا بعد تهذيبه وتحريره، وإعادة تدبّره وتكريره»[(٣)]، وقال القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (ت٥٩٦هـ): «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابًا في يومه إلا قال في غده: لو غُير هذا لكان أحسن، ولو زِيد هذا لكان يستحسن، ولو قُدم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل. وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر»[(٤)].

الأسلوب المطلوب في التصنيف

قوله: **(وليحرص على إيضاح العبارة وإيجازها، فلا يوضّح إيضاحًا**

---

(١) «تاريخ بغداد» (٢١/ ٤١)، «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٢٨١).
(٢) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤).
(٣) «الجامع» (٢/ ٢٨٣).
(٤) انظر: «كشف الظنون» (١/ ١٨)، وعنه في: «الحِطة في ذكر الصحاح الستة» (ص٣٢).

ينتهي إلى الرّكاكة، ولا يوجز إيجازًا يفضي إلى المحق والاستغلاق) هذا فيه بيان الأسلوب المطلوب في التصنيف، وهو أن يكون غرض المصنف الإيضاح والبيان، مجتنبًا التطويل الممل، والإيجاز المخل، حريصًا على العبارة الواضحة، لكن لا يوضح إيضاحًا ينتهي إلى ركاكة الأسلوب، وكثرة الألفاظ المترادفة دون حاجة إليها، مما يزيد في حجم الكتاب بلا فائدة، ولا يوجز إيجازًا يفضي إلى محق المعنى، وذهاب المقصود منه، واستغلاق العبارة وعدم وضوحها، وعليه أن يعطي كل مُصَنَّف ما يليق به.

ما ينبغي أن يكون التصنيف فيه

قوله: (وينبغي أن يكون اعتناؤه من التصنيف بما لم يُسبق إليه أكثر، والمراد بهذا: ألا يكون هناك مصنَّف يغني عن مصنّفه في جميع أساليبه). معنى ذلك: أنه ينبغي لمن تصدى للتصنيف أن تكون عنايته بالذي لم يُسبق إليه، إما بكتابة بحث جديد في مسألة لم يسبق للعلماء أن تعرضوا لها، وهذا يكثر في فقه النوازل، أو يأتي إلى متن من متون العقيدة أو الحديث أو الأصول أو الفقه أو النحو أو البلاغة أو غيرها مما لم يسبق شرحه، أو شُرِحَ ولكنَّ شَرْحه في عداد المفقود، فيقوم بشرحه، أو يكون قد شرح فيشرحه بأسلوب أوضح، وأمثلة أكثر، وذلك ليستفاد من هذا المصنف، ويحقق الفائدة المرجوة من هذا المتن.

قوله: (فإن أغنى عن بعضها فليصنّف من جنسه ما يزيد زيادات يحتفل بها، مع ضمِّ ما فاته من الأساليب)؛ أي: فإن وجد مصنف يغني عن مصنفه في بعض أساليبه، وأراد أن يصنف من جنسه، فعليه أن يضمنه زيادات وفوائد يُحتفل بها ويهتم بها، مع ضم ما فات المصنف الأول من الأساليب. ولعل هذا هو المراد بقولهم في أغراض التأليف المتقدمة: «ناقص قد كُمل».

الحرص على التصنيف فيما يعم الانتفاع به

قوله: (وليكن تصنيفه فيما يعم الانتفاع به ويكثر الاحتياج إليه) هذه وصية من المؤلف لمن تصدى للتصنيف أن يحرص أن يكون مؤلفه في موضوعات يعم الانتفاع بها ويكثر احتياج الناس إليها؛ لأن المصنَّف

إذا احتيج إليه، كان اقتناؤه أكثر، والانتفاع به أعظم، ومن صور ذلك أن يكون لطلاب العلم عناية خاصة بمتن من المتون العلمية، يكثر حفظه وتقريره منهجًا في دورات علمية، أو يكون المتن مقررًا دراسيًّا في إحدى الجامعات أو المعاهد، فشرح مثل هذا فيه نفع عظيم للدارس والمدرس جميعًا. والله أعلم.



الدرس الخامس

آداب تعليمه (١)[١]

❋ التعليم: هو الأصل الذي به قِوام الدِّين والدُّنيا، وبه يُؤْمَنُ امِّحاق العلم، وفي التنزيل الحكيم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وقال النبي ﷺ: «ليبلغِ الشاهدُ منكم الغائبَ».

❋ يجب على المُعلم أن يقصد بتعليمه وجه الله تعالى، وألّا يجعله وسيلة إلى غرض دنيوي؛ لأن ما كان خالصًا كان مستمرًّا غضًّا في كل حين، وما كان لغرض زال عند الظفر به، ففات ما قصد له.

❋ ولا يمتنع من تعليم أحد لكونه غير صحيح النِّيَّة؛ فإنه يُرجى له حسن النِّيَّة.

❋ وربما عَسُرَ في كثير من المبتدئين تصحيح النِّيَّة، فالامتناع من تعليمهم يؤدِّي إلى تفويت كثير من العلم مع أنه يرجى له تصحيحها إذا أنِسَ بالعلم. وقد قال بعض السلف: «طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلَّا لله». معناه: كانت عاقبته أن صار لله.

(١) هذا الرقم يشير إلى أن آداب المعلم في تعليمه سيكون في عدة دروس، وهكذا ما سيأتي من آداب المتعلم.

❁ الشرح ❁

القسم الرابع: أدب المدرس في تعليمه تعريف التعليم وأهميته

سبقت الإشارة إلى أن آداب المدرس **أربعة**:

أدبه في نفسه، وأدبه في درسه، وفي تصنيفه، وفي تعليمه، والتعليم: نقل المعلومات إلى العقول، والتعليم أهم الأقسام الأربعة؛ لأنه الوسيلة إلى إيصال المعلومات إلى الطلاب.

وقد ذكر العلماء أن لزكاة العلم **طريقين**:

من زكاة العلم: تعليمه للناس

أحدهما: تعليمه للناس، فمن سلك هذا المنهج، فإن الله ﷻ ينمي علمه بذلك ويزكيه، وهذا أمر مشاهد ومحسوس، بشرطه المتقدم. قال ابن القيم: «العَالِمُ كلما بذل علمه للناس وأنفق منه تفجرت ينابيعه وازداد كثرةً وقوةً وظهورًا فيكتسب بتعليمه حفظ ما عَلِمَه، ويحصل له به علم ما لم يكن عنده، وربما تكون المسألة في نفسه غير مكشوفة ولا خارجة من حَيِّز الإشكال، فإذا تكلم بها وعلَّمها اتضحت له وأضاءت وانفتح له منها علومٌ أُخر.

وأيضًا؛ فإن الجزاء من جنس العمل، فكما عَلَّمَ الخلق من جهالتهم، جزاه الله بأن علَّمه من جهالته؛ كما في «صحيح مسلم»[(١)] من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال في حديث طويل: «**وأن الله قال لي: أَنفِقْ أُنفِقْ عليك**» وهذا يتناول نفقة العلم، إمَّا بلفظه، وإمَّا بتنبيهه وإشارته وفحواه[(٢)].

والثاني: العمل به، فإن العمل به ـ أيضًا ـ ينميه ويكثره، ويفتح لصاحبه أبوابه وخباياه[(٣)]. وسيأتي الكلام في ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ.

وقد تقدم حديث: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة**... ومنها: **أو علم ينتفع به**»[(٤)]، ولا تجتمع الأمور الثلاثة إلا للعالم الباذل

(١) برقم (٢٨٦٥).
(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤).
(٣) «غذاء الألباب» (١/ ٥٠).
(٤) تقدم تخريجه (ص٧٦).

لعلمه، فبذله صدقة ينتفع بها، والمتلقي لها ابن للعالم في تعلمه عليه[١].

وقد حكى الشيخ عبد الرحمٰن السعدي عن صاحب له كان قد أفتى في مسألة في الفرائض، وكان شيخه قد توفي، أنه رآه في المنام يقرأ في قبره، فقال: المسألة الفلانية التي أفتيتَ فيها وصلني أجرها[٢].

شيء من فوائد التعليم

قوله: **(التعليم هو الأصل الذي به قِوام الدين والدنيا وبه يؤمن امِّحاق العلم)** هذا فيه بيان شيء من فوائد التعليم، وما فيه من المصالح العظيمة التي تعود على الشريعة، وعلى العالم والمتعلم، **فمن فوائده**:

١ ـ نشر العلم، وبدون التعليم لا ينتشر العلم؛ بل ينقص وتذهب بركته، وقد يزول ولا يبقى له أثر. كان يقال: عَلِّم علمك من يجهل، وتَعَلَّم ممن يعلم، فإنك إذا فعلتَ ذلك عَلِمْتَ ما جَهِلْتَ، وحفظت ما عَلِمْتَ[٣].

٢ ـ إحياء الشرع وحفظه ودوام ظهور الحق وإضعاف الباطل.

٣ ـ دوام خير الأمة بكثرة علمائها؛ لأن الأمة تعيش بخير ما بقي فيها العلماء، وإذا كان من أشراط الساعة ذهاب العلم بموت العلماء، فإن مَنْ سعى بتكثير العلماء بواسطة التعليم، فقد سعى في إبقاء العلم.

وقد روى الدارمي من طريق يونس بن يزيد، عن الزهري قال: كان من مضى من علمائنا يقولون: الاعتصام بالسُّنَّة نجاة، والعلم يُقبض قبضًا سريعًا، فنعش العلم ثبات الدين والدنيا، وفي ذهاب العلم ذهاب ذلك كله[٤].

٤ ـ أن يطلب العلم اغتنامًا للأجر في تعليم الطلاب، ودلالتهم

(١) انظر: «حلية طالب العلم» (ص٥١).
(٢) انظر: «الفتاوى السعدية» (ص١٠٢).
(٣) «عيون الأخبار» (٢/ ١٢٣) وقد تقدم ذكر ذلك.
(٤) «السنن» (١/ ٤٤).

على الهدى؛ لما ثبت في الحديث أن «**من دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله**»[١]. قال النووي: «.. فيه فضيلة تعليم العلم، ووظائف العبادات، لا سيما لمن يعمل بها من المتعبدين وغيرهم. والمراد بمثل أجر فاعله: أن له ثوابًا بذلك الفعل كما أن لفاعله ثوابًا، ولا يلزم أن يكون قدر ثوابهما سواء»[٢].

٥ ـ تحصيل ثواب من ينتهي إليه علم هذا العالم من بعده، كما تقدم في كلام الشيخ عبد الرحمٰن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٦ ـ الظفر بدعاء طلابه له، وترحمهم عليه في حياته وبعد مماته.

٧ ـ دخوله في جملة مبلغي وحي الله تعالى وأحكام دينه.

٨ ـ من بثَّ علمه كان له حياة ثانية، ومن شحَّ بعلمه مات علمه بموته، وربما نسيه وهو حي. قال عبد الله بن المبارك: من بخل بالعلم ابتلي بثلاث: إما بموتٍ يذهب بعلمه، وإما يُنسى، وإما يلزم السلطان فيذهب علمه[٣]. وعن أبي قلابة قال: «العلماء ثلاثة: رجل عاش بعلمه، ولم يعش الناس به معه، ورجل عاش الناس بعلمه، ولم يعش هو به، ورجل عاش بعلمه، وعاش الناس به معه»[٤].

وقال الوزير ابن هبيرة: «يحصل العلم **بثلاثة أشياء**:

أحدها: العمل به؛ فإن من كلف نفسه التكلم بالعربية دعاه ذلك إلى حفظ النحو، ومن سأل عن المشكلات ليعمل فيها بمقتضى الشرع تعلم.

---

(١) رواه مسلم (١٨٩٣) من حديث أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٢) «شرح صحيح مسلم» (١٣/ ٤٣).
(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٦٥)، والبيهقي في «المدخل» (٥٨٦) من طريق محبوب بن موسى قال: سمعت ابن المبارك قال:... فذكره. وهذا سند حسن، ومحبوب بن موسى قال عنه الحافظ في «التقريب»: (صدوق).
(٤) رواه عبد الرزاق (١١/ ٢٥٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٨٣)، وابن عبد البر في «الجامع» (٢/ ٣٤).

والثاني: التعليم، فإنه إذا عَلَّمَ الناس كان أدعى إلى تعليمه.

والثالث: التصنيف، فإنه يخرجه إلى البحث، ولا يتمكن من التصنيف من لم يدرك غور ذلك العلم الذي صنَّف فيه»[١].

مسؤولية طالب العلم تجاه العلم الشرعي

قوله: (وفي التنزيل الحكيم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]) استدل المؤلف بعموم هذه الآية ـ كما سيأتي ـ على بيان مسؤولية طالب العلم تجاه العلم الشرعي، وذلك ببذل وقته وجهده في نشر العلم تعليمًا وتصنيفًا.

تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ...﴾ الآية

والميثاق: العهد الثقيل المؤكد، و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أحبار اليهود. وقيل: وأحبار النصارى، وذُكروا بعنوان إيتاء الكتاب؛ مبالغةً في تقبيح حالهم، وإشارةً إلى أن أخذ الميثاق كان في كتابهم. وقوله: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾ جواب «ميثاق»؛ لتضمّنه معنى القسم، والنهيُ عن الكتمان بعد الأمر بالبيان للمبالغة في إيجاب المأمور به وهو البيان[٢].

قال ابن كثير: «في هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويُسْلكَ بهم مَسالكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئًا»[٣].

قال ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: ٦٣] قال: «كان العلماء يقولون: ما في القرآن آية أشد توبيخًا للعلماء من هذه الآية ولا أخوف عليهم منها».

وأخرج عن الضحاك ابن مزاحم أنه قال: «ما في القرآن آية أخوف عندي منها، أنَّا لا ننهى»[٤].

---

(١) «الذيل على طبقات الحنابلة» (٢/١٥٦ ـ ١٥٧).

(٢) انظر: «روح المعاني» (٤/١٤٩).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٢/٤٨٣).

(٤) «تفسير الطبري» (٦/٢٩٨).

وقال الشيخ عبد الرحمٰن السعدي: «هذا الميثاق أخذه الله تعالى على كل من أعطاه الله الكتب وعلمه العلم، أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله، ولا يكتمهم ذلك، ويبخل عليهم به، خصوصًا إذا سألوه، أو وقع ما يوجب ذلك. فإن كل من عنده علم يجب عليه في تلك الحال أن يبينه، ويوضح الحق من الباطل.

فأما الموفقون، فقاموا بهذا أتم القيام، وعلموا الناس مما علمهم الله، ابتغاء مرضاة ربهم، وشفقة على الخلق، وخوفًا من إثم الكتمان.

وأما الذين أوتوا الكتاب، من اليهود والنصارى ومن شابههم، فنبذوا هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم، فلم يعبأوا بها، فكتموا الحق، وأظهروا الباطل...»[١].

شرح حديث: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب»

قوله: (وقال النبي ﷺ: «لِيبلِّغ الشاهد منكم الغائبَ»)[٢] هذه الجملة جاءت في عدة أحاديث، ومنها حديث أبي بكرة رضي الله عنه الطويل في خطبة النبي ﷺ في منى يوم عيد النحر، فقد جاء في آخرها: «**ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يُبَلَّغُهُ يكون أوعى له من بعض من سمعه**» والمراد: تبليغ الخطبة المذكورة في الحديث، أو تبليغ جميع الأحكام. والمراد بالشاهد: الحاضر في المجلس. وفيه دليل على أن العالم يجب عليه تبليغ علمه لمن لم يبلغه وتفهيمه لمن لم يفهمه، كما تقدم. قال ابن الجوزي: «وأما تعليم الطالبين، وهداية المريدين، فإنه عبادة العَالِم، وإن من الخطأ الذي وقع فيه بعض العلماء: إيثاره التنفل بالصلاة والصوم عن تصنيف كتاب، أو تعليم علم ينفع؛ لأن ذلك بذر يكثر ريعه، ويمتد زمان نفعه»[٣].

عناية السلف بالتعليم، وشيء من أخبارهم

وقد كان للعلماء من سلف هذه الأمة وخلفها عناية بالغة في

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص١٦٠).
(٢) أخرجه البخاري (١٠٥)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة.
(٣) «صيد الخاطر» (ص٤٢).

التعليم، وبذل الجهد والوقت في نفع الآخرين، ولهم في ذلك أخبار.
قال العباس أبو محمد الدوري: «ربما كنا عند أحمد بن حنبل أيام الحج، فيجيئه أقوام من الحجاج، فيقبل عليهم ويحدثهم، فربما قلنا له في ذلك، فيقول: هؤلاء قوم غرباء، وإلى أيام يخرجون»[(١)].

وقال يحيى بن حميد الطويل أو غيره: «أتينا يومًا حماد بن سلمة وبين يديه صبيان يحدثهم، فجلسنا إليه حتى فرغ، فقلنا له: يا أبا سلمة، نحن مشايخ أهلك قد جئناك، تركتنا وأقبلت على هؤلاء الصبيان، قال: رأيت فيما يرى النائم كأني على شط نهر ومعي دُليَّة أسقي فسيلًا، فتأولته هؤلاء الصبيان»[(٢)].

وعن عطاء بن السائب عن رجل قال: «كنا جلوسًا مع حذيفة رضي الله عنه قال: فمر رجل، فقال له حذيفة: يا فلان، ما يمنعك أن تجالسنا؟ قال: والله ما يمنعني من ذاك إلا هؤلاء الشباب الذين هم حولك، قال: فغضب حذيفة، وقال أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠﴾ [الأنبياء: ٦٠]، ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝١٣﴾ [الكهف: ١٣] وهل الخير إلا في الشباب»[(٣)].

آداب المدرس في تعليمه: ١ ـ تصحيح النية في التعليم

قوله: (يجب على المعلِّم أن يقصد بتعليمه وجه الله تعالى)؛ أي: يجب على المعلم تصحيح النية في تعليمه، وذلك بأن يقصد به وجه الله تعالى وابتغاء رضاه وثوابه، وعليه ـ أيضًا ـ أن يستحضر في ذهنه كون التعليم آكد العبادات وأجل الطاعات، وأنه مما يتعدى نفعه، ويمتد أثره، ويكثر ريعه؛ ليكون ذلك حاثًّا له على تصحيح النية[(٤)].

---

(١) «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٣٦).
(٢) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٣١٢). والدُّلية: بالضم تصغير ولو، وهي التي يستقى بها الماء، والفسيل: جمع فسيلة، وهي النخلة الصغيرة. «القاموس» (٢/ ٢٠٨)، (٣/ ٤٩١ ترتيبه).
(٣) المصدر السابق (١/ ٣١٠).
(٤) انظر: «المجموع» (١/ ٣٠).

وقد مضى الكلام في مسألة الإخلاص وتصحيح النية، وإنما أعاده مرة أخرى؛ لأهمية الإخلاص من جهة، ولترتيب ما بعده عليه من جهة أخرى.

٢ـ ألا يجعل تعليمه وسيلة إلى غرض دنيوي

قوله: (وألّا يجعله وسيلة إلى غرض دنيوي؛ لأن ما كان خالصًا كان مستمرًا غَضًّا في كل حين، وما كان لغرض زال عند الظفر به، ففات ما قُصِدَ له) هذه وصية نفيسة من المؤلف تتابع عليها العلماء في قديم الدهر وحديثه[(١)]، وهي تحذير العالم من أن يجعل علمه وتعليمه وسيلة للحصول على شيء من حطام الدنيا لدى الحكام أو أرباب المناصب، أو غيرهم؛ لأن العلم أشرف أنواع العبادة وأجلُّها وأعلاها، والعلم إذا كان خالصًا لوجه الله تعالى بقي غضًّا طريًّا متجددًا نافعًا في كل وقت وحين، فإن كان لغرضٍ ما، ذهب واضمحل عند الظفر بغرضه، ففات ما قصد له.

تنزه العلماء عن المطامع الدنيوية

وعليه؛ فينبغي للعالم أن يكون ذا همة عالية لا يطمع في أموال الناس ولا يتطلع إليها، وقد كانوا في الزمان الأول يتعلمون الحرفة، ثم يتعلمون العلم حتى لا يطمعوا في أموال الناس، بسبب قناعتهم بما يحصل من الحرفة. والعالم إذا كان ذا طمع لم تبقَ له حرمة العلم، بسبب الابتذال وعَرَضِ الاحتياج إلى الأدنى، حتى إنه لا يقول الحق، ولا يأمر به؛ خوفًا على فوت حطام الدنيا[(٢)].

قال الوزير ابن هبيرة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ﴾ [القصص: ٨٠]: «إيثار ثواب الآجل على العاجل حالة العلماء، فمن كان هكذا فهو عالم، ومن آثر العاجل على الآجل فليس بعالم»[(٣)].

---

(١) انظر مثلًا: «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٨١)، «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (ص١٥٤).
(٢) انظر: «تعليم المتعلم وشرحه» (ص٣٣).
(٣) «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ١٤٧).

وقال الشيخ عبد الوهاب السُّبْكي: «العلماء فرق كثيرة: منهم المفسر والمحدث والفقيه والأصولي والمتكلم والنحوي وغيرهم، وتتشعب كل فرقة من هؤلاء شعوبًا وقبائل. ويجمع الكُلَّ أنه حق عليهم إرشادُ المتعلمين، وإفتاء المستفتين، ونصح الطالبين، وإظهار العلم للسائلين، فمن كتم علمًا ألجمه الله بلجام من نار[١]، وألا يقصد بالعلم الرياء والمباهاة والسمعة، ولا جَعْلَهُ سبيلًا إلى الدنيا، فإن الدنيا أقل من ذلك...

وأقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها، وكدورتها وانصرامها، وعِظَمَ الآخرة وصفاءها ودوامها... وَحَقِّ الحَقِّ إني لأعجب من عالم يجعل علمه سبيلًا إلى حطام الدنيا، وهو يرى كثيرًا من الجهال وصلوا من الدنيا إلى ما لا ينتهي هو إليه! فإذا كانت الدنيا تنال مع الجهل، فما بالنا نشتريها بأنفس الأشياء وهو العلم؟! فينبغي أن يقصد بالعلم وجه الله تعالى، والترقي إلى جوار الملأ الأعلى»[٢].

وقال أبو سعد السمعاني: سمعت أبا الفتح مسعود بن محمد بن أحمد أبي نصر، الخطيب بمرو يقول: سمعت عمر النَّسَوِيَّ - يعرف بابن أبي ليلى - يقول: كنت في جامع صُورَ[٣] عند الخطيب [البغدادي]، فدخل عليه بعض العلوية[٤]، وفي كُمِّهِ دنانير، وقال للخطيب: فلانٌ - وذكر بعض المحتشمين من أهل صُوْر - يسلم عليك ويقول: هذا تصرفه في بعض مهماتك، فقال الخطيب، لا حاجة لي فيه، وقَطَّب وجهه،

(١) هذا لفظ حديث رواه عدد من الصحابة رضي الله عنهم، وهو حديث صحيح، صححه كثير من الأئمة، انظر: «جامع بيان العلم» (١/ ٥٤ - ٦٥).

(٢) «معيد النعم ومبيد النقم» (ص٦٧ - ٦٨) بتصرف.

(٣) صُوْر: بضم فسكون، مدينة مشهورة مشرفة على بحر الشام «مراصد الإطلاع» (٢/ ٨٥٦).

(٤) العلوية: فرقة من غلاة الرافضة، وهم النصيرية، وإطلاق العلوية عليهم فيه تمويه وتغطية لحقيقتهم. راجع: «الجذور التاريخية للنصيرية العلوية».

فقال العلوي: فتصرفه إلى بعض أصحابك، قال: قل له يصرفه إلى من يريد، فقال العلوي: كأنك تستقله، ونفض كُمَّهُ على سجادة الخطيب، وطرح الدنانير عليها، وقال: هذه ثلاثمائة دينار، فقام الخطيب مُحْمَرَّ الوجه، وأخذ السجادة، ونفض الدنانير على الأرض، وخرج من المسجد.

قال الفضل بن أبي ليلى: ما أنسى عِزَّ خروج الخطيب، وذُلَّ ذلك العلوي، وهو قاعد على الأرض، يلتقط الدنانير من شُقَقِ الحُصْرِ، ويجمعها[(١)].

جواز أخذ الرزق من بيت المال على التعليم

أما أخذ الرَّزْق من بيت المال ـ وهو الراتب ـ على تعليم القرآن، وتعليم العلم ـ ومثل ذلك الأذان والإمامة ـ فجوازه محل اتفاق بين أهل العلم؛ لأن ما يؤخذ من بيت المال لهذه الأعمال ليس عوضًا وأجرة؛ بل هو رَزْقٌ للإعانة على الطاعة ونفع الأمة، وهو حق ثابت في بيت المال، وبيت المال مُعَدٌّ للمصالح، إلا أن بعض الفقهاء كالشافعية والحنابلة يقيدون جواز أخذ الرزق بعدم وجود متطوع، حماية لبيت المال من أن يصرف بدون حاجة إلى صرفه[(٢)].

٣ـ ألا يمتنع من التعليم لعدم خلوص نية الطالب

قوله: **(ولا يمتنع من تعليم أحد لكونه غير صحيح النية)**؛ أي: إن على العالم أن يبذل علمه لكل من سأله أو حضر مجلسه؛ مريدًا الاستفادة مما ينفعه في دينه ودنياه، ولا يمتنع من تعليم أحد لكونه غير صحيح النية، وذلك لأن التأهل وقت التحمل ليس بشرط. روى الخطيب بسنده عن يحيى بن يمان قال: «ما سمعت سفيان يعيب العلم قط، ولا من يطلبه. قالوا: ليست لهم نية. قال: طلبهم العلم نية»[(٣)] قال الخطيب: «والذي نستحبه أن يروي المحدث لكل أحد سأله

(١) انظر: «معجم الأدباء» (٤/ ٣١ ـ ٣٢)، «تذكرة الحفاظ» (٣/ ١١٣٨).
(٢) انظر: «المجموع» (٣/ ١٢٥)، «الشرح الكبير مع الإنصاف» (٢/ ٧٠).
(٣) «الجامع» (١/ ٣٣٩).

التحديث، ولا يمنع أحدًا من الطلبة.. وكان في السلف من يتألف الناس على حديثه، ابتغاء المثوبة في نشره، ويرى أن ذلك من واجب حقه»[١].

تعليل قوي لما تقدم

قوله: (فإنه يرجى له حسن النية، وربما عَسُرَ في كثير من المبتدئين تصحيح النِّيَّة) هذا فيه تعليل قوي لما تقدم من أن العالم لا يمتنع من تعليم أحد، وذلك **لأمرين**:

الأمر الأول: أنه يرجى للطالب حسن النية ببركة العلم؛ لأنه إذا تعلم التوحيد، والحديث، وتفسير القرآن، وسير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصحابة رضي الله عنهم حسنت نيته، وحصل عنده خوف من الله تعالى، فهو وإن لم يتأثر في الحال تأثر في المآل.

الأمر الثاني: عُسْرُ تصحيح النية، وإدراك هذا المعنى في كثير من المبتدئين، وذلك **لسببين**:

الأول: ضعف نفوس المبتدئين عن تصحيح النية؛ لأن نفوسهم لم تتهذب بعد، ولم تدرك حقائق الأمور، ولم تعرف الغاية من المطالب العالية.

الثاني: قِلّة أُنسهم بموجبات تصحيح النية، إذ لا علم لهم بهذا الأمر العظيم، ولا بما يتحقق به[٢].

ويغلب هذا في الدراسات النظامية كالجامعات وما دونها. وقد طرأ في هذا العصر مؤثرات كثيرة قد تؤثر على صحة النية ابتداءً، بخلاف دروس المساجد أو الدورات العلمية، فهذه تتحقق فيها صحة النية غالبًا.

قوله: (فالامتناع من تعليمهم يؤدي إلى تفويت كثير من العلم مع أنه يرجى له تصحيحها إذا أَنِسَ بالعلم)؛ أي: إن الامتناع عن تعليم مثل

(١) المصدر السابق (١/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠).
(٢) انظر: «شرح تذكرة السامع والمتكلم» للشيخ صالح العصيمي (ص١٠٨).

هؤلاء يؤدي إلى تفويت كثير من العلم، وحرمان كثير من الطلبة منه، وهذا مخالف لما تقدم من أنه ينبغي حرص العالم على بث علمه ونشره، مع أن هذا الطالب يرجى له تصحيح النية إذا أنس بالعلم، وببركة حسن النية تنال الرتبة العليّة من العلم والعمل.

مقولة بعض السلف: «طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله»

قوله: (وقد قال بعض السلف: «طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله. معناه: كانت عاقبته أن صار لله») معنى ذلك: أن الإنسان قد يطلب العلم دون استحضار نية صحيحة، كأن يطلبه للدنيا، أو لنيل شهادة، أو تَقَدُّمٍ على غيره، أو نحو ذلك مما ظاهره في بادئ الأمر أن طلب العلم لغير الله تعالى، ثم تأتي النية الصحيحة فيما بعد.

قال الذهبي موضحًا المراد بهذه المقولة: «نعم، يطلبه أولًا، والحامل له حُبُّ العلم، وحب إزالة الجهل عنه، وحب الوظائف، ونحو ذلك. ولم يكن عَلِمَ وجوب الإخلاص فيه، ولا صِدْقَ النية، فإذا علم، حاسب نفسه، وخاف من وبال قصده، فتجيئه النية الصالحة كلها أو بعضها، وقد يتوب من نيته الفاسدة ويندم. وعلامة ذلك: أنه يَقْصُرُ من الدعاوى وحُبِّ المناظرة، ومِنْ قصد التكَثُّر بعلمه، ويزري على نفسه، فإن تكثر بعلمه، أو قال: أنا أعلم من فلان فبُعدًا له»[١].

قال محمد بن إسحاق: «جاء قوم إلى سِمَاك بن حرب يطلبون الحديث، فقال جُلَسَاؤه: ما ينبغي لك أن تحدث هؤلاء، ما لهؤلاء رغبة ولا نية. فقال سماك: قولوا خيرًا، قد طلبنا هذا الأمر ونحن لا نريد الله به، فلما بلغتُ منه حاجتي، دلني على ما ينفعني، وحجزني عما يضرني»[٢]. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

(١) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٧)، وانظر: (٦/ ٣٢٨) (٧/ ١٥٢) (١٥/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥).
(٢) «الجامع» (١/ ٣٤٠).

الدرس السادس

من آداب المدرس في تعليمه (٢)

* وينبغي أن يؤَدِّب المتعلم على التدريج بالآداب السَّنية، والشِّيَمِ المرضية، ويحرِّض على الإخلاص والصدق وحُسْنِ النِّـيَّة.

* وينبغي أن يُرَغِّبه في العلم ويُذَكِّره بفضائله وفضائل العلماء.

* وينبغي أن يحنوَ عليه، ويعتني بمصالحه؛ كاعتنائه بمصالح نفسه وولده، ويُجريه مُجرى ولده ـ في الشفقة عليه، والاهتمام بمصالحه ـ، ويعذره في سوءِ أَدب وجفوة تعرض معه في بعض الأحيان؛ فإن الإنسان معرَّض للنقائص.

* وينبغي أن يكون سمحًا ببذل ما حصَّله من العلم، سهلًا على مبتغيه، مُتلطفًا في إفادته طالبيه، مع رفق ونصيحة وإرشاد إلى المُهمات، وتحريضٍ على حفظ ما يبذله لهم من الفوائد.

* ولا يدخر عنهم من أنواع العلم شيئًا يحتاجون إليه إذا كان الطالب أهلًا لذلك.

* ولا يلقي إليه شيئًا لم يتأهل له؛ لئلا يُفْسِدَ عليه حاله، فلو سأَله المُتعلم عن ذلك لم يجبه، ويُعَرِّفه أن منعه ليس شُحًّا بل شَفقةً ولُطفًا.

* وينبغي ألا يتعظم على المتعلمين؛ ،بل يلين لهم،

ويتواضع، وفي التنزيل الكريم: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحِجر: ٨٨].

❊ وينبغي أن يكون حريصًا على تعليمهم مُهتمًّا به، مُؤثرًا له على حوائج نفسه، ويرحب بهم عند إقبالهم إليه، ويُظهر لهم البِشْر وطلاقة الوجه، ويُحسن إليهم بعلمه وماله وجاهه، ولا يخاطب الفاضل منهم باسمه بل بكنيته.

❊ وينبغي أن يتفقدهم ويسأَل عمن غاب منهم.

الشرح

من آداب التعليم: ٤ ـ تأديب المتعلم على التدريج بمكارم الأخلاق

قوله: (وينبغي أن يؤدِّب المتعلم على التدريج بالآداب السنِيَّة والشِّيم المرضيّة) هذا مما يجب على المعلّم ملاحظته، وهو العناية بالآداب والأخلاق أثناء التدريس، ووظيفة المدرس تدريس وتربية في آنٍ واحد، وأدب المرء هو عونه على طلب العلم وفهمه، وهو عنوان سعادته وفلاحه، فمن أعظم مقاصد التعليم تحلية الطلاب بالأخلاق الفاضلة، والصفات العالية، والمعاملة الحسنة، وهو مما يغفل عنه كثير من المدرسين في هذا الزمان، تجده يُعنى بمنهج درسه، ويعطيه حقه، لكن لا يقيم للتربية وزنًا، وليس عنده للتوجيه معنى، وقد كان شيخنا صالح بن إبراهيم البليهي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يهتم بهذا الجانب من التعليم اهتمامًا بالغًا، وقَلَّ أن يمر درس من دروسه لنا في المعهد العلمي ليس فيه نصح وتوجيه.

وقول المؤلف: (الشيم المرضية) جمع شيمة، ومعناها: الغريزة والطبيعة والجبلّة، وهي التي خلق عليها الإنسان[1].

وقوله: (على التدريج) قيد جميل، ولا سيما إسداء النصائح

---

(١) «المصباح المنير» (ص٣٢٩).

والتوجيهات أثناء التدريس، فهي لا تكون جملة واحدة؛ لئلا تملَّها النفوس ولا تستوعبها، وإنما بحسب الفرص والمناسبات التي لا ينبغي إغفالها.

تأكيد الجمع بين التربية والتعليم

إنه لا بد من التربية مع التعليم، ذلك أن هناك فرقًا واضحًا بين مهمة التربية من جهة ومهمة التعليم من جهة أخرى. فالتربية: إصلاح النفس الإنسانية، وتنمية جوانبها الروحية والعقلية والجسمية، وإحكام بنيانها إلى حد الكمال. والتعليم: تنمية العقل وصقله، وتمكينه من اكتساب بعض المعارف والمهارات التي تلزمه في حياته، وتمكينه كذلك من إتقان فنٍّ ما، أو حرفة من الحرف. وعلى هذا فَمُهِمَّةُ التربية أوسع وأشمل وأهم من عملية التعليم، ولا بد منهما، إذ لو انفصلت عملية التعليم عن العملية التربوية، فإنها تصبح مجرد تكديس وحشو معلومات فقط، وعندئذٍ لا تنفع هذه المعلومات في بناء شخصية إنسانية سوية متكاملة.

٥ - حث الطالب على الإخلاص

قوله: (ويحرِّضه[1] على الإخلاص والصدق وحسن النية)؛ أي: لأن الطالب قد يغفل عن هذه المعاني، وهو بأمس الحاجة إليها وإلى غرسها منذ البداية، وتقدم ذلك.

٦ - ترغيبه في العلم، ووسيلة ذلك

قوله: (وينبغي أن يرغِّبه في العلم، ويذكِّره بفضائله، وفضائل العلماء) ذكر المؤلف وسيلتين في حث المتعلم على طلب العلم:

الوسيلة الأول: التذكير بفضائل العلم، فإن من نظر في فضائل العلم ومحاسنه ومزاياه ترقَّت همته إلى طلبه والسعي في تحصيله، فأهله قرنهم الله تعالى في كتابه بنفسه وملائكته، فقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقَصَرَ الخشية له التي هي سبب الفوز لديه على العلماء، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] وأخبر عباده بأنه

(١) جاءت في المطبوع «ويحرض»، والذي في الأصل: ويحرضه، وهي أوضح، بدليل السياق.

يرفع علماء المؤمنين درجات، فقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. وأخبرنا رسول الله ﷺ بـ«**أن العلماء ورثة الأنبياء**»[(١)]، والعلماء سراج العباد، ومنار البلاد، الحيتان في البحار لهم تستغفر، والملائكة بأجنحتها لهم تخضع.

وقد ثبت في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**من سلك طريقًا يلتمس في علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة**»[(٢)]. وهذا من أوضح الأدلة على فضل العلم؛ لأن الله تعالى جعل جزاء طالب العلم تسهيل طريقه إلى الجنة، وذلك بتسهيل العلم الذي طلبه؛ لأن العلم يوصل إلى الجنة، وتسهيلِ العمل بمقتضى علمه إذا قصد به وجه الله، بحيث يكون سببًا لهدايته وصلاحه ووصوله إلى الجنة، ويُرجى أن الله تعالى ييسر لطالب العلم الانتفاع به في الآخرة بحيث ينجو من الأهوال والشدائد[(٣)].

وقد تقدم حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»، قال ابن القيم: «وهذا من أعظم الأدلة على شرف العلم وفضله وعظم ثمرته، وأن ثوابه يصل إلى الرجل بعد موته ما دام ينتفع به، فكأنه حي لم ينقطع عمله، مع ما له من حياة الذكر والثناء، فجريانُ أجره عليه إذا انقطع عن الناس ثوابُ أعمالهم حياةٌ ثانية»[(٤)].

---

(١) انظر: «أدب الطلب» للشوكاني (ص١٨١). والحديث رواه ابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وفي سنده كثير بن قيس، وهو ضعيف، ضعفه الدارقطني في «العلل» (٦/ ٢١٧)، وأشار ابن القطان في «بيان الوهم والإيهام» (٤/ ٢٩) إلى جهالة حاله. والحديث له شواهد يتقوى بها. انظر: «فتح الباري» (١/ ١٦٠).

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٣) انظر: «شرح حديث أبي الدرداء رضي الله عنه» ضمن «مجموع رسائل ابن رجب» (١/ ١٢).

(٤) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٠٠).

وقال الزرنوجي: «إنما شَرُفَ العلم بكونه وسيلة إلى التقوى، التي يستحق بها المرء الكرامة عند الله تعالى والسعادة الأبدية، والعلم وسيلة إلى معرفة: الكبر، والتواضع، والألفة، والعفة، والإسراف، والتقتير، وغيرها، وكذلك في سائر الأخلاق»[(١)].

وقال ابن القيم: «كل صفةٍ مَدَحَ الله بها العبد في القرآن فهي ثمرة العلم ونتيجته، وكل ذَمٍّ ذَمَّهُ فهو ثمرة الجهل ونتيجته»[(٢)].

الوسيلة الثانية من وسائل الحث على طلب العلم: أن يديم الطالب النظر في سير الماضين من أهل العلم وحملته، وكيف أفنوا أعمارهم في سبيل العلم تعلُّمًا وتعليمًا وتصنيفًا، وما مرّ بهم من المتاعب والشدائد، وما هم عليه من حياة التقشف والخشونة.

ومن قرأ في سير الماضين عرف قدر تراثهم، وما بذلوا من جهد، وعرف حرصَهم على حفظ الأوقات وساعات العمر، ولعل هذا يحرِّك النفس للاقتداء بهم، وسلوك سبيلهم، فيحصل للمتعلم الجد في الطلب، وبذل الغالي والنفيس في التحصيل.

قال ابن الجوزي: «عليكم بملاحظة سِيَرِ السلف، ومطالعة تصانيفهم، وأخبارهم، فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم»، وقال: «ليكثر طالب الكمال من المطالعة، فإنه يرى من علوم القوم وعُلُوِّ هممهم ما يشحذ خاطره، ويحرك عزيمته للجد»[(٣)].

٧ـ الاعتناء بالطالب ورعاية مصالحه

قوله: (وينبغي أن يحنوَ عليه، ويعتني بمصالحه؛ كاعتنائه بمصالح نفسه وولده، ويُجريه مُجرى[(٤)] ولده ـ في الشفقة عليه، والاهتمام بمصالحه ـ)؛ أي: ينبغي أن يعطف المعلم على تلميذه بحيث يكون

---

(١) «تعليم المتعلم» (ص٥ ـ ٦) بتصرف.
(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٢٠).
(٣) «صيد الخاطر» (ص٤٤٠) بتصرف. وراجع: «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل» للشيخ عبد الفتاح أبو غدة.
(٤) يَجْري مَجرى ـ إذا فتحت فافتح، وإذا ضممت فاضمم ـ يُجرى مُجرى.

عنده بمنزلة الولد؛ بل هو الولد الحقيقي للمعلم الوارث له.

وقد جاء من الأدلة وأقوال المربين ما يدل على أن العطف على الناشئين وإشعارهم بصلة العقيدة من أهم أساليب التربية الاجتماعية في الإسلام، وقد شاع في المجتمع الإسلامي قديمًا وحديثًا مخاطبة التلميذ: بـ«يا بني» و«يا ابن أخي». وقد جاء في «صحيح مسلم»[(١)] عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا بني**».

وقد كتب الشيخ أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ) رسالة لأحد تلامذته الذي طلب منه النصح والإرشاد، وسمّاه بـ«الولد» وكان يكرر هذا النداء: «أيها الولد المحب» في بداية كل فقرة من توجيهاته، ليبين له أن الأستاذ في مقام الوالد، والتلميذ في مقام الولد، ويذكره بهذه الآصرة القلبية الوطيدة[(٢)].

٨ـ الصبر على أذى المتعلمين

قوله: (ويعذره في سوء أدب وجفوة تعرض معه في بعض الأحيان؛ فإن الإنسان معرّض للنقائص) معناه: أن الصبر على أذى المتعلمين وسوء معاملتهم خُلُقٌ لا بد أن يتحلى به المعلم؛ لينال بذلك أجر الصابرين، ويكون قدوةً لهم في تعويدهم الصبر، واحتمال الأذى من الناس، ولا يتم التعليم إلا بذلك، وهذا ـ لعمر الله ـ أمر محسوس، يعيشه كل من تشرف بالتعليم، لكن لا بد أن يلاحظهم بالتوجيه والإرشاد والتنبيه بحكمةٍ على ما أساؤوا به؛ لئلا تضيع هيبته من نفوسهم، فيضيع مجهوده في تعليمهم[(٣)]. يقول الشيخ عبد الرحمٰن

---

(١) رقم (٢١٥١).

(٢) راجع: «رسالة أيها الولد» للغزالي. وهي رسالة مشتملة على نصائح وتوجيهات متعلقة بالتربية والتعليم، ويؤخذ عليه فيها ـ كما ذكر المحقق ـ أنه صبغها بصبغة التصوف، لكن لا بأس بالاستفادة منها، وقد يعتذر عنه بأن التصوف في نظر الغزالي هو تطبيق الكتاب والسُّنَّة تطبيقًا تشترك فيه الجوارح الظاهرة والباطنة، ومما يؤيد ذلك أنه قد هاجم ـ أكثر من مرة ـ في هذه الرسالة شطحات الصوفية وطاماتهم وتُرهاتهم.

(٣) «مصطلح الحديث» للشيخ محمد العثيمين (ص٦٦).

السعدي ـ: «وعلى المعلم النصح للمتعلم بكل ما يقدر عليه من التعليم، والصبر على عدم إدراكه، وعلى عدم أدبه، وجفائه، مع شدة حرصه وملاحظته لكل ما يقومه ويهذبه ويحسن أدبه؛ لأن المتعلم له حق على المعلم، حيث أقبل على الاشتغال بالعلم الذي ينفعه وينفع الناس، وحيث توجه للمعلم دون غيره، وحيث كان ما يحمله من العلم عن المعلم هو عين بضاعة المعلم، فيحفظها وينميها ويتطلب بها المكاسب الرابحة، فهو الولد الحقيقي للمعلم الوارث له، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: ٥ ـ ٦]. والمراد: وراثة العلم والحكمة...»[١].

٩ ـ التلطف في التعليم والإرشاد إلى المهمات

قوله: **(وينبغي أن يكون سمحًا ببذل ما حصّله من العلم سهلًا [بإلقائه][٢] على مبتغيه، متلطفًا في إفادته طالبيه، مع رفق ونصيحة، وإرشاد إلى المهمات، وتحريض على حفظ ما يبذله لهم من الفوائد)** نبَّه المؤلفُ المعلمَ إلى أمور **ثلاثة** هي من الأهمية بمكان:

الأمر الأول: أن يبذل العلم لمن طلبه بطلاقة وجه، وانشراح صدر، مغتبطًا بنعمة الله عليه بالعلم والنور، وبتيسير من يرث علمه عنه برغبة وإقبال.

ولعل من الأمثلة الحية أن شيخنا صالح بن إبراهيم البليهي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ كان يظهر عليه ـ أثناء تدريسه لنا في المعهد العلمي ـ محبة التعليم واغتباطه وسروره بهذه المهنة الشريفة، وحرصه على نفع الطلاب وإفادتهم، فهو يرى أن اجتماع الطلاب في فصل واحد ودخول المدرس عليهم منصتين متهيئين نعمةٌ عظيمة. وقد قال لنا مرةً في غرفة التدريس

---

(١) «الفتاوى السعدية» (ص٦٢٥).

(٢) لا توجد في المطبوع، وهي موجودة في الأصل، وإثباتها أوضح، وقد يكون حذفها لقصد العموم، وذلك لتشمل السهولةُ الإلقاءَ والإجابةَ على الأسئلة، وتلبيةَ رغبة الطلبة ونحو ذلك.

ـ بعد التخرج والتدريس في المعهد ـ لما رأى تضايق بعض المدرسين من الطلاب وما يُشعر بقلة صبره: «يا إخوان، متى يحصل هذا للإنسان؟! طلاب يجتمعون من بيوت شتى في مكان واحد، بدفاترهم وأقلامهم ينتظرون ماذا تقول، ليسمعوا ويفهموا ويكتبوا، لا يدخلون إلا بإذنك، ولا يخرجون إلا بإذنك، ولا يتكلمون إلا بإذنك»[(١)].

الأمر الثاني مما ينبغي للمعلم: إرشاد الطالب إلى المهمّات؛ لأن الطالب قد لا يميّز بين المهم وغيره، فينبغي للمعلم أن ينبهه على ذلك، لأجل أن الطالب يعطي المهم حظه من التقديم والعناية والحفظ، ولا سيما في بداية الطلب.

الأمر الثالث: تحريض الطالب على حفظ الفوائد النفيسة التي هي بمثابة القواعد، وحثُّه على كتابتها؛ لأن من الفوائد ما لا يوجد في الكتب، ومنها ما قد يوجد لكن لا يُهتدى إلى مكانه، ومنها ما قد يوجد ولكن يحتاج إلى صياغة، ليكون بمثابة القاعدة.

١٠ ـ بذل أنواع العلم للطالب إذا كان أهلًا لذلك

قوله: **(ولا يدّخر عنهم من أنواع العلم شيئًا يحتاجون إليه إذا كان الطالب أهلًا لذلك)**؛ أي: ينبغي للمعلم ألا يبخل على طلابه بالفوائد العارضة الخارجة عن موضوع الدرس؛ كفائدة أصولية أو نحوية أو لغوية أو بلاغية أو غير ذلك، مع أن ذلك لا يكون إلا من مدرس قد أخذ من كل فنٍّ بطرف، وشرط ذلك: أن يكون الطالب أهلًا لهذه الفوائد والفرائد، وإلا اقتصر في تعليمه على ما يناسب مستواه وإدراكه، وفي الدراسة المنهجية يُقتصر على المنهج المقرر، ويُوضِّح ما يحتاج إلى توضيح، وما زاد على ذلك يحصل من الأجوبة على أسئلة الطلاب.

١١ ـ ألا يعطي الطالب ما لم يكن له أهلًا

قوله: **(ولا يلقي إليه شيئًا لم يتأهّل له؛ لئلا يفسد عليه حاله)**؛ أي: لا بد أن يكون المعلم على دراية بمستوى الطالب ومدى إدراكه

---

(١) مقتبس من مقال قصير عندي بعنوان: صفحات لم تنشر من سيرة شيخنا: الشيخ صالح بن إبراهيم البليهي رحمه الله.

وفهمه، وما يناسبه من العلم؛ ولذا قَسَّمَ من يُعنى بالتعليم الطلاب إلى ثلاث طبقات: مبتدئين ومتوسطين ومتمكنين، ولا يسمح للطبقة الأولى أن تجلس في درس الطبقة الثانية... وهكذا، دفعًا للتشويش[١].

وعليه؛ فلا ينبغي للمدرس أن يورد للطالب ما يقصر عنه فهمه؛ لئلا يكون سببًا في عزوفه عن العلم، كما لو ذكر للطالب المبتدئ ما هو من معلومات الطالب المتمكن، أو ذكر له شيئًا من المنطق، أو من علم الكلام، أو ذكر له في درس الفقه أو الحديث مسائل خلافية لا يحيط بها ولا يستوعبها.

تأكيد العلماء على وجوب النظر إلى ذهن الطالب وقوة استعداده أو ضعفه

وقد أكَّد الإمام الشاطبي على المعلم أن يحذر من إقحام الطالب في المباحث الجدلية والنظرية المحضة التي لا يترتب عليها فائدة لا في الدنيا ولا في الآخرة، وإنما هي شَغْلٌ للطالب عما هو أهم منها وأكثر فائدة، وهي مضيعة للجهد، ومتلفة للعمر، وهو رأس مال الإنسان، وذكر الأدلة من الكتاب والسُّنَّة التي تؤكد هذا المعنى وتقرره في الذهن أيما تقرير.

ثم انتقد الشاطبي الذي يريد إظهار علمه أمام طالب مبتدئ لا يتحمل كثيرًا مما يقال له، فتراه يتبجح بذكر المسائل العلمية لمن ليس من أهلها، أو ذكر كبار المسائل لمن لا يحتمل عقله إلا صغارها، مثل بعض مباحث أصول الفقه التي لا ينبني عليها عمل، كمسألة ابتداء اللغات، ومسألة أمر المعدوم، ومسألة هل كان النبي ﷺ متعبدًا بشرع أم لا؟[٢].

وقد تكلم الشيخ عبد القادر بن بدران عن هذه المسألة بكلام نفيس، مبينًا ما يحصل من بعض المعلمين من الإخلال بمنهج التعليم فقال: «وهذا قد وقع فيه غالب المعلمين، فتراهم يأتي إليهم الطالب

---

(١) انظر: «حلية طالب العلم» (ص١٩ ـ ٢٠).
(٢) انظر: «الموافقات» (١/ ٨٧)، (٤/ ١٨٩ ـ ١٩٠).

المبتدئ، ليتعلم النحو ـ مثلًا ـ فَيَشغَلُونَه بالكلام على البسملة، ثم على الحمدلة أيامًا بل شهورًا، ليوهموه سعة مداركهم، وغزارة علمهم.

ثم إذا قدر له الخلاص من ذلك أخذوا يلقنونه متنًا أو شرحًا بحواشيه وحواشي حواشيه، ويحشرون له خلاف العلماء، ويَشغلونه بكلامٍ: مَنْ رَدَّ على القائل، وما أُجيب به عن الرد؟! ولا يزالون يضربون له على هذا الوَتَرِ حتى يرتكز في ذهنه أن نوال هذا الفن من قبيل الصعب الذي لا يصل إليه إلا من أوتي الولاية، وحضر مجلس القرب والاختصاص...»[(١)].

وقال الشيخ عبد الرحمٰن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «على المعلم أن ينظر إلى ذهن المتعلم، وقوة استعداده أو ضعفه، فلا يدعه يشتغل بكتاب لا يناسب حاله، فإن هذا من عدم النصح، فإن القليل الذي يفهمه ويعقله خير من الكثير الذي هو عرضة لعدم الفهم، وللنسيان.

وكذلك يلقي عليه من التوضيح والتقرير لدرسه بقدر ما يتسع فهمه لإدراكه، ولا يخلط المسائل بعضها ببعض. وينبغي ألا ينتقل من نوع من أنواع المسائل إلى نوع آخر حتى يَتصور، ويُحقق السابق فإنه دَرَكٌ للسابق، وبه يتوفر الفهم على اللاحق.

فأما إذا أدخل المسائل والأنواع بعضها ببعض قبل فَهْمِ المتعلم، فإنه سبب لإضاعة الأول، وعدم فهم اللاحق، ثم تتزاحم المسائل التي لم يحققها على ذهنه فيَمَلُّهَا، ويضيق عَطَنَهُ عن العود إليها، فلا ينبغي أن يُهْمَلَ هذا الأمر»[(٢)].

مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين

وخلاصة ما تقدم: أن المدرس لا بد أن يراعي الفروق الفردية بين المتعلمين، وهي إحدى القواعد الأساسية التي تقوم عليها مسؤولية التربية والتعليم، وقد نبه إلى هذه القاعدة الإمام الشاطبي وقررها في

---

(١) «المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل» (ص٤٨٥).

(٢) «الفتاوى السعدية» (ص٦٢٤).

أكثر من موضع، وساق على ذلك أدلة كثيرة، موجهًا كلامه إلى المربين ذوي البصيرة والمسؤولين عن التعليم، مؤكدًا أنه لا ينبغي للمعلم أن يذكر للمبتدئ من العلم ما هو من حظ المنتهي؛ بل يُربى بصغار العلم قبل كباره، وقال: إنه لا يصلح للعالم في التربية العملية إلا المحافظة على هذه المعاني، وإلا لم يكن مربيًّا واحتاج هو إلى عالم يربيه[١].

توزيع الطلاب على التخصصات

وبقي جانب مهم في مراعاة الفروق الفردية بين الطلاب، وكذا الأولاد، نسبه عليه الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ (ت٧٩٠) وهو أمر يعني أولياء الطلاب، كما يعني المدرسين والمربين، ألا وهو توزيع الطلاب والناشئين على التخصصات من العلوم والأعمال المختلفة، وذلك وفق القدرات الذهنية والبدنية، والميول والرغبات، فلا يُرغم طالب على علم لم يتهيأ له، ولا يُوجه إلى عمل لا يلائم مواهبه وتطلعاته، واستعداداته الفكرية والجسمية.

فإذا أخذ الطالب القدر اللازم من العلم الضروري في دراسته الثانوية واتجه بعد ذلك إلى الجامعة فما بعدها، فإن على وليه أن ينظر إلى رغبته وميله وفق ضوابط وأسس سليمة، فالطالب الذي له ميل إلى دراسة علوم الشريعة أو علوم اللغة العربية أو التاريخ أو الطب أو الهندسة أو غير ذلك مما ظهر في هذا العصر، وصار فيه نفع للأمة الإسلامية، فإنه لا ينبغي أن يوقف في طريقه ولا أن يصرف عن وجهته إذا تحقق وليه من صحة هذا الاتجاه، وظهر له فيه نجابة ونهوض[٢]، والرغبة والميول هي التي عبَّر عنها أبو هلال العسكري بالشهوة، كما تقدم في آخر الدرس الثالث.

من صور عدم إجابة الطالب على كل سؤال

قوله: **(فلو سأله المتعلم عن ذلك لم يجبه، ويعرِّفه أن منعه ليس شحًّا؛ بل شفقة ولطفًا)**؛ أي: لو أن المتعلم سأل معلمه عن مسألة

(١) «الموافقات» (١/ ٨١).

(٢) انظر: «الموافقات» (١/ ١٧٨)، «التربية عند الإمام الشاطبي» ص(٣٩).

يغلب على ظن المعلم أن المتعلم لن يفهم جوابها، ولا يستوعبه، فإن المعلم لا يجيبه على سؤاله؛ لما تقدم، وعليه أن يبين له أن عدم إجابته ليس شحًّا عليه بالعلم؛ بل إن هذا من الشفقة عليه واللطف به؛ لأن الكلام معه في شيء لا يستوعبه ولا يفهمه ليس من مصلحته، كما مضى. ومن أمثلة ذلك: أن يسأل الطالب عن متشابهات القرآن، أو عن دقائق المسائل الخلافية الفرعية، ونحو ذلك.

١٢ ـ التواضع للطلبة واللين لهم

قوله: **(وينبغي ألا يتعظَّم على المتعلمين، بل يلين لهم، ويتواضع)**؛ أي: ينبغي للمعلم ألا يظهر الكبر والتعاظم أمام المتعلمين، فيزدري هذا، ويترفع عن هذا، ويتبختر في مشيته، ويتشدق في كلامه، فإن هذا وغيره من صور التعاظم حائل عظيم دون محبة الطلاب لمعلمهم واستفادتهم منه؛ بل عليه أن يلين لهم ويتواضع، ويكون كالواحد منهم، في حدود معينة وضوابط معتبرة؛ لئلا تضيع هيبة المدرس، وينفلت الزمام من يده، وهذا أدعى إلى المحبة والقبول والإقبال، وإذا كان الإنسان مأمورًا بالتواضع لآحاد الناس فكيف بمن يطلب العلم؟!.

تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨٨﴾

قوله: **(وفي التنزيل الحكيم: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨٨﴾ [سورة الحجر: ٨٨])**؛ أي: ألن لهم جانبك. والعرب تطلق خفض الجناح كناية عن التواضع. والتواضع من أجمل الأخلاق وأرفعها، وهو خفض الجناح وإلانة الجانب من غير مذلّة، وهو ضد الكبر. قال الحسن: «التواضع أن تخرج من منزلك، ولا تلقى مسلمًا إلا رأيت له عليك فضلًا»[١]. وفي منثور الحكم: «من دام تواضعه كثر صديقه»[٢]. وقد مضى الكلام في التواضع عند أدب المدرس في نفسه.

أمثلة من تواضع المعلم

ومن صور تواضع المعلم:

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٤٢).

(٢) «أدب الدنيا والدين» (ص٢٠٧).

١ ـ إلقاء السلام على طلابه، قبل الدرس وبعده، فهذا سبب في إشاعة المحبة بين المعلم وطلابه، وهو يشعرهم بقدرهم عنده، وبتواضع معلمهم لهم.

٢ ـ ألا يحتقر أحدًا من طلابه حتى الكسالى منهم؛ بل يشجعهم ويرفع من شأنهم، فإن هذا أنفع لهم.

٣ ـ قبول الفائدة من الطلاب، وعدم احتقارها، وإظهار الفرح بها والتشجيع عليها؛ لأن هذا مما يزيد من حَفْزِ الطلاب على التفكير، والشجاعة في إبداء الرأي، واستخراج المواهب.

٤ ـ الإصغاء للطالب عند المناقشة، فإن كان سؤالًا أجابه برفق، وإن كان إبداء فكرة أو فَهْم تلقاه بإنصاف، فإن كان صوابًا وافقه وقَبِلَهُ بارتياح، وإن كان خطأً نبهه عليه، وذلك بإعادة صياغته، أو توضيحه[1].

١٣ ـ حرص المعلم على التعليم ومواظبته على الحضور

قوله: (وينبغي أن يكون حريصًا على تعليمهم مهتمًّا به، مؤثرًا له على حوائج نفسه) هذا فيه بيان أدب من آداب التدريس ـ والمراد به التدريس في المسجد ونحوه ـ وهو الحرص على المواظبة على حضور الدرس بحيث يكون المدرس مهتمًّا بدرسه تحضيرًا وحضورًا، مؤثرًا له على حوائج نفسه، فلا يتخلف لأدنى سبب، أو يترك الدرس لأقل عارض؛ بل عليه أن يلازم الحضور ما لم يكن هناك ضرورة، وأن يتغلب على كثير مما يعرض له بترتيب وحسن تصرف، وإذا كان المدرس يؤثر حضور الدرس على حوائج نفسه، فلأن يؤثره على ما زاد على ذلك من باب أولى.

١٤ ـ الفرح بحضور الطلاب والترحيب بهم

قوله: (ويرحب بهم عند إقبالهم إليه، ويظهر لهم البِشر وطلاقة الوجه) هذا من صور تواضع المعلم للمتعلم، وهو فرحه بطلابه وترحيبه بهم، وإظهار البِشر وطلاقة الوجه عند لقائهم، أو الدخول عليهم في

(١) انظر: «العلاقة بين الطالب والمعلم» (ص٨٠)، «مع المعلمين» (ص٣٦).

قاعات الدراسة؛ لأنهم أولاده كما تقدم، وهذا خلق جميل، أثنى عليه العلماء والمربون، وإذا كان هذا مطلوبًا في آحاد الناس، فكيف بالمعلم المربي الذي هو قدوة لطلابه وغيرهم؟! قال أبو جعفر المنصور: «إن أحببت أن يكثر الثناء الجميل عليك من الناس ـ بغير نائل ـ فالْقَهُمْ ببِشر حسن»[١]، وقيل للعتابي: إنك تلقى الناس كلهم بالبِشر! قال: «دفع ضغينة بأيسر مؤونة، واكتساب إخوان بأيسر مبذول»[٢].

وقال محمد بن حازم:

وَمَا اكْتَسَبَ المَحَامِدَ طَالِبُوهَا   بِمِثْلِ البِشْرِ والوَجْهِ الطَّلِيْقِ[٣]

يقول بعض المربين ضمن وصيته للمدرس: (أقبل على طلابك كما يقبل الصباح، يحمل النشاط والحياة والنور، فيقبلوا عليك مستيقظين واعين، ويسيروا معك على الطريق شوطًا بعيدًا، دون أن يدركهم فتور، أو يغشاهم النعاس، يسألون فتجيب، وتسأل فيجيبون، وتكون من وراء ذلك حركة ذهنية دائبة، لكم فيها غُنْمٌ كبير ومنافع.

لا تُقْبِلْ عليهم كما يقبل الليل، ثقيلَ الوطأة، بطيءَ الخُطا، تمشي كأنما رجلاك شُدتا بالسلاسل، يقرءون في وجهك الخذلان والفتور والتكلف، تكلمهم بلسان عاثر، وفكر مشرّد، غير آبهٍ لما يجري من حولك، فيعقد الطلاب الندوات الصغيرة في فصلك على غير موعد، ويتخذون القرارات وأنت لا تدري، ويقع فريق منهم في نوم عميق يَحْلُمونَ فيه أنْ قد مرضت، وأخذت إجازة طويلة للأمد)[٤].

١٥ ـ الإحسان إلى الطلبة بالعلم والمال والجاه

قوله: **(ويحسن إليهم بعلمه وماله وجاهه)** ذكر المؤلف أدبًا نفيسًا من آداب المعلم، وهو الإحسان إلى الطلبة بالعلم والمال والجاه، وهذا

---

(١) «عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة» (ص١٥٤).
(٢) «بهجة المجالس» (١/ ٦٦٣).
(٣) المصدر السابق (١/ ٥٩٦).
(٤) «رسائل لم يحملها البريد» للشيخ: عبد الرؤوف اللُبدي. مجلة الجامعة الإسلامية (٥٠) (ص٣٥).

داخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقد قيد النووي ذلك في «المجموع» بقوله: (بحسب التيسير)، وزاد ابن جماعة في «تذكرته» شرطين آخرين، وهما: سلامة الدين، وعدم الضرورة، فتكون الشروط ثلاثة، كما سيأتي.

والمراد بالإحسان: بذل جميع المنافع لأي مخلوق، والمراد ـ هنا ـ: الطلاب، فكل معروف صدقة، وكل ما أدخل السرور على الخلق أو دفع عنهم ما يكرهون فهو صدقة وإحسان[(١)].

فالإحسان بالعلم: بذله لمن يطلبه من متعلم ومستفتٍ ونحو ذلك، والطلاب الملازمون لمعلمهم أولى الناس بذلك.

والإحسان بالمال: بذله للطلاب، ومساعدة العاجزين، ومواساة المحتاجين؛ ليستمروا على الطلب والتحصيل، وكذا تشجيع النابغين عن طريق المكافأة أو الجوائز التشجيعية ونحو ذلك.

قصة لأبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ في مساعدته أحد الطلبة

حكى أبو بكر الخطيب البغدادي في «تاريخه»: أن أبا يوسف ـ صاحب أبي حنيفة رحمهما الله ـ قال: كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مُقِلٌّ رَثُّ الحال، فجاءني أبي يومًا وأنا عند أبي حنيفة فانصرفت معه. فقال: يا بني، لا تَمُدَّ رجلك مع أبي حنيفة، فإن أبا حنيفة خبزه مشوي، وأنت تحتاج إلى المعاش، فَقَصَرْتُ عن كثير من الطلب، وآثرت طاعة أبي، فتفقدني أبو حنيفة وسأل عني، فجعلت أتعاهد مجلسه، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخري. قال لي: ما شغلك عنا؟ قلت: الشغل بالمعاش، وطاعة والدي. فلما انصرف الناس دفع إلي صُرَّة، وقال: استمتع بها. فنظرت فإذا فيها مائة دينار. وقال لي: الزم الحلقة، وإذا فرغت هذه فأعلمني. فلزمت الحلقة، فلما مضت مدة يسيرة دفع إليَّ مائة أخرى[(٢)].

(١) انظر: «بهجة قلوب الأبرار» (ص١٥٧).
(٢) «تاريخ بغداد» (١٤/ ٢٤٤)، «وفيات الأعيان» (٤/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠) وقيل: إن أمه =

وأما الإحسان بالجاه فهو شفاعة المعلم وسعيه لطلابه في قضاء حاجة، وتفريج كربة، وعلاج مريض، وقضاء دين، وجَرِّ منفعة إلى مُستحِقٍّ ليس في جرها إليه ضرر ولا ضرار. قال تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ [النساء: ٨٥]. قال ابن القيم وهو يتحدث عن مراتب الجود: «الجود بالنفع والجاه، كالشفاعة والمشي مع الرجل إلى ذي سلطان ونحوه، وذلك زكاة الجاه المُطَالَبُ بها العبد، كما أن التعليم وبذل العلم زكاته»[١].

شروط الإحسان إلى الطالب بالمال والجاه

والإحسان بهذه الأمور الثلاثة ـ ولا سيما المال والجاه ـ مشروط **بثلاثة شروط**:

الأول: أن يكون المعلم قادرًا على ذلك؛ لأن القدرة هي مناط التكاليف الشرعية.

الثاني: سلامة دينه، بحيث يأمن من وقوع خلل في دينه إذا قدم مساعدة لأحد الطلاب؛ لأن من الناس من يسعى لتقديم المساعدات للخلق وتكون نيته صالحة ابتداءً، ثم تتحول هذه النية إلى مسلك آخر، لسبب من الأسباب، ويكون عليه بهذا المسلك تبعة.

الثالث: عدم وجود ضرورة لمن أحسن إليهم، فإنه ربما حملته الحاجة أو الضرورة على الإحسان إليهم، وهو في ذلك عليه مدخل في دينه[٢].

١٦ ـ مخاطبة الطالب الفاضل بالكنية لا بالاسم

قوله: (ولا يخاطب الفاضل منهم باسمه؛ بل بكنيته) هذا قيد لا بد منه، وهو أن المعلم لا يخاطب الطالب الفاضل المتميّز الذي طالت

= هي التي أنكرت عليه حضور حلقة أبي حنيفة، لأن أباه مات وخلفه طفلًا صغيرًا. انظر: القصة في ذلك في «تاريخ بغداد».

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٩٥).

(٢) انظر: «شرح تذكرة السامع والمتكلم» للشيخ صالح العصيمي (ص١٤٤).

صحبته، وثبتت مودّته، وعُرف تقدّمه في العلم إلا بالكنية، وقد كنّى النبي ﷺ جماعة من الصحابة كأبي بكر وأبي حفص وعمر وأبي هريرة وأبي ذر وغيرهم رضي الله عنهم. وكان الإمام أحمد لا ينادي علي بن المديني إلا بكنيته ـ أبي الحسن ـ تبجيلًا له[١]. وقال العباس الدوري: «قلَّما سمعت أحمد بن حنبل يسمي يحيى بن معين باسمه، إنما كان يقول: قال أبو زكريا، قال أبو زكريا»[٢]، والعرب جعلت الكنية إكرامًا للشخص، فلا ينبغي أن تقال إلا لأهلها، وقد ذكر العلماء أن من مقاصد الكنية: التفخيم والتعظيم، وهي من مآثر العرب، لم تكن معروفة عند غيرهم[٣].

هذا، وينبغي للمدرس التعرف على طلابه، ومعرفة أسمائهم، والسؤال عن أحوالهم وأحوال من يتعلق بهم؛ لأن هذا مما يبعث على محبة الطلاب لمدرسهم، ويشعرهم بقدرهم ومكانتهم عنده، كما أن له أثرًا بينًا على الطالب نفسه، وقد لمسنا شيئًا من سرور الطلاب ومدى سعادتهم بسبب أن المدرس سأل طالبًا عن اسمه، وبقي محفوظًا في ذاكرته، وله أثر واضح وملموس في محبة الطلاب لمدرسهم. وشدة رغبتهم فيه وحرصهم على درسه، ومتابعة تدريسهم في مستويات قادمة. ومن سلك هذا المنهج في تدريسه رأى آثاره[٤].

١٧ ـ تفقد الطلاب والسؤال عمن غاب منهم

قوله: (**وينبغي أن يتفقدهم، ويسأل عمن غاب منهم**) هذا ـ أيضًا ـ من آداب المعلم، وهو دليل على تواضعه مع طلابه، فينبغي له أن يتفقد طلابه، ويكون عند دراية وإحساس بمن غاب أو حضر، فمن غاب منهم سأل عنه، فإن كان مريضًا عاده، أو مسافرًا تفقّد أهله، وسأل عنهم وتعرَّف لحوائجهم.

---

(١) «تذكرة الحفاظ» (٢/ ٤٢٨).
(٢) «الجامع» للخطيب (٢/ ٧٢).
(٣) انظر: «ربيع الأبرار» (٢/ ٣٨٣)، «الكامل» للمبرد (٢/ ٨٥٨)، «تحفة المودود بأحكام المولود» (ص١٩٤).
(٤) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٨٠، ٨٤).

والمراد بالغياب: الغياب الزائد عن العادة كما ذكر ابن جماعة[١]، ويتأكد هذا في حق الطالب المواظب على الدرس، أو الذي طالت صحبته للمعلم حتى صار من خواصِّه. والله أعلم.

۞ ۞ ۞

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٨١).

الدرس السابع

من آداب المدرس في تعليمه (٣)

❁ وينبغي أن يكون باذلًا وسعه في تفهيمهم، وتقريب الفائدة إلى أذهانهم، حريصًا على هدايتهم.

❁ ويُفْهِمُ كل واحد بحسب فهمه وحفظه، فلا يعطيه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عما يحتمله بلا مشقة، ويخاطب كل واحد على قدر درجته وبحسب فهمه وهمَّته، فيكتفي بالإشارة لمن يفهمها فهمًا مُحققًا، ويوضح العبارة لغيره، ويُكررها لمن لا يحفظها إلَّا بتكرار.

❁ ويذكر الأحكام موضحة بالأمثلة من غير دليل لمن ينحفظ له الدليل، فإن جهل دليل بعضها ذكره له، ويذكر الدلائل لمحتملها.

❁ ويذكر ما يَرِدُ على المسألة وجوابه إن أمكنه.

❁ ويُبين الدليل الضعيف؛ لئلا يغتر به، فيقول: استدلوا بكذا وهو ضعيف لكذا.

❁ ويبيِّن الدليل المُعْتَمَدَ؛ لِيُعْتَمَدَ.

❁ وينبههم: على غَلَطِ من غَلِطَ فيها من المصنفين، فيقول مثلًا: هذا هو الصواب، وأما ما ذكره فلانٌ فغلط أو فضعيف؛ قاصدًا النصيحة؛ لئلا يغتر به، لا لتنقُّص القائل، فإن الانتقاد إنما يكون للقول، لا لقائله.

❊ ويبين له جُمَلًا من أسماء المشهورين من الصحابة ﭬ، فمن بعدهم من الأئمة المشاهير وأنسابهم، وكُناهم، وأعصارهم، وطرف حكايتهم، ونوادرهم، وضبط المُشْكل من أَنسابهم وصفاتهم، وتمييز المشتبه من ذلك، وجُمَلًا من الألفاظ اللغوية والعرفية ضبطًا لمشكلها وخفيِّ معانيها، فيقول: هي مفتوحة أو مضمومة أو مكسورة، مخفَّفة أو مشدَّدة، مهموزة أو لا، عربية أو أعجمية أو مُعَرَّبة ـ وهي التي أصلها عَجَمي، وتكلمت بها العرب ـ، مصروفة أو غيرها، مشتقة أو لا، مشتركة أم لا، مترادفة أم لا، وأنّ المهموز والمشدَّد يخففان أم لا، وأنّ فيها لُغةً أخرى أم لا.

❊ وإذا وقعت مسألة غريبة لطيفة، أو مما يُسأل عنها في المُعاياة نبَّهه عليها وعَرَّفَه حالها في كل ذلك.

❊ ويكون تعليمه إياهم كل ذلك تدريجيًّا؛ ليجتمع لهم مع طول الزمان جُمل كثيرات.

۞ الشرح ۞

من آداب المعلم في تعليمه
١٨ ـ الحرص على تفهيم الطلبة

قوله: (وينبغي أن يكون باذلًا وُسْعَه في تفهيمهم، وتقريب الفائدة إلى أذهانهم، حريصًا على هدايتهم) هذا شروع من المؤلف في بيان طريقة التدريس، وإيصال المعلومات إلى الطلاب، وذلك لأن العلم عبادة ـ كما تقدم ـ، فكما يجتهد المرء في إتقان عبادته التي يتقرّب بها إلى مولاه، كذلك يجتهد في درسه، ويسلك أقرب الطرق وأوضحها لتوصيل المعلومات إلى الطلاب.

وينبغي للمعلم سلوك الطريق النافع عند البحث تعلمًا وتعليمًا، فإذا شرع المعلّم في مسألة وضّحها، وأوصلها إلى أفهام المتعلمين بكل ما يقدر عليه من التعبير، وضرب الأمثال، والتصوير والتحرير.

ثم لا ينتقل منها إلى غيرها قبل تفهيمها للمتعلمين، ولا يدع المتعلمين يخرجون من الموضوع الذي لم يتم تعليمه وتقريره إلى موضوع آخر حتى يُحكموه ويفهموه، فإن الخروج من الموضوع إلى غيره قبل الانتهاء منه يؤدي إلى تشويش الذهن، واختلاط المعلومات، ويحرم الطالب من الفائدة[١] ـ كما تقدم ـ.

تفهيم كل طالب حسب فهمه

قوله: **(ويُفهم كلَّ واحد بحسب فهمه وحفظه)** هذا بيان من المؤلف في طريقة التدريس في الدروس الفردية، أو في حالة قراءة عدد من الطلاب على الشيخ، كل يقرأ في كتاب من فنٍّ معين، وهي أن على المدرس أن ينظر إلى الفروق بين الطلاب، وذلك بمعرفة قدراتهم، واستعدادهم لفهم ما يلقى إليهم، فيعطي كل طالب ما يليق بفهمه وإدراكه وحفظه؛ لأن للطلاب قدراتٍ متفاوتةً، حرصًا وذكاءً، واستعدادًا وتحصيلًا.

قوله: **(فلا يعطيه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عما يحتمله بلا مشقة)**؛ أي: على المدرس أن ينظر إلى قدرة الطالب على الاستيعاب، فلا يكثر على طالب لا يحتمل الإكثار، ولا يقصر على طالب يحتمل الزيادة بلا مشقة تلحقه؛ لما تقدم. ومن مليح كلامهم: «لا تعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم»[٢].

مخاطبة كل طالب على قدر درجته من الذكاء وضده

قوله: **(ويخاطب كل واحد على قدر درجته وبحسب فهمه وهمّته، فيكتفي بالإشارة لمن يفهمها فهمًا محقّقًا)**؛ أي: إذا كان الطالب متقد الذهن ـ وهو من يقبل ما يلقى إليه ويفهمه سريعًا ـ فإن معلمه يكتفي له بالإشارة، ولا حاجة إلى الإطالة والتكرار، فإن التكرار بدون داعٍ له يورث الملالة، ويولد السآمة، ويضيع الوقت.

---

(١) انظر: «الفتاوى السعدية» (ص٦٣٠).
(٢) «التربية عند الإمام الشاطبي» (ص٣٣)، وانظر: «مصنف عبد الرزاق» (١١/ ٢٥٧)، «المدخل» للبيهقي (٦١٥).

قوله: **(ويوضح العبارة لغيره، ويكررها لمن لا يحفظها إلا بتكرار)**؛ أي: إن كان الطالب متوقف الذهن ـ وهو بطيء الفهم الذي يحتاج إلى الإعادة مرة بعد أخرى[(١)] ـ فهذا لا بد له من توضيح العبارة واختيار الأسلوب السهل، مع الإعادة والتكرار، محتسبًا المدرس في ذلك الأجر من الله تعالى.

ومن طريف ما يذكر أن رجلًا جاء إلى ابن شُبْرُمَةَ، فسأله عن مسألة ففسرها له، فقال: لم أفهم، فأعاد، فقال: لم أفهم، فقال له: «إن كنت لم تفهم لأنك لم تفهم، فستفهم بالإعادة، وإن كنت لم تفهم لأنك لا تفهم، فهذاء داء لا دواء له»[(٢)].

طريقة تدريس الفقه والحديث ونحوهما

قوله: **(ويذكر الأحكام موضَّحةً بالأمثلة من غير دليل لمن [لا][(٣)] ينحفظ له الدليل، فإن جهل دليل بعضها ذكره له، ويذكر الدلائل لِمُحْتَمِلِهَا)** هذا يتعلق بتدريس الفقه أو الحديث ونحوهما مما قد يعرض فيه الاستدلال بدليل من الكتاب أو السُّنَّة أو الإجماع أو القياس.

فإذا كان الطالب مبتدئًا لا يناسبه ذكر الدليل ولا وجه الاستدلال، فإن معلمه يذكر الحكم الشرعي موضحًا بالأمثلة من غير دليل. وإن كان الطالب يحتمل ذكر الدليل ويقبله ويفهمه، فإن معلمه يذكر له الدليل، ويبين له وجه الاستدلال[(٤)].

قوله: **(ويذكر ما يرد على المسألة وجوابه إن أمكنه)**؛ أي: إن المعلم يبادر بذكر ما قد يرد على المسألة التي يذكرها أثناء الشرح من إشكال، ولا يترك الطالب مترددًا متحيرًا، وعليه أن يجيب عن هذا الإشكال إن أمكنه ذلك؛ لتتم الفائدة.

---

(١) انظر: «شرح تذكرة السامع والمتكلم» للشيخ صالح العصيمي (ص١١٨).
(٢) «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٨٩).
(٣) لا توجد في المطبوع، وهي موجودة في الأصل، بل في نسخة القاسمي.
(٤) انظر: «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٧٥).

ومما يدخل في ذلك تنبيه المدرس طلابه مما قد يوجد في بعض المناهج الدراسية من معلومات أو نظريات تتعارض مع أسس العقيدة أو نصوص الوحي؛ إذ لا بد من بيان الحق، وتجلية الصواب، وغرس المعتقد الصحيح في نفوس الناشئة ورجال المستقبل.

وجوب بيان الدليل الضعيف، وسبب ضعفه

قوله: (ويبين الدليل الضعيف؛ لئلا يُغْترَّ به، فيقول: استدلوا بكذا، وهو ضعيف؛ لكذا)؛ أي: إن الواجب على المدرس إذا كان في درسه شيء من الأدلة الشرعية كالحديث ـ مثلًا ـ، فإنه لا يسكت عن بيان ضعفه إذا كان ضعيفًا؛ لئلا يُغتر به، ويُظن ثبوته؛ بل لا بد من بيان ضعفه، وسبب هذا الضعف، وذلك بدراسة رجال الإسناد، وإعطاء حكم على الحديث.

وقد نص العلماء على أنه لا يجوز إيراد الأحاديث الضعيفة إلا مع بيان ضعفها، واشتد نكيرهم على من ذكر حديثًا ضعيفًا دون أن يشير إلى ضعفه. قال أبو الحسن بن القطان: «إن القذف بالأحاديث الضعيفة دون أسانيدها لا يجوز عمله»[(١)]. وقال الزركشي: «لا يجوز رواية الضعيف إلا مع تبيينه». وقال: «ويلتحق بتبيين الضعف أن يذكر الإسناد، ولهذا اكتفى أحمد في «مسنده» والطبراني في «معجمه» والدارقطني وغيرهم بذلك في رواية كثير من الأحاديث من غير بيان ضعفها، لظهور أمر حالها بالإسناد عند من له أدنى بصيرة بهذا الشأن»[(٢)].

وجوب بيان الدليل الصحيح؛ ليعتمد

قوله: (ويبين الدليل المعتمد؛ ليعتمد)؛ أي: يبين المدرس للطلبة الدليل الصحيح الذي يعتمد عليه في إثبات حكم شرعي؛ لأجل أن يعتمد في الاستدلال، ويؤخذ به.

والذي يفهم من كلام المصنّف وغيره أن طلاب العلم على **ثلاث مراتب**:

---

(١) «بيان الوهم والإيهام» (٤/ ١٢).

(٢) «النكت على كتاب ابن الصلاح» (٢/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤).

الأولى: مرتبة الطالب المبتدئ: وهذا هو الذي يتصوّر المسألة؛ أي: يعرفها ويفهمها.

الثانية: مرتبة الطالب المتوسط: وهو الذي يتصوّر المسألة، ويعرف دليلها.

الثالثة: مرتبة الطالب المنتهي، وهو الذي يتصوّر المسألة، ويعرف دليلها، ويمكنه الرد والمناقشة في مجال الخلاف، وعرض الأدلة[١].

موقف المدرس من غَلَطِ من سَبَقَهُ

قوله: **(وينبههم: على غَلَطِ من غَلِطَ فيها من المصنفين)** هذا أدب مهم جدًّا، وهو موقف العالم والمدرس من غلط من سبقه من أهل العلم في مسألة من المسائل، فالتنبيه على الغلط، وبيان الصواب جادة مسلوكة عند العلماء، والكتب المصنفة في أنواع العلوم ووسائلها من التفسير والعقيدة وشروح الحديث والفقه والنحو وغيرها ممتلئة برد أقوال من تُضعَّف أقواله من أئمة السلف والخلف، ولم يترك ذلك أحد من أهل العلم، ولا رأوا أن ذلك طعن على من رُدَّ عليه قوله ولا ذمًّا ولا نقصًا؛ لأنهم مجمعون على قصد إظهار الحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ، وأن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا[٢].

صفة التنبيه على غلط من سبقه

قوله: **(فيقول مثلًا: هذا هو الصواب، وأما ما ذكره فلانٌ فغلطٌ، أو ضعيف)** هذا في بيان صفة التنبيه على وَهَمِ عالم من العلماء في حكم أو نقل أو تخريج أو غير ذلك، فإن الشأن كلَ الشأن في طريقة التنبيه، وبيان الصواب، والذي ينبغي في بيان خطأ العلماء التماس عبارة لطيفة تنبئ عن الأدب واحترام العلم وأهله، بعيدة عن التّنقّص والازدراء والتجريح الذي قد يوجد عند بعض أبناء هذا الزمان. فإن العالم ـ كغيره من البشر ـ عرضةٌ للسهو والوهم والنسيان، فإذا زلَّ في مسألة أو غلط في حكم، فالواجب معرفة قدره، والنظر إلى مكانته، والتنبيه على خطئه بكل أدب

(١) «شرح تذكرة السامع والمتكلم» للشيخ صالح العصيمي (ص١١٩).
(٢) «الفرق بين النصيحة والتعيير» للحافظ ابن رجب (ص٣١).

واحترام، كأن يقول مثلًا: هذا هو الأظهر، أو الأقرب، ولعل ما ذكره فلان محل نظر، أو غلط أو ضعيف أو مرجوح، ونحو ذلك من العبارات المناسبة للمقام والسياق، وكلما كانت العبارة ألطف فهي أليق وأنسب.

بيان القصد من التنبيه على غلط من سبقه

قوله: **(قاصدًا النصيحة؛ لئلا يُغْتَرَّ به، لا لتنقّص القائل، فإن الانتقاد إنما يكون للقول لا لقائله)** هذا هو الواجب في بيان أوهام العلماء، وهو أن يكون قصده ببيان الخطأ بيانَ الصواب وتصحيحَ المسألة، وليس التنقص والحط من منزلة العالم، فإن المنصف يكاد يجزم بأنه ما من إمام إلا وله أغلاط وأوهام، ولا سيما المكثرون منهم[(١)].

نماذج من كلام العلماء في الاعتذار عن الأئمة

وقد تتابعت كلمة العلماء في الاعتذار عن الأئمة فيما بدر منهم، وأن ما يبدو من العالم من هِنَاتٍ لا تكون مانعة للاستفادة من علمه وفضله[(٢)].

قال أبو أحمد العسكري: «ولا يضعُ من العالم الذي برع في علمه زلةٌ، إن كانت على سبيل السهو والإغفال، فإنه لم يَعْرُ من الخطأ إلا من عصم الله جل ذكره. وقد قالت الحكماء: «الفاضل من عُدَّتْ سقطاته» وليتنا أدْرَكنا بعض صوابهم، أو كنا ممن يميز خطأهم»[(٣)].

وقال الذهبي في ترجمة كبير المفسرين قتادة رَحِمَهُ اللهُ بعد أن اعتذر عنه: «ثم إن الكبير من أئمة العلم إذا كثر صوابه، وعُلم تحريه للحق، واتسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعرف صلاحه وورعه واتباعه، يُغفر له زلله، ولا نضلله ونطرحه وننسى محاسنه، نعم: ولا نقتدي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك»[(٤)].

---

(١) انظر: «حلية طالب العلم» (ص٥٨).
(٢) انظر: «التعالم وأثره على الفكر والكتاب» (ص٨٤).
(٣) «شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف» (ص٦).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٧١).

كلمة نفيسة للحافظ ابن رجب في هذا الموضوع

وقال الحافظ ابن رجب: «وأما المُبَيِّنُ لخطأ من أخطأ من العلماء قبله، إذا تأدب في الخطاب، وأحسن الرد والجواب فلا حرج عليه، ولا لوم يتوجه عليه، وإن صدر منه من الاغترار بمقالته فلا حرج عليه... هذا كله حكم الظاهر. وأما في باطن الأمر: فإن كان مقصوده في ذلك مجرد تبيين الحق، وألا يغترَّ الناس بمقالات من أخطأ في مقالاته، فلا ريب أنه مثاب على قصده، ودخل بفعله هذا بهذه النية في النصح لله ورسوله ﷺ وأئمة المسلمين وعامتهم... وأما إن كان مراد الرادِّ بذلك إظهارَ عيب من رَدَّ عليه وتنقصه، وتبيين جهله وقصوره في العلم ونحو ذلك كان محرمًا... وهذا كله في حق العلماء المقتدى بهم في الدين، فأما أهل البدع والضلالة ومن تشبه بالعلماء وليس منهم، فيجوز بيان جهلهم، وإظهار عيوبهم تحذيرًا من الاقتداء بهم...»[(١)].

التحذير من التساهل في تخطئة العلماء

هذا، ومما ينبغي أن يُعلم أن تخطئة العلماء ليست بالأمر الهين، والواجب على المسلم عمومًا وعلى الطالب خصوصًا أن يحفظ لسانه عما لا ينبغي، وألا يتكلم إلا عن علم وبصيرة، ومن الناس من تأخذه العجلة فيبادر إلى التخطئة والتصويب دون تثبت أو تمحيص، أو تأملٍ في منهج هذا العالم، بحيث يسمع منه شيئًا محتملًا أو مجملًا وهو يجهل الأشياء المبينة لتلك المجملات المحتملات أو لا يرجع إلى العالم فيها، ثم تكون النهاية أن الحكم بالخطأ غير صحيح[(٢)].

١٩ ـ أن يبين للطلبة جملًا من أسماء الصحابة رضي الله عنهم والمشاهير مع وفياتهم وأحوالهم

قوله: **(ويبيّن له جملًا من أسماء المشهورين من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، فمن بعدهم من الأئمة والمشاهير وأنسابهم، وكُناهم، وأعصارهم، وطرف حكاياتهم، ونوادرهم، وضبط المُشْكِل من أنسابهم وصفاتهم، وتمييز المشتبه من ذلك)**؛ أي: وينبغي للمدرس أن يبين

(١) «الفرق بين النصيحة والتعيير» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (٢/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧) بتصرف.
(٢) انظر: «قواعد في التعامل مع العلماء» (ص١٠٧).

للطالب ما ذكر من أسماء المشهورين من الصحابة ﵃ ومن بعدهم من أئمة العلم والهدى إذا مر شيء من ذلك أثناء الدرس، أو كان ذلك في دروس تخص ما ذكر، وعليه أن يُعنى بما يتعلق بضبط أسمائهم وتمييز المشتبه منها، ويذكر طرفًا من محاسن آدابهم ونوادر أحوالهم، فيحصل للطالب مع طول الزمن ـ إذا حرص على تدوين ذلك ـ فوائد كثيرة النفع، ونفائس غزيرة الجمع، يراها في نهاية المطاف حصيلة علمية، يرجع إليها أحوج ما يكون إليها.

٢٠ ـ أن يبين للطلبة جملًا من الألفاظ اللغوية والعرفية وما يتعلق بضبطها

قوله: **(وجُمَلًا من الألفاظ اللغوية والعرفية ضبطًا لمشكلها وخفيِّ معانيها)**؛ أي: وينبغي للمدرس أن يذكر لطلابه جملًا من الألفاظ المستعملة لغةً، والألفاظ المستعملة في عرف الناس؛ ليعرف الطلبة الفرق بينها وما يترتب على ذلك، وهو في ذلك يعنى بضبط مشكلها وما يخفى من معانيها؛ لئلا يحصل تصحيف في الألفاظ، وقد قيل: إنما يُشْكَلُ ما يُشْكِلُ[1] ومن ذلك أن الصواب: شَغَلْتُه بكذا لا أشغلْتُه، وتقول: شغلني فلان، لا أشغلني، وبعضهم قال: لغة رديئة، ويُحكى عن الصاحب بن عبّاد أنه وقف له كاتب وقال: إن رأى مولانا إشغالي في شيء أرتزق به، فقال: من يقول: إشغالي لا يصلح لأشغالي[2]. يريد منه أن يقول: إن رأى مولانا شَغْلي بكذا.

أمثلة لما تقدم

قوله: **(فيقول: هي مفتوحة أو مضمومة أو مكسورة، مخفَّفةٌ أو مشدَّدةٌ، مهموزةٌ أو لا، عربيةٌ أو أعجميةٌ أو معرَّبةٌ ـ وهي التي أصلها عَجَمي، وتكلمت بها العرب ـ، مصروفةٌ أو غيرُها، مشتقةٌ أو لا، مشتركة أم لا، مترادفة أم لا، وأن المهموز والمشدَّد يخففان أم لا، وأن فيها لغةً أخرى أم لا)** هذه نماذج لما ينبغي أن يُعنى به المدرس حال درسه، وهو العناية بضبط الألفاظ، وما يعرض لها من الأوجه الجائزة والتصاريف

---

(١) «تلخيص المتشابه» للخطيب (١/ ٣).
(٢) «تصحيح التصحيف» للصفدي (ص١١٠).

العارضة مثل: ما يتعلق بكونها عربية أو مصروفة أو ضد ذلك، وهل هي من قبيل المشترك ـ الذي هو اللفظ المستعمل في معنيين أو أكثر بأوضاع متعددة كالقرء، والمولى للسيِّد والعبد ـ أو المترادف ـ الذي هو اتحاد كلمتين أو أكثر في المعنى لا في اللفظ ـ كتفسير أولي الأحلام بالعقلاء في قوله ﷺ: «**ليليني منكم أولو الأحلام والنهى**»[1]؟ فإن فسر بالبالغين لم يكن من المترادف؛ فإذا تم ذلك من المدرس حصل للطالب مع الطُّول فوائد كثيرة النّفع، ونفائس غزيرة الجمع[2].

موقف المدرس من المسائل الغريبة

قوله: (وإذا وقعت مسألة غريبة لطيفة أو مما يُسأل عنها في المُعَاياة نبَّهه عليها وعَرَّفَه حالها في كل ذلك) المعاياة: أن يؤتي بكلام لا يهتدى له ابتداءً، كالتعمية، والألغاز: جمع لُغْزٍ. يقال: عاياه معاياة: إذا ألقى إليه بكلام لا يهتدي إليه، والأُعْيية بوزن الأضحية: ما عاييت به صاحبك، كالأُحجية[3].

وقد دخلت المعاياة وكذا الألغاز كثيرًا من الفنون العلمية، كالفقه والفرائض والنحو والبلاغة وغيرها؛ لشحذ الذهن وصقله، وتعويد المخاطب على التفكير في المسائل العلمية، لقيامها على الإخفاء وستر المراد، وفيها ترفيه عن النفس، ودفع السآمة والملل عنها[4]، ولعل هذا غرض المصنف من ذكرها هنا.

ومن الألغاز الفقهية: ما وُضُوءٌ لا ينقضه بول ولا غائط؟ وجوابه: وضوء الجنب الذي يريد النوم، فلا يُنقض إلا بالجماع.

ومنها: هل يصح الإحرام بالحج مرتين في عام واحد؟ والجواب: يصح هذا في رجل أحرم بالحج ثم أُحصر، فتحلل بعمرة لما غلب على

(١) رواه مسلم (٤٣٢).
(٢) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٧٤).
(٣) انظر: «القاموس مع التاج» (٣٩/ ١٣٦ ـ ١٣٧).
(٤) انظر: «مفتاح السعادة ومصباح السيادة» (١/ ٢٤٩)، مقدمة «درة الغواص في محاضرة الخواص» (ص٢٨).

ظنه أن الإحصار لا يزول، ثم زال والوقت باقٍ، فأحرم بالحج ثانيًا[١].

قوله: (ويكون تعليمه إياهم كل ذلك تدريجيًّا؛ ليجتمع لهم مع طول الزمان جُمل كثيرات)؛ أي: وينبغي أن يكون تعليمه للطلاب ما ذكر من علوم التاريخ والسير واللغة وغيرها بالتدريج؛ لأجل أن يستوعبها الطلاب، ويجتمع لهم مع طول الزمن جمل كثيرة، وفوائد منوعة. ولا بد أن يُوصَى الطالب بالحرص على اقتناص الفوائد وكتابة الفرائد والعناية بالشوارد، وألا يحتقر أي فائدة يراها، أو يسمعها.

وقد قال محمد بن إبراهيم بن محمد بن النحاس الحلبي شيخ العربية في الديار المصرية (ت٦٩٨هـ):

الـيَـوْمَ شَـيءٌ وغَـدًا مِـثْـلُـهُ ... مِن نُخَبِ العِلْمِ الَّتِي تُلْتَقطْ
يُـحَـصِّـلُ الـمَـرْءُ بِـهَـا حِـكْـمَـةً ... وإِنَّمَا السَّيْلُ اجْتِمَاعُ النُّقَطْ[٢]

والله أعلم.



(١) انظر: «درة الغواص» (ص٨٠، ١٧٤).
(٢) «بغية الوعاة» (١/ ١٤).

الدرس الثامن

من آداب المدرس في تعليمه (٤)

* وينبغي أن يحرضهم على الاشتغال في كل وقت، ويطالبهم في أوقات محفوظاتهم، ويسألهم عما ذكره لهم من المهمات، فمن وجده حافظًا مُراعيًا له أكرمه وأثنى عليه وأشاع ذلك، ومن وجده مقصِّرًا لامه، ويُعِيده له حتى يحفظه حفظًا واضحًا.

* وينبغي أن ينصفهم في البحث، فيعترف بفائدة يقولها بعضهم وإن كان صغيرًا.

* وينبغي أن يقدّم في تعليمهم إذا ازدحموا: الأسبق فالأسبق، ويتحرى تفهيمهم بأيسر الطرق، ويذكره مترسلًا مبينًا واضحًا، ويكرر ما يشكل من معانيه وألفاظه حتى يفهموه، وإذا لم يكمل البيان إلَّا بالتصريح بعبارة يُستحى في العادة من ذكرها؛ فليذكرها بصريح اسمها، ولا يمنعه الحياء ومراعاة الأدب من ذلك؛ فإن إيضاحها أَهم من ذلك، وإنما يستحب الكناية في مثل هذا إذا علموا المقصود منها علمًا جليًّا، وعلى هذا التفصيل يُحمل ما ورد في الأحاديث من التصريح في وقت والكناية في وقت.

* ويؤخر ما ينبغي تأخيره، ويقدم ما ينبغي تقديمه، ويقف في موضع الوقف، ويصل في موضع الوصل.

* ويحسن خلقه مع جلسائه، ويُوقِّرُ فاضلهم بعلم أو سن أو شرف أو صلاح، ويتلطف بالباقين.

❊ وينبغي أن يصون يديه عن العبث، وعينيه عن تفريق النظر بلا حاجة، ويعم الحاضرين بالتفاته، ويجلس في موضع يبرز وجهه لهم.

❊ ويقدم مِنْ دروسه أهمها؛ فيقدِّم التفسير، ثُمَّ الحديث، ثُمَّ الأصولين، ثُمَّ الأهم فالأهم.

❊ ولا يقرأ الدرس وبه ما يزعجه؛ كمرض أو جوع أو مدافعة الحدث، أو شدة فرح أو غمٍّ.

❊ ولا يطيل مجلسه إطالة تملهم أو تمنعهم فهم الدرس أو ضبطه.

❊ وليكن مجلسه واسعًا.

❊ ولا يرفع صوته زيادةً على الحاجة، ولا يخفضه خفضًا يمنع بعضهم كمال فهمه.

❊ ويصون مجلسه من اللَّغط، والحاضرين عن سوء الأدب في المُباحثة، وإذا ظهر من أحدهم شيءٌ من مبادئ ذلك تلطف في دفعه قبل انتشاره.

❊ ويذكرهم أن اجتماعنا ينبغي أن يكون لله تعالى، فلا يليق بنا المنافسة والمشاحنة؛ بل سبيلنا الرِّفق والحياء واستفادة بعضنا من بعض، واجتماع قلوبنا على ظهور الحق وحصول الفائدة.

❊ وإذا سأل سائل عن أُعجوبة فلا يسخرون منه.

الشرح

من آداب المدرس في تعليمه: ٢١ ـ حثُّ الطلبة على الاستفادة من الوقت

قوله: (وينبغي أن يحرضهم عَلَى الاشتغال في كل وقت)؛ أي: ينبغي للمدرس أن يحضَّ طلابه ويحرضهم على الاستفادة من الوقت وساعات العمر، وذلك بالاشتغال في العلم في أكثر الأوقات، قراءة، ومطالعة، وحفظًا، وإذا ملَّ من علم اشتغل بآخر، وهذا لا يتم إلا

بإدراك قيمة الوقت، والحرص على التفرغ عن الشواغل، ولا سيما في زمن الشباب، ومقتبل العمر، ومعدن العافية، فهي فرصة غالية لنيل رتب العلم العالية؛ لأنها «وقت جمع القلب، واجتماع الفكرة»[(١)]، وما أحسن قول القائل:

مَا لِلْمُعِيْلِ ولِلْمَعَالِي إِنَّمَا ... يَسْعَى إِلَيْهِنَّ الوَحِيْدُ الفَارِدُ
فَالشَّمْسُ تَجْتَابُ السَّمَاءَ وَحِيْدَةً ... وأَبُو بَنَاتِ النَّعْشِ فِيْهَا رَاكِدُ[(٢)]

قال محمد بن الحسن الشيباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن صناعتنا هذه من المهد إلى اللحد، فمن أراد أن يترك علمنا هذا ساعةً، فليتركه الساعةَ»[(٣)].

وقال الشاعر:

بِقَدْرِ الكَدِّ تُعْطَى مَا تَرُوْمُ ... فَمَنْ رَامَ المُنَى لَيْلًا يَقُومُ
وأَيَّامَ الحَدَاثَةِ فَاغْتَنِمْهَا ... أَلَا إِنَّ الحَدَاثَةَ لَا تَدُومُ[(٤)]

٢٢ ـ مطالبة الطلبة بإعادة المحفوظات، وسؤالهم عن المهمات

قوله: **(ويطالبهم في أوقاتٍ [بإعادة][(٥)] محفوظاتهم، ويسألهم عما ذكره لهم من المهمات)** هذا فيه الحث على المراجعة وتعاهد الطلاب، ومناقشتهم، وهذا يحتاج من المدرس إلى صبر واحتساب، وقد ذكر المؤلف أمرين من الأهمية بمكان، وهما من الأمور المهملة في التعليم:

الأول: أن يطالبهم في بعض الأوقات بإعادة محفوظاتهم، على صفة اختبار ومراجعة؛ لأن إعادة المحفوظات وتعاهدها أدعى إلى ثبوتها واستقرارها في الذهن وإلا تفلّتت، والحفظ في أوّل الأمر سهل، لكن

(١) انظر: «حلية طالب العلم» (ص٤٥).
(٢) «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٨٥)، والمعيل: من عَالَ الرجل وأَعَالَ وأَعْيَلَ وعَيَّلَ: كثر عياله، فهو مُعيل، والمرأة معيلة. «اللسان» (١١/ ٤٨٨). و(بنات النَّعّش) سبعة كواكب: أربعة منها نَعْشٌ، لأنها مربعة، وثلاثٌ بنات نَعْش، قيل: شبهت بحملة النعش في تربيعها. «القاموس مع التاج» (١٧/ ٤١٨).
(٣) «تعليم المتعلم» (ص٤٤).
(٤) «المصدر السابق» (ص٢٤ ـ ٢٥).
(٥) لا توجد في المطبوع، وهي ثابتة في الأصل، وفي «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٧٧).

الشَّأن كل الشّأن في تعاهده، والعلم إذا لم يُتعاهد ذهب وتفلت. قال الشيخ عبد الرحمٰن السعدي: «وينبغي تعاهد محفوظات المتعلمين ومعلوماتهم، بالإعادة، والامتحان، والحث على المذاكرة، والمراجعة، وتكرار الدرس، فإن التعلم بمنزلة الغرس للأشجار، والدرس والمذاكرة والإعادة بمنزلة السَّقي لها، وإزالة الأشياء الضّارة عنها؛ لتنمو وتزداد على الدوام»[١].

الثاني: أن يسألهم عما ذكره لهم من المهمات، مثل القواعد المهمّة، والمسائل الغريبة، والضوابط الجامعة، وكذا يسألهم عن مسائل مفرّعة على أصل قرره، أو قاعدة بيّنها؛ تعويدًا على التفكير، وترقية لهم إلى التحقيق، ويدخل في هذا التطبيق والإعراب في قواعد النحو، وتخريج الفروع على الأصول في أصول الفقه، ونحو ذلك.

٢٣ ـ تشجيع الطالب الجادّ؛ حثًا على العلم

قوله: **(فمن وجده حافظًا مُراعيًا له أكرمه، وأثنى عليه، وأشاع ذلك)** هذا في بيان موقف المدرس من الطلاب ـ ولا سيما في المدارس النظامية ـ تجاه المذاكرة، وأداء الواجب، فمن وجده جادًا حافظًا قائمًا بواجبه أكرمه وأثنى عليه بعبارات الثناء والتشجيع، ودعا له بين زملائه؛ ليحثه وإياهم على الاجتهاد في طلب الازدياد، وقد قيّد النووي[٢] وابن جماعة[٣] ـ رحمهما الله ـ الثناء على الطالب بألا يُخاف عليه أن يُعجب بنفسه، لكن القاسمي حذف هذا القيد مع أهميّته. والمرء مفطور على حب الثناء على أي حال كان.

يهوى الثّناءَ مبرِّزٌ ومقصِّرٌ حُبُّ الثناءِ طبيعةُ الإنسانِ[٤]

٢٤ ـ تعنيف الطالب المقصر؛ حثًا على علو الهمة

قوله: **(ومن وجده مقصرًا لامه)**؛ أي: على تقصيره، وقيّده النووي وابن جماعة بألا يُخاف نفوره، فإن خاف نفوره كفَّ عن تعنيفه.

---

(١) «الفتاوى السعدية» (ص٦٣١).
(٢) «المجموع» (١/ ٣٣).
(٣) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٧٧).
(٤) «أدب الدنيا والدين» (ص٢٠٥).

وحرَّضه على علوِّ الهمَّة، ومواصلة الطلب، ولا سيما إن كان ممن يزيده التعنيف نشاطًا والشكر انبساطًا[١].

قوله: (ويعيده له حتى يحفظَه حفظًا واضحًا)[٢]؛ أي: يعيد له المقصود من الدرس حتى يحفظه حفظًا واضحًا بحيث يرسخ في ذهنه.

٢٥ ـ قبول الفائدة ولو كانت من صغار الطلبة

قوله: (وينبغي أن ينصفهم في البحث فيعترف بفائدة يقولها بعضهم وإن كان صغيرًا)؛ لأن العلم لا يُقرن بسنّ، فقد يهب الله تعالى لامرئ صغيرٍ فهمًا لم يؤتَهُ كبير. بل حتى الطير كما في قصة الهدهد مع نبي الله سليمان عليه السلام. يقول ابن رجب: «إن علماء الدين كلهم معترفون بأن الإحاطة بالعلم من غير شذوذ شيء منه ليس هو مرتبة أحد منهم، ولا ادعاه أحد من المتقدمين ولا من المتأخرين، فلهذا كان أئمة السلف المجمع على علمهم وفضلهم يقبلون الحق ممن أورده عليهم وإن كان صغيرًا، ويوصون أصحابهم وأتباعهم بقبول الحق إذا ظهر في غير قولهم...»[٣].

يقول بعض المربين موجهًا كلمة نفيسة في هذا الموضوع حيث يقول:

(كن جريئًا واسع الصدر، وتقبّل أسئلة الطلاب العلمية، ومناقشاتهم في موضوع البحث، بنفس راضية، وقلب مطمئن، وإذا رأيت في غمرة الحوار والنقاش رأيًا من الآراء على صواب، ولكنه مخالف لرأيك، فلا تسفهه، ولا تحاول التقليل من شأنه، غرورًا منك، وتفردًا بالصواب، قابل ذلك بالإعتراف والثناء والتشجيع، ولا يغلبنك على نفسك الهوى.

لست معصومًا من الخطأ، فلا يعظمنّ على نفسك الرجوع إلى

---

(١) انظر: «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٧٧).
(٢) هكذا في المطبوع، والذي في الأصل: (حفظاً راسخاً) وهي أوضح.
(٣) «الفرق بين النصيحة والتعيير» (ص٣١).

الحق إذا نبّهك أحد إليه، أو تبيّن لك الأمر فيما بعد، ولا حاجة إلى أن يحمرّ وجهك من خَجَلٍ، أو يَصْفَرَّ من خوف، أو تضطرب ساقاك من تحتك، وطّن النفس على هذا منذ يومك الأول، فإنه لا بد ملاقيك.

لا يحملنّك خلاف الرأي بينك وبين طلابك، ونقاشهم لك على الحقد والثأر، إنهم طلاب علم، قد يوسوس إليك الشيطان أنّ أحدًا منهم يريد أن تزلّ بك القدم، فا تستجب إلى تلك الوساوس، وظُنَّ بهم خيرًا، وكن لهم رائد علم، لا قائد كتيبة.

لا ترفع بينك وبين طلابك جدارًا من الكبرياء والتعاظم، لتحول بينهم وبين أن يسألوك عن غامض المسائل، كن أخًا لهم، ودَعْهُمْ يشعرون بهذه الأخوة، فلا يتجافون عن سؤال، ولا يمسكهم الحياء عن مناقشة)[١].

وقد مضى الكلام في أن المتواضع يحرص على الفائدة وإن كانت ممن دونه في السن، أو أقل منه في العلم.

٢٦ ـ العدل بين الطلبة عند الازدحام

قوله: (وينبغي أن يقدم في تعليمهم إذا ازدحموا: الأسبقَ فالأسبقَ) هذا إذا كان المدرس يقرأ عليه الطلاب، كل طالب في كتاب ويعلّق على قراءتهم، ومثل هذا في حلقات تحفيظ القرآن الكريم، وكذا في الاختبارات الشفوية، فإن الطلاب يجلسون أمام المدرس الأسبق فالأسبق حضورًا؛ لأن هذا من باب العدل الذي دلت عمومات الكتاب والسُّنَّة على وجوبه. ولذا اهتم المربون بقضية العدل بين الطلاب، ونظروا إلى المساواة بينهم، من غير اعتبار لفقر أو غنى أو شرف أو ضَعَةٍ أو لون وطبقة. ولا ريب أن فقد صفة العدل في المعلم يعوق عملية التعليم؛ نتيجة لما يسببه ذلك في قلوب الطلاب من نفور ووحشة، وكراهيةٍ للمعلم وللتعليم جملة[٢].

---

(١) «رسائل لم يحملها البريد» مجلة الجامعة الإسلامية عدد (٥٠).

(٢) «العلاقة بين الطالب والمعلم» (ص٨٣).

قال الخطيب: «إذا اختلفت أغراض الطلبة في السماع، وأراد بعضهم القراءة لما لا يستفيده غيره، فعلى المحدث أن يُقدم السابق منهم إلى المجلس»[(١)].

٢٧ ـ مراعاة الأسلوب المناسب في التدريس

قوله: **(ويتحرى تفهيمهم بأيسر الطرق، ويذكره مترسلًا مبيَّنًا واضحًا، ويكرر ما يشكل من معانيه وألفاظه حتى يفهموه)**؛ أي: وإذا شرح لهم درسًا فإنه يتقيد بالأسلوب المناسب، ومن المعلوم أن طريقة الإلقاء والشرح تعد من أفضل الطرق في الإفصاح عن مراد المعلم، لذا كان من الواجب أن يعرف المعلم مستوى طلابه العقلي؛ ليختار لهم الأسلوب المناسب، ويسلك أقرب الطرق لإيصال المادة العلمية إلى أذهانهم، وعليه أثناء الإلقاء أن يترسل ويتمهل فلا تأخذه العجلة التي تمنع الاستفادة منه، وأن يحرص على بيان وإيضاح كل جزئية على حدة، ولا بأس بالتكرار لما يشكل حتى يفهمه الطلاب.

وإذا فرغ المدرس من شرح مسألة أو جزئية طويلة، فإن الأولى أن يسكت قليلًا، لأجل أن يتكلم أو يسأل من له رغبة في الكلام أو السؤال؛ لأنه لا ينبغي أن يقطع على المدرس كلامه، ومعلوم أنه إذا لم يسكت هذه السكتة ربما فاتت الفائدة.

التصريح بالعبارة التي يُستحيا منها إذا لم يتم البيان إلا بذلك

قوله: **(وإذا لم يكمل البيان إلا بالتصريح بعبارة يستحى في العادة من ذكرها؛ فليذكرها بصريح اسمها، ولا يمنعه الحياء ومراعاة الأدب من ذلك؛ فإن إيضاحها أَهم من ذلك)**؛ أي: إذا دعت الحاجة إلى إيراد الألفاظ الصريحة لغرض البيان والتعليم، فإنه يؤتى باللفظ الصريح ولا يعدل إلى الكناية ـ وهي أن يتكلم بلفظ يُستدل به عن المكني عنه[(٢)] ـ؛ لئلا يفهم المخاطب المجاز، أو يفهم غير المراد؛ لأن تحصيل الإفهام

---

(١) «الجامع» (١/ ٣٠٢).

(٢) «المصباح المنير» (ص٥٤٢).

في هذا أولى من مراعاة مجرد الأدب[١]. وقد جاء التصريح باللفظ المراد من غير كناية في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قصة ماعز رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «**لعلك قبّلت أو غمزت أو نظرت**»، قال: لا يا رسول الله، قال: «**أنكتها؟**». قال الراوي: لا يَكْنِي[٢]، وكما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**لا تقبل صلاة من أحدث حتى يتوضأ**»، قال رجل من أهل حضرموت: ما الحدث يا أبا هريرة؟ قال: «**فُساءٌ أو ضُراط**»[٣].

الكناية أبلغ من التصريح في موضع الاستحياء

قوله: **(وإنما يستحب[٤] الكناية في مثل هذا إذا علموا المقصود منها علمًا جليًّا، وعلى هذا التفصيل يحمل ما ورد في الأحاديث من التصريح في وقت، والكناية في وقت)**؛ أي: وإذا كان الطلاب يفهمون المقصود فهمًا واضحًا بواسطة الكناية لم يعدل إلى التصريح؛ بل يُكتفى بالكناية عن المعنى المراد، ومن عرف المقصود بالإشارة لم يحتج إلى صريح العبارة، فيُكْنى عن الجماع: بالإفضاء والدخول والوقاع ونحوها، ويُكْنى عن البول والتغوط: بقضاء الحاجة والذهاب إلى الخلاء، ولا يصرح بالخِراءة والبول ونحوهما[٥].

والتكنية عن المعاني التي يستحيا منها دون التصريح بها أبلغ عند العرب، ويعدون ذلك من البراعة والبلاغة. وهذه عادة القرآن الكريم، ومما جاء من هذا قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الرفث: الجماع، والمباشرة: الجماع، والملامسة: الجماع، ولكن الله كريم يَكْنِي»[٦].

---

(١) انظر: «الأذكار» للنووي (ص٥٩٦ ـ ٥٩٧).
(٢) رواه البخاري (٦٨٢٤).
(٣) رواه البخاري (١٣٥)، ومسلم (٢٢٥) وهذا لفظ البخاري.
(٤) هكذا في المطبوع ـ بالياء ـ وفي الأصل «تستحب» ـ بالتاء ـ وهي أحسن، والأولى جائزة.
(٥) انظر: «الأذكار للنووي» (ص٥٩٧).
(٦) «تفسير الطبري» (٢/ ١٦١) (٥/ ١٠٢).

وقال تعالى عن عيسى وأمه عليهما السلام: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]. كناية عن قضاء الحاجة.

فوائد الكناية

وفي هذا مراعاة ذوق السامع والقارئ في ترك ما يُستحيا من ذكره، وتربية المؤمنين على الأدب، وتعليمهم الخلق، والسمو بنفوسهم وعقولهم إلى الأفق العالي، والمستوى الرفيع[١].

٢٨ ـ صفة الوقوف في نهاية الدرس

قوله: (ويؤخر ما ينبغي تأخيره، ويقدم ما ينبغي تقديمه، ويقف في موضع الوقف، ويصل في موضع الوصل) هذا في بيان أدب الوقوف، وهو أنه ينبغي أن يلاحظ المدرس مواضع الوقوف في درسه، فلا يقف كيفما اتفق، أو يقف بمجرّد الأذان ـ مثلًا ـ؛ بل يعيِّن موضعًا مناسبًا يقف عنده؛ ليكون موضوع الدرس متكاملًا واضحًا لدى الطلاب، وضد ذلك يشتت الذهن.

٢٩ ـ صفة المدرس في تعامله مع جلسائه

قوله: (ويحسن خلقه مع جلسائه ويُوقِّرُ فاضلهم بعلمٍ أو سِنٍّ أو شرف أو صلاح، ويتلطف بالباقين) هذه صفة المدرس في تعامله مع طلابه، وذلك باحترامهم وتحسين الخلق معهم وتوقير الفاضل بالعلم والسن والشرف والصلاح. قال أبو العالية الرياحي (ت٩٣): كان ابن عباس رضي الله عنهما يرفعني على سريره، وقريش أسفل منه. ويقول: هكذا العلم يزيد الشريف شرفًا، ويُجلس المملوك على الأسرة[٢].

وأما بقية المتعلمين فيتلطف بهم، فيكرمهم بحسن السلام، وطلاقة الوجه، ومزيد الاحترام، كما تقدم.

٣٠ ـ صفة المدرس أثناء إلقاء درسه

قوله: (وينبغي أن يصون يديه عن العبث، وعينيه عن تفريق النظر بلا حاجة، ويعم الحاضرين بالتفاته) هذه صفة المدرس البدنية أثناء إلقاء الدرس، وهي صفة من الأهمية بمكان؛ لأنها تضفي على المدرس قوة

---

(١) انظر: «عادات القرآن الأسلوبية» (١/ ١٦٧).
(٢) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٦٢).

الشخصية، والهيبة أمام الطلاب، وفيها ـ أيضًا ـ تحقيق العدل والمساواة بين الحاضرين.

إن قلة الحركة، ورباطة الجأش، وحسن السمت، وجمال المظهر، مما يضفي على المدرس صفة التقدير والقبول، وعليه فينبغي له أن يصون يديه عن العبث، وكذا التشبيك، ويصون عينيه عن تفريق النظر بلا حاجة، وعليه أن يلتفت التفاتًا يشمل جميع الطلاب، إشعارًا لهم بالعدل، وإظهارًا لقدرهم عنده واحترامه لهم، ويخصُّ من يكلِّمه أو يسأله أو يبحث معه بمزيد التفاتٍ إليه، وإقبالٍ عليه.

وعليه ـ في الدراسة النظامية ـ أن يحذر من توجيه اهتمام خاص لأي فرد من أفراد الفصل من غير سبب تربوي، وألا يركز اهتمامه على الطلبة المتميزين ويهمل بقية الطلبة.

روي عن مجاهد أنه قال: «المعلم إذا لم يعدل بين الصبيان كُتب من الظلمة»[(١)]. وقال حبيب بن أبي ثابت: «من السُّنَّة إذا حَدَّثَ الرجلُ القومَ أن يقبل عليهم جميعًا، ولا يخصَّ أحدًا دون أحد»[(٢)]، وقال الخطيب البغدادي: «مباح للمحدث أن يُؤْثِرَ حفاظ الطلبة وأهل المعرفة والفهم منهم، وإن كان الأفضل أن يعدل بينهم، ولا يُؤْثِرُ بعضهم على بعض»[(٣)].

وعليه ـ أيضًا ـ أن يحفظ منطقه ولسانه، وأن يجتنب الفحش في القول حتى في مقام المعاتبة والمحاسبة، والمعلم قدوة يُقتفى أثره، ويُسلك سبيله، فلا ينبغي أن يسمع منه طلابه إلا خيرًا.

٣١ ـ صفة مكان المدرس أثناء درسه

قوله: (ويجلس في موضع يبرز وجهه لهم)؛ أي: ينبغي للمدرّس أن يجلس في مكان بارز لجميع الحاضرين؛ لئلا تحصل مشقَّة في النظر إليه والإقبال عليه، والأمثل في هذا أن يقف في الفصل في مكان

(١) «بهجة المجالس» (١/ ٣٦٣).

(٢) «الجامع» للخطيب (١/ ٣٠٥).

(٣) «الجامع» (١/ ٣٠٥).

مناسب، أو يكون جالسًا على كرسي؛ لأنه أشمل لصوته، وليراه الطلبة، وفيه من الهيبة والوقار ما فيه؛ لأن الرؤية لها أثر في احترام المتكلم والانتباه له، والتهيؤ لسماع كلامه. قال أبو السَّلِيل القيسي: «قدم علينا رجل من أصحاب النبي ﷺ وكانوا يجتمعون عليه؛ فإذا كثروا صَعِدَ على ظهر بيته فحدثهم منه»[(١)]. وقال أيوب السَّخْتِياني: «قدم علينا عكرمة، فاجتمع الناس عليه حتى أُصعد فوق ظهر بيت»[(٢)].

وقال الخطيب: «إذا كثر عدد من يحضر للسماع، وكانوا بحيث لا يبلغهم صوت الراوي ولا يرونه، استحب له أن يجلس على منبر أو غيره حتى يبدو للجماعة وجهُهُ ويبلغهم صوتُهُ»[(٣)].

٣٢ـ ما يُبدأ به من العلوم

قوله: **(ويقدم من دروسه أهمها؛ فيقدم التفسير، ثُمَّ الحديث، ثُمَّ الأصوليين، ثُمَّ الأهمَّ فالأهمّ)** هذا توجيه من المؤلف فيما يَبدأ به المدرس إذا تعددت الدروس، فيقدم الأهم منها، وهو درس التفسير؛ لأنه بيان لكلام الله تعالى، وشرف العلم تابع لشرف معلومه، ثم درس الحديث؛ لأن السُّنَّة النبوية وحي من الله تعالى، ومن المقرر أن السُّنَّة أصل في فهم القرآن، ثم بعد ذلك أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم الأهم فالمهم من علوم الغاية وعلوم الآلة.

٣٣ـ النهي عن التدريس في حالة تشوش الذهن وشغل الفكر

قوله: **(ولا يقرأ الدرس وبه ما يزعجه؛ كمرض أو جوع أو مدافعة الحدث، أو شدة فرح أو غم)**؛ أي: ينبغي للمدرس أن يكون حال درسه مرتاح البال سليمًا من العوارض المؤثرة على إلقاء الدرس بالصفة المطلوبة؛ كأن يكون المدرس مريضًا، أو به صداع، أو غلبة نوم، أو مهمومًا، أو مغمومًا أو في حالة شدة فرح، أو مدافعة الحدث، أو نحو ذلك؛ لأن هذا يشوِّش الذهن، ويَشْغل الفِكر، فلا يتمكّن من أداء الدرس على الوجه المطلوب، ولا يستفيد الطلاب، بل إنه يجعل

(١) «الجامع» للخطيب (١/ ٤١٣).
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق. (١/ ٤١٤).

المدرس في حالة تضجُّر وغضب لأدنى سبب، ولو سئل أثناء درسه فقد يفتي بغير الصواب.

وهذا مبنيٌّ على أصل عظيم مستفاد من حديث أبي بكرة ﷺ مرفوعًا: «**لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان**»[١] وقد بوّب عليه البخاري بقوله: «بابٌ هل يقضي القاضي أو يفتي وهو غضبان؟».

لكن إن كان العارض خفيفًا يمكن تحمله ولا يمنعه من العناية بدرسه؛ فإن الأولى حضور الدرس ـ وقد أشار المصنف إلى هذا في آخر الرسالة ـ ولا سيما إذا كان طلبته كثيرين، أو بعضهم يأتي من أماكن بعيدة؛ فإنه إذا تحامل على نفسه وحضر لإلقاء درسه؛ فإن الله تعالى يعينه، ويحصل له من القوة والنشاط ما لم يكن في الحسبان، وهذا شيء مجرب ومحسوس.

٣٤ ـ النهي عن تطويل الدرس

قوله: **(ولا يطيل مجلسه إطالة تُمِلُّهم أو تمنعهم فهم الدرس أو ضبطه)** هذا في دروس المساجد؛ فإنه لا ينبغي للمدرس أن يطيل درسه إطالةً تُمِل الطلاب، ولا يقصِّر تقصيرًا يخِل، بحيث لا تتم الفائدة من حضور الدرس. وعليه أن يراعي مصلحة الحاضرين في الفائدة وفي التطويل. ولا ينبغي أن يبحث في مسألة إلا في موضعها، أما الفوائد العارضة فلا بأس.

أما الدراسة النظامية؛ فالمعلم مقيَّد بوقت الحصّة أو المحاضرة، لكن عليه أن يقسّم المنهج تقسيمًا دقيقًا بحيث يُبقي في نهاية كل درسٍ وقتًا لراحة الطلاب، أو للأسئلة، سواء أكانت في موضوع الدرس، أو كانت أسئلة عامة إذا كان المدرس أهلًا لذلك؛ لأن أسئلة الطلاب فيها فوائد عظيمة منها:

فوائد أسئلة الطلاب

١ ـ أنها تزيل غشاوة الجهل، وتصحح المعاني والأفكار.

٢ ـ استفادة الطلاب الآخرين عند سماع الإجابة على سؤال زميلهم.

---

(١) «صيد الخاطر» (ص١٧٨).

٣ ـ تقييم المدرس حال طلابه من حيث الفهم، والحرص على الاستفادة.

٤ ـ دفع الطالب الخجول وتجرئته على طرح السؤال.

٥ ـ أن المدرس يتضح له من خلال الأسئلة مدى فهم طلابه لدرسه[١].

٦ ـ محبة الطلاب لمدرسهم وعلو قدره عندهم.

قوله: **(وليكن مجلسه واسعًا)** لأجل أن يتّسِع لأكبر عدد من الطلاب، وقد جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقوله: «**إن خير المجالس أوسعها**»[٢].

٣٥ ـ صوت المدرس أثناء الإلقاء

قوله: **(ولا يرفع صوته زيادةً عَلَى الحاجة، ولا يخفضه خفضًا يمنع بعضهم كمال فهمه)** هذا الأدب يتعلق بصوت المدرس ولفظه؛ فينبغي أن يكون صوت المدرس مناسبًا لعدد الطلاب وسعة المكان، فلا يرفعه رفعًا زائدًا عن الحاجة، ولا يخفضه خفضًا بحيث يخفى بعض ما يقول على الطلاب، وهذا يشمل ما كان في فصول الدراسة وقاعات الجامعات، وما كان في المساجد، وإن كان الغالب أن دروس المساجد تكون في مكبر الصوت، فيحذر من رفع صوته رفعًا يؤدي إلى إزعاج الحاضرين ومللهم.

قال عثمان بن عطاء عن أبيه: «ينبغي للعالم ألا يعدو صوتُه مجلسَه»، وكان الأعمش لا يرفع صوته بالحديث إلا قدر ما يجوز جلساءه؛ إعظامًا للعلم، وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: أتى رجلٌ الأعمش، فجعل يحدثه، فقال الرجل: زدني في السماع؛ فإني أصمّ، قال: ليس ذاك لك، فقال: بيني وبينك أولُ طالعٍ، فطلع رَقَبَةُ بن مَسْقَلة

---

(١) انظر: «المعلم الأول» (ص١٣١ ـ ١٣٢).

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١١٣٦)، وأبو داود (٤٨٢٠)، وأحمد (١٧/٢١٨ ـ ٢١٩) وهو حديث صحيح.

فأخبراه القصة، فقال للأعمش: عليك أن تزيده، قال: ولم؟ قال: لأنك تقدر أن تزيد في صوتك، وهو لا يقدر أن يزيد في سمعه، فقال الأعمش: صدقت[١].

٣٦ـ صيانة مجلس الدرس من اللغط

قوله: (ويصون مجلسه من اللَّغط، والحاضرين عن سوء الأدب في المُباحثة، وإذا ظهر من أحدهم شيءٌ من مبادئ ذلك تلطف في دفعه قبل انتشاره) هذا في بيان صفة مجلس الدرس، وهو أنه ينبغي أن يكون مجلسه هادئًا. ففي دروس المسجد والدورات العلمية يجب أن يصان الدرس عن اللغط واختلاط الأصوات، كما يصان عن سوء الأدب في المباحثة، وإذا ظهر من أحد الطلاب شيء من سوء الخلق في سؤاله أو نقاشه تلطف المدرس في دفعه قبل ازدياده وانتشاره.

وفي المدارس النظامية يحتاج المدرس إلى الحزم وضبط الفصل؛ حفظًا للوقت، وإبقاءً لهيبة المعلم والعلم. وضبط الفصل إما أن يكون من الطلاب أنفسهم لقوة شخصية المدرس وتحضيره للدرس وقوته في المعلومات، وإما أن يكون بهيمنة المدرس وقوته ودقة متابعته لما يكون في الفصل، وهذه تتعب المدرس لكن لا بد منها، وإلا فالأُولى أحسن منها عند القدرة عليها.

واللَّغَطُ: بالتحريك، هو رفع الأصوات واختلاطها فيما لا فائدة منه.

قال في «المصباح المنير»[٢]: «اللغط: هو كلام فيه جلبةٌ واختلاطٌ، ولا يتبيّن». وقد قال أهل العلم: «الغَلَطُ تحت اللَّغط»[٣].

---

(١) «الجامع» للخطيب (١/ ٦٤٧) تحقيق شيخنا الدكتور: محمد عجاج الخطيب، وفي «الجامع» تحقيق محمود الطحان (١/ ٤١٢): عن ابن عثمان بن عطاء، عن أبيه... والصواب أنه من قول عطاء لا من قول ابنه عثمان. و(مسقلة) يقال بالسين والصاد. وانظر: «حلية الأولياء» (٥/ ١٩٩)، «أدب الإملاء والاستملاء» (ص٤٩ ـ ٥٠).

(٢) (ص٥٥٥).

(٣) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٦٦).

٣٧ ـ تذكير الحاضرين بمقصود الاجتماع في الدرس

قوله: (ويذكرهم أن اجتماعنا ينبغي أن يكون لله تعالى، فلا يليق بنا المنافسة والمشاحنة، بل سبيلنا: الرِّفق والحياء واستفادة بعضنا من بعض، واجتماع قلوبنا على ظهور الحق وحصول الفائدة)؛ أي: ينبغي للمدرس أن يذكر الحاضرين بأن هذا الاجتماع في الدرس اجتماع لله تعالى، مقصود به ظهور الحق، وصفاء القلوب، وطلب الفائدة، وعليه فلا يليق بأهل العلم تعاطي المنافسة والشحناء؛ لأنها سبب العداوة والبغضاء، بل يجب أن يكون سبيلنا الرفق، والحياء، واستفادة بعضنا من بعض، ويذكرهم قول الله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال: ٨]؛ فإن هذا يدل على أن إرادة إبطال الحق أو تحقيق الباطل صفة إجرام؛ فليحذر منه.

قال ابن الحاج المالكي: «وقع لي سؤال مع أبي محمد[(١)] لما جئت أريد أن أقرأ عليه، فقال لي: أما تقرأ على العلماء؟

فقلت: أريد أن أقرأ عليك.

فقال لي: كيف تترك العلماء، وتأتي تقرأ على مثلي؟

فقلت: أريد أن أقرأ عليك.

فقال: استخرِ الله تعالى.

فاستخرت الله تعالى، ثم جئت إليه، فقلت: أقرأُ؟.

قال: عَزَمْتَ؟.

قلت: نعم.

فقال لي: لا يخطر بخاطرك، ولا يمر ببالك، أنك تقرأ على عالم، ولا أنك بين يدي شيخ، إنما نحن إخوان مجتمعون، نتذاكر

---

(١) هو: عبد الله بن سعد بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي المالكي (ت٦٩٥) صاحب كتاب «بهجة النفوس» شرح به أحاديث انتقاها من «صحيح البخاري». وهو شرح جيد، وفيه ما ينبغي التنبيه عليه. وابن أبي جمرة من شيوخ ابن الحاج.

أشياءَ من أحكام الله تعالى علينا؛ فعلى أيِّ لسانٍ خَلَقَ الله الصوابَ والحقَّ قبلناه، وإن كان صبيًّا من المكتب»[١].

٣٨ـ حثُّ المدرس طلابه على احترام السائل مهما كان سؤاله

قوله: (وإذا سأل سائل عن أعجوبة فلا يسخرون منه)؛ أي: إن بعض الطلاب قد يسأل عن أمر غريب فيكون سببًا في سخرية الطلاب أو الحاضرين منه، لكن على المدرس أن يرشد الطلاب إلى الأدب واحترام السائل وعدم السخرية منه، وعلى المدرس ألا يحتقر مثل هذا النوع من الطلاب، فيحرجه أمام زملائه، ويوغر صدره على أستاذه، بل قد يكون سؤاله دليلًا على حرصه، لكن فاته التوفيق في نوعية السؤال أو طريقة صياغته.

والأُعجوبة: بضم الهمزة، ما يدعو إلى العجب، وهو الأمر يُتَعجب منه. وهي تجمع على أعاجيب، مثل: أحدوثة وأحاديث[٢].

والله أعلم.



(١) انظر: «المدخل» لابن الحاج (١/ ٦٧)، وانظر: «الجامع في كتب آداب المعلمين» (ص٤١٧). والمكتب ـ بفتح الميم والتاء ـ ويقال له: الكُتَّاب: المكان الذي يجمع فيه الصبيان للتعليم. انظر: «المصباح المنير» (ص٥٢٥).

(٢) انظر: «مقاييس اللغة» (٤/ ٢٤٣)، «لسان العرب» (١/ ٥٨٢)، «المعجم الوسيط» (ص٥٨٤).



من آداب المدرس في تعليمه (٥)

❁ وإذا سُئل عن شيء لا يعرفه أو عَرَضَ في الدرس ما لا يعرفه فليقل: «لا أعرفه»، أو: «لا أتحققه»، ولا يستنكف عن ذلك، فقد قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (يا أيها الناس، مَنْ علم شيئًا فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: «الله أعلم»؛ فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: «الله أعلم»، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص: ٨٦]) رواه البخاري.

❁ قالوا: وينبغي للعالـم أن يُوَرِثَ أصحابه: «لا أدري» معناهُ: يُكثر منها، ولا يضعُ ذلك من منزلته، بل يدل على وفورِ عَقْلِهِ وعِظَم محله؛ لأن المتمكن لا يضره عدم معرفته مسائل معدودة، وإنما يمتنع من «لا أدري» من قلَّ عِلْمُهُ، وقصرت وضعفت تقواه؛ لأنه يخاف لقصوره أن يسقط من أعين سائليه أو سامعيه وهو جهالة منه، فإنه بإقدامه على الجواب فيما لا يعلمه يضر نفسه وغيره، وقد يبوءُ بالخزي العاجِل والإثم الآجل، وفي الحديث: «المُتَشَبِّعُ بما لَمْ يُعْطَ كلابسِ ثَوْبَيْ زُوْرٍ».

❁ الشرح ❁

٣٩ـ من آداب الجواب عن أسئلة الطلبة. قول المدرس: «لا أدري» فيما لا يعلم

قوله: (وإذا سُئل عن شيء لا يعرفه أو عَرَضَ في الدرس ما لا يعرفه فليقل: «لا أَعرفه» أو «لا أتحققه»، ولا يستنكف عن ذلك) ختم المؤلف آداب المعلم في تعليمه بهذا الأدب العظيم، ألا وهو الجواب عن أسئلة الطلاب، أو الفتيا في أسئلة عامة، ومن المعلوم أن

المدرس ترد عليه أسئلة واستفتاءات كثيرة، سواء أكان في دروس المسجد والدورات العلمية، أم في الدراسات النظامية كالجامعات ـ مثلًا ـ.

وقد ذكر المؤلف أن الواجب على المدرس إذا عرض له ما لا يعرفه، فليقل: «لا أعرفه» أو لا يحضرني الجواب أو «سأبحث هذه المسألة» ونحو ذلك مما يتعين في مثل هذا المقام العظيم، وليس له أن يستنكف عن مثل هذه الألفاظ؛ أي: يمتنع منها أمام الطلاب أنفةً واستكبارًا[1].

الأدلة الشرعية على تحريم القول على الله بلا علم

وقد جاءت الأدلة الشرعية بتحريم القول على الله بلا علم، وأن ذلك من أكبر الكبائر وأقبح المفاسد، وهو من أشد الأمور خطورة وأعظمها إثمًا، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾ [الأعراف: ٣٣]. وهذه المحرمات المذكورة في الآية لا تباح بحالٍ من الأحوال، ولهذا جاءت بصيغة الحصر، وقد رتبها الله تعالى أربع مراتب، فبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم ثَنَّى بما هو أشد منها تحريمًا، وهو الإثم والظلم، ثم ثَلَّثَ بما هو أعظم تحريمًا منهما وهو الشرك، ثم رَبَّعَ بما هو أشد تحريمًا من ذلك كله، وهو القول عليه بلا علم[2].

وليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله تعالى من القول على الله بلا علم، وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أسست البدع والضلالات، فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم، وفيه تغيير دين الله تعالى، وتبديله.

---

(١) انظر: «المصباح المنير» (ص٦٢٥).

(٢) انظر: «إعلام الموقعين» (٢/ ٧٣).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل: ١١٦]. وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: ٥٩].

وفي هذا وعيد وتهديد على من كذب على الله في أحكامه، وفيه بيان أنه لا يجوز للعبد أن يقول: هذا حلال وهذا حرام، إلا بما علم أن الله تعالى أحله وحرمه.

خطر الفتيا بلا علم

وبالإضافة إلى كون الفتيا بلا علم كذب وافتراء على الله تعالى هو - أيضًا - سبب لإضلال الناس، فكان ذلك مثل السُّنَّة السيئة التي على صاحبها وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جُهالًا فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**»[1].

وبهذا يتبين خطر شأن الفتوى بغير علم، فيستفاد من ذلك الحذر من التساهل في الفتيا، وأن يجيب المفتي أو المدرس عن كل ما سئل عنه، وعليه أن يوطن نفسه على قول: «لا أدري»، أو: «لا أعلم» ونحو ذلك فيما لا يعلم حكمه من المسائل.

منهج الصحابة وسلف الأمة في الحذر من الفتيا

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يتدافعون الفتوى، قال عبد الرحمٰن بن أبي ليلى: «أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يسأل أحدهم عن المسألة فيردها هذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول» وفي رواية: «ما منهم من أحد يحدث بحديث إلا وَدَّ أن أخاه كفاه

(١) رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) واللفظ للبخاري.

الحديث، ولا يُسأل عن فتيا إلا وَدَّ أن أخاه كفاه الفتيا»[(١)].

وعلى منهج الصحابة ﭫ سار التابعون من سلف هذه الأمة، وتابعوهم في التورع عن الفتيا مع ما هم عليه من العلم والفضل. قال الهيثم بن جميل: شهدت مالكًا سئل عن ثمانٍ وأربعين مسألة، فقال في ثنتين وثلاثين منها: لا أدري[(٢)]. وروى ابن عبد البر بسند حسن أن سعيد بن جبير سئل عن شيء فقال: لا أعلم. ثم قال: «ويل للذي يقول لما لا يعلم: إني أعلم»[(٣)]. وعن حنظلة بن أبي سفيان قال: ما رأيت عالمًا قط يقول: «لا أدري» أكثر من طاوس[(٤)].

وقال القاضي محسِّن التنوخي: سئل الشَّعبي عن مسألة فقال: «لا أدري»، فقيل له: فبأي شيء تأخذون رَزْقَ السلطان؟! فقال: «لِأقول فيما لا أدري: لا أدري»[(٥)].

وعن أبي الذَّيَّال قال: «تَعَلَّمْ: لا أدري، ولا تَعَلَّمْ: أدري؛ فإنك إن قلت: لا أدري، علموك حتى تدري، وإن قلت: أدري، سألوك حتى لا تدري»[(٦)].

ولو تتبعنا الكلام في ذلك وما نقل عن الصحابة ﭫ والتابعين في هذا الموضوع لطال بنا الكلام، وفيما ذكرناه كفاية.

وإذا علمنا أن العلماء الربانيين من الصحابة والتابعين كانوا يتدافعون الفتيا ويحيلون أمرها إلى غيرهم، أيقنا أنه ليس لكل أحد من الناس أن يفتي، ولو كان إمامًا أو واعظًا أو خطيبًا، ومن باب أولى نهي العامة وأنصاف المتعلمين عن إطلاق ألسنتهم بالتحليل والتحريم والجرأة

---

(١) رواه أبو خيثمة في «العلم» (٢١)، وابن المبارك في «الزهد» (٥٨)، والدارمي (١/٤٩)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (٦٥٥).
(٢) «صفة المفتي والمستفتي» لابن حمدان (ص١٣٥).
(٣) «الجامع» (٢/٤٣).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (٥/٤٣).
(٥) «المزهر» (٢/٣١٤).
(٦) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/٤٨).

على الفتيا[١].

قال الشيخ حامد بن علي العمادي: «لا ينبغي لأحد أن يفتي إلا أن يعرف أقاويل العلماء، ويعلم من أين قالوا، ويعرف معاملات الناس»[٢].

فوائد توقف الإنسان عن الجواب فيما لا يعلم

إِنَّ توقُّفَ الإنسان عما لا يعلم فيه فوائد:

١ ـ أن هذا هو الواجب عليه، بدلالة نصوص الكتاب والسنة المتقدمة.

٢ ـ أن هذا يفتح له باب العلم؛ لأنه سيأتيه الجواب إما من مراجعته هو، أو من مراجعة غيره؛ لأن بعض الطلاب إذا رأى معلِّمه توقَّف في مسألةٍ ما، جدَّ واجتهد في تحصيل علمها لإتحاف معلِّمه بها، وهذا شيء جميل.

٣ ـ رفعة القدر وعلو الشأن والثقة بما يقول.

٤ ـ تربية الطلاب وإرشادهم لسلوك هذا المنهج القويم كما سيأتي؛ لأن الاقتداء بالأحوال والأعمال أبلغ من الاقتداء بالأقوال[٣].

كلام ابن الجوزي وابن القيم في منع من يفتي وليس بأهل

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أفتى الناس وليس بأهل للفتوى فهو آثم عاصٍ، ومن أقرّه من ولاة الأمور على ذلك فهو آثم أيضًا». ثم نقل عن ابن الجوزي قوله: «ويلزم وليَّ الأمر مَنْعُهُمْ، كما فعل بنو أمية، وهؤلاء بمنزلة من يدل الركب وليس له علمٌ بالطرق، وبمنزلة الأعمى الذي يرشد الناس إلى القبلة، وبمنزلة من لا معرفة له بالطب، وهو يَطُبُّ الناسَ، بل هو أسوأ حالًا من هؤلاء كلهم، وإذا تعين على ولي الأمر منع من لم يحسن التطبب من مداواة المرضى، فكيف بمن لم يعرف

(١) انظر: «مقالات في الفتوى والفتيا» (ص٧٩).
(٢) «صلاح العالَم بإفتاء العالِم» (ص٢٤).
(٣) انظر: «الفتاوى السعدية» (ص٦٢٨).

الكتاب والسُّنَّة، ولم يتفقه في الدين؟!»[(١)].

وقد أطلت في هذه المسألة لأهميتها؛ لأن مسألة التساهل في الفتوى والجرأة على الإفتاء قد صارت ظاهرة بيّنة في زماننا هذا؛ لتعدد أسباب الاتصال والتواصل مما أدى إلى تعدد المفتين وكثرة مواقع الفتوى في الصحف والمجلات والقنوات وشبكات المعلومات.

كلمة نفيسة في حق من يحرص على الفتوى

قال الصيمري ـ أحد أئمة الشافعية ـ ثم أبو بكر الخطيب: «قَلَّ من حَرَصَ على الفتوى وسابق إليها، وثابر عليها إلا قَلَّ توفيقه، واضطرب في أمره، ومن كان كارهًا لذلك غير مؤثر له ما وجد عنه مندوحة، وقَدِرَ أن يحيل بالأمر فيه على غيره، كانت المعونة له من الله أكثر، والصلاح في فتواه وجوابه أغلب»[(٢)].

وصية ابن مسعود رضي الله عنه في هذا الباب

قوله: (فقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: «يا أيُّها النَّاس، مَنْ عَلِم شيئًا فليقل به، ومَنْ لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإنَّ من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص: ٨٦]، رواه البخاري[(٣)]).

فهذه وصية نفيسة من ابن مسعود رضي الله عنه، ومضمونها عدم التجرؤ على الفتوى والتساهل في إصدار الفتاوى؛ لأن المفتي مُوقِّع عن رب العالمين[(٤)]. وانظر كيف جعل لفظة: «الله أعلم» من العلم؟!.

إن الإفتاء قول على الله وإخبار عنه بما سيكون تشريعًا داخلًا في دين الله يتعبد به المكلف ربَّه تعالى، وقد تكون هذه الفتوى علمًا تتوارثه

---

(١) «إعلام الموقعين» (٦/ ١٣١).

(٢) «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٣٥٠)، «أدب المفتي والمستفتي» لابن الصلاح (ص٨٣ ـ ٨٤)، «صفة المفتي والمستفتي» (ص١٤١)، قال ابن الصلاح: « قال ذلك الصيمري أولًا، ثم تلقاه عنه الخطيب فقاله في بعض تصانيفه».

(٣) رقم (٤٧٧٤).

(٤) انظر: «إعلام الموقعين» (٢/ ١٦ ـ ١٧)، «شرح حديث: ما ذئبان جائعان» لابن رجب ص(٤٥).

الأجيال إلى يوم القيامة. وقد روى الدارمي من طريق عبد العزيز بن رُفيع قال: سُئل عطاء عن شيء، قال: «لا أدري» قال: قيل له: ألا تقول فيها برأيك؟ قال: «أستحي من الله أن يدان في الأرض برأيي»[١].

وأما الآية الكريمة فقوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجرًا تعطونيه من عرض الحياة الدنيا. ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾؛ أي: أدَّعي أمرًا ليس لي، وأقفو ما ليس لي به علم، لا أتَّبع إلا ما يوحى إليَّ[٢]؛ لأن القول فيما لا يُعلم قسم من التكلُّف. وتمييز المعلوم من المجهول نوع علم، ولهذا اشتهر أن «لا أدري» نصف العلم[٣].

٤٠ ـ حثُّ العالم طلابه على لفظة: لا أدري

قوله: **(قالوا: وينبغي للعالم أن يُوْرِثَ أصحابه «لا أدري» معناها: يكثر منها)**؛ أي: إن العلماء من سلف هذه الأمة قالوا: ينبغي للعالم والمدرس أن يحث طلابه على سلوك هذا المنهج القويم، ويعودهم عليه، ويورثهم إياه، وذلك بالتزام هذا المنهج فيما يرد عليه من أسئلة لا يحضره جوابها، كما تقدم؛ فإذا فعل ذلك اقتدى به طلابه، وورثوا عنه ذلك بإكثاره من قوله: «لا أدري» ونحوها.

وقد روى يعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ»[٤] بسنده عن عبد الله بن يزيد بن هرمز قال: «ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده «لا أدري»؛ حتى يكون ذلك أصلًا في أيديهم يفزعون إليه، إذا سئل أحدهم عما لا يدري قال: **(لا أدري)**».

قول المسؤول: «لا أدري» لا يضع من منزلته

قوله: **(ولا يضعُ ذلك من منزلته، بل يدل عَلَى وفورِ عَقْلِهِ وعِظَم محله؛ لأن المتمكن لا يضره عدم معرفته مسائل معدودة)** أشار المؤلف

---

(١) «سنن الدارمي» (١/ ٤٥).
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٣٦)، «تفسير ابن سعدي» (ص٧١٧).
(٣) انظر: «فتح الباري» (٨/ ٥٢١).
(٤) (١/ ٦٥٥)، وانظر: «المدخل» للبيهقي (٢/ ٢٧١)، «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٣٦٧).

بذلك إلى مسألة مهمة تتعلق بالفتوى، وهي أن قول المسؤول لسائله: (لا أدري)، أو (لا أعلم)، هو عين الصواب، وأن ذلك لا يضع من منزلته ولا يحط من قدره، بل إن ذلك يرفع منزلته، ويعلي قدره عند سامعه، وهو دليل على وفور عقله، وعظم محله، وقوة دينه، وتقوى ربه، وطهارة قلبه، وكمال معرفته، وحسن تثبته؛ لأن المتمكن من العلم لا يضره عدمُ معرفته مسائلَ معدودةً قد ترد عليه في أسئلة السائلين، وله في سلف الأمة خير قدوة، كما تقدم.

شبهة من يمتنع من لفظة: لا أدري

قوله: (وإنما يمتنع مِنْ «لا أدري» مَنْ قَلَّ علمه، وقَصُرَتْ [معرفته][1] وضَعُفَتْ تقواه؛ لأنه يخاف لقصوره أن يسقط من أعين سائليه أو سامعيه وهو جهالة منه، فإنه بإقدامه على الجواب فيما لا يعلمه يضر نفسه وغيره، وقد يبوءُ بالخزي العاجل والإثم الآجل[2]).

فساد هذه الشبهة من وجهين

هذه شبهة من يتسرع في الفتوى ويأنف من أن يقول: لا أدري، وهي خوف سقوطه من أعين سائليه أو سامعيه، أو وصفه بقلة العلم. وهذه جهالة منه؛ لأن هذا دليل على ضعف الديانة، وقلة المعرفة؛ لأمرين:

الأول: أنه بإقدامه على الجواب على سؤال لا يعلمه يكون قد ضر نفسه وضر غيره ضررًا عظيمًا ممن أفتاه، أو وصلت إليه فتواه، ولا سيما إذا كانت الفتوى لشخص قد ذهب ولا يعرفه، أو بواسطة وسائل إعلامية يصعب تداركها.

الثاني: أنه قد يبوء بالخزي العاجل أولًا ثم الإثم الآجل؛ لأنه قد يشتهر خطؤه بين الناس فيقع فيما فر منه، ويتصف عندهم بما احترز منه، نسأل الله السلامة.

---

(١) لا توجد في المطبوع، وهي مثبتة في الأصل، والسياق يستدعيها.

(٢) هكذا في المطبوع، وفي نسخة القاسمي: وقد يبوء بالخزي العاجل أولًا ثم الآجل. وفي الأصل: يبوء بالإثم العظيم.

وعن مالك بن أنس قال: حدثني ربيعة بن أبي عبد الرحمٰن قال: قال لي ابن خَلْدَةَ ـ وكان نِعم القاضي ـ: «يا ربيعة، إني أرى الناس قد أحاطوا بك، فإذا سألك الرجل عن مسألة فلا تكن همتك أن تُخلِّصه، ولكن لتكن همتك أن تُخلِّصَ نفسك»[١]. وقال الإمام مالك: «من سئل عن مسألة فينبغي له قبل أن يجيب فيها أن يعرض نفسه على الجنة والنار، وكيف يكون خلاصه في الآخرة؟! ، ثم يُجيب فيها»[٢].

ولهذا؛ فإن علماءنا الأجلاء يُلقىٰ على الواحد منهم السؤال في علم علا فيه كعبه، فإن لم يحضره الجواب بادر بقوله: «لا أدري»، أو: «الله أعلم»[٣] غير مستنكفٍ ولا مبالٍ بما يكون لها من أثر في نفوس سامعيه.

شرح حديث: «المتشبع بما لم يُعْطَ كلابس ثوبي زور»

قوله: (وفي الحديث: «المُتَشَبِّعُ بِما لَمْ يُعْطَ كلابسِ ثَوْبَيْ زُوْرٍ[٤]»)

هذا الحديث سببه أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إن لي ضَرَّةً، فهل عليَّ جناح إن تشبعت من زوجي غير الذي يعطيني؟ ـ أي: أقول إن زوجي أعطاني ما لم يعطني ـ فقال رسول الله ﷺ: «**المتشبع بما لم يُعْطَ كلابسِ ثوبي زور**» والمتشبع: هو الذي يُري أنه شبعان، وليس كذلك، واستعير للتحلي بفضيلة لم يُرزقها، فَشَبَّهَ المتشبع ـ أي: المتكثر والمتزين بما ليس عنده ـ بلابس ثوبي زور، والغرض من التشبيه: تحقير المشبه مع المبالغة في هذا التحقير؛ إشعارًا بأن الإزار والرداء زور من رأسه إلى قدمه[٥].

---

(١) «المعرفة والتاريخ» (١/٥٥٦)، «إبطال الحيل» لابن بطة (ص١٢٣)، «الفقيه والمتفقه» (٢/٣٥٨).

(٢) «ترتيب المدارك» (١/١٧٩).

(٣) انظر: «مسائل العام الأخير» للشيخ عبد العزيز بن باز، رواية: عبد الرحمٰن بن عبد الله بن حسين (ص٣٠، ٦٤، ٥٧، ٧٢، ٩١، ١٥٢، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٦١، ٢٦٣).

(٤) أخرجه البخاري (٥٢١٩)، ومسلم (٢١٣٠) من حديث أسماء رضي الله عنها، ورواه مسلم ـ أيضًا ـ (٢١٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) انظر: «الفائق» (٢/٢١٦ ـ ٢١٧)، «عمدة القاري» (١٦/٤٠٦).

ووجه التثنية في **قوله**: (ثوبي زور) أن المتحلي بشيءٍ غيرِه كَذَبَ على نفسه بما لم يأخذ، وكَذَبَ على غيره بما لم يُعْطَ[١]. **وقوله**: (كلابس ثوبي زور) هو الذي يزوِّر على الناس، فيتزيّا بِزيِّ أهل العلم ـ مثلًا ـ ليغترَّ به الناس، وليس هو بتلك الصفة. قاله النووي[٢].

وثوب الزُّور: هو ثوب الكذب والبهتان. وإنما جعل النبي ﷺ التشبيه على التثنية لا على الإفراد؛ لوجود طرفين: الأخذ والإظهار، فهو مزوِّر؛ لأنه أخذ ثوبًا ليس له، وهو مزوِّر في إظهاره للناس كأن هذا الثوب ملكٌ له، والحقيقة أنه ليس له، فهكذا من أظهر أنه يحسن العلم ويقدر على الفتوى فهو مزوِّر تحمُّلًا، ومزوِّرٌ أداءً، فهو مزور؛ لأنه يفتي بشيء لم يتلقَّه عن غيره، ومزوّر ـ أيضًا ـ؛ لأنه يؤدي لغيره هذه الفتوى.

خلاصة آداب المفتي

وقد رأيت في نهاية الكلام على هذا الأدب العظيم من آداب المفتي أن ألخص من كلام أهل العلم أهم ما جاء في الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها المفتي؛ إتمامًا للفائدة، فمن هذه الآداب:

١ ـ الشعور بالافتقار إلى الله تعالى في إلهام الصواب والدعاء بما يناسب المقام، وألا يغتر المفتي بعلمه وسعة اطلاعه وظهور منزلته عند الناس.

٢ ـ حسن النية، وسلامة القصد، وهذا رأس الأمر، وهو الجالب بإذن الله تعالى للتوفيق والقبول، وعليه أن يحذر الفتوى التي يُقصد من وراءها مجاراة هوى، أو موافقة سلطان، أو حصول على شيء من حطام الدنيا أو عرض من أعراضها.

٣ ـ أن يحذر التساهل في الفتوى، فلا يفتي إلا إذا كان عارفًا بالحكم يقينًا أو ظنًّا راجحًا، بعد استفراغ الوسع في البحث، وإلا وجب عليه التوقف. وقد مضى الكلام في ذلك.

---

(١) «دليل الفالحين» (٤/ ٤٠٢).

(٢) انظر: «رياض الصالحين» (ص٥٠٠).

٤ ـ معرفة أحوال الناس والتعرف لتصرفاتهم، ومعرفة مكرهم وخداعهم، فكم من مسألة ظاهرها ظاهر جميل، وباطنها مكر وخداع وظلم.

٥ ـ مراعاة العرف والعادة، ولا سيما في الأوقاف والوصايا والأيمان وغيرها مما له تعلق بألفاظ الناس واختلافها باختلاف الأمكنة والأزمنة.

٦ ـ أن يكون المفتي واسع الصدر، رفيقًا بالمستفتي، صبورًا عليه، يتغاضى عن غليظ العبارات وجفاء التعامل، فضلًا عن سَفَهِ السفهاء وجهالة العوام.

٧ ـ ألا يتسرع في الفتوى، أو يتعجل، بل يتأنى ويتفهم السؤال، ويتأمل في قرائن أحوال المستفتي؛ ليتمكن من الحكم على السؤال؛ لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

٨ ـ أن يكون واضحًا في الإجابة، مبينًا لها بيانًا شافيًا كافيًا، ويرفق بالسائل، ويصبر على تفهم السؤال وتفهيم الجواب، محتسبًا أجر ذلك، فإنه جزيل.

٩ ـ العناية بالتيسير على الناس، ومراعاة أحوالهم وظروفهم وعاداتهم، ورفع المشقات عنهم ودفعها، بشروط ذلك وضوابطه.

١٠ ـ ألا يفتي إذا كان لديه ما يشغله ويصرف قلبه ويمنعه التثبت والتأمل، من مرض، وشدة غضب، أو غلبة نوم أو نعاس، أو غَمٍّ أو هَمٍّ، أو مدافعة الأخبثين، وكل ما يخرج عن حد الاعتدال والنظر والتأمل.

١١ ـ إذا أشكل عليه معنى كلام المستفتي سأله عنه، وإن كان يحتاج إلى تفصيل استفصله، أو ذكر التفصيل في الجواب.

١٢ ـ النصح والشفقة على المستفتي، ولهذا صور كثيرة ووجوه متعددة، من أبرزها: دلالته على الأمر المباح حين يُستفتى عن أمر محرم، فيمنعه مفتٍ منه، وحاجته تدعو إليه.

١٣ ـ إذا كان عند المفتي من يثق بعلمه ودينه فينبغي له أن يشاوره، ولا يستقل بالجواب ذهابًا بنفسه وارتفاعًا بها عن أن يستعين على الفتوى بغيره من أهل العلم.

١٤ ـ إذا كانت الحادثة المسؤول عنها قد وقعت وجبت الفتوى، وإلا لم تجب؛ لعدم الضرورة، إلا أن يكون قصد السائل التعلم؛ فإنه لا يجوز كتم العلم، بل يجب عليه الجواب متى سئل بكل حال[(١)]. والله أعلم.



(١) انظر: «أدب المفتي والمستفتي» لابن الصلاح (ص١٠٦ وما بعدها)، «إعلام الموقعين» (٦/ ٤٠ وما بعدها)، «المفتي في الشريعة الإسلامية» للدكتور عبد العزيز الربيعة (ص٢٨ وما بعدها)، «الأصول من علم الأصول» (ص٥٥). خطبة الشيخ صالح بن حميد ـ وفقه الله ـ بتاريخ ٢٨/ ٢/ ١٤٣٩هـ.



آداب الدارس «المتعلِّم» (١)

* أما آدابه في نفسه: فكآداب الـمُدرِّس، وقد أوضحناها.

* وينبغي أن يُطَهِّر قلبه من الأدناس؛ ليصلح لقبول العلم وحفظه واستثماره، وأن يقطع العلائق الشاغلة عن كمال الاجتهاد، ويرضى باليسير من القوت، ويصبر على ضيق العيش.

* قال أبو حنيفة رضي الله عنه: «يُستعان على العلم بجمع الهَمِّ، ويستعان على حذف العلائق بأخذ اليسير عند الـحاجة».

* وقال الخطيب البغدادي: يستحب للطالب أن يكون عزبًا ما أمكنه؛ لئلا يقطعه الاشتغال بحقوق الزوجة والاهتمام بالـمعيشة عن إكمال طلب العلم.

الشرح

قوله: (أما آدابه في نفسه: فكآداب المُدرِّس، وقد أوضحناها) تقدم أول الكتاب أن الدارس ـ والمراد به: المتعلم والطالب الذي يتلقى العلم والتربية ـ هو أحد الأركان الأربعة التي تقوم عليها وظيفة التربية والتعليم، بل هو المقصود بذلك.

القسم الأول: أدبه في نفسه
١ ـ إخلاص النية في طلب العلم

وهذا المتعلم له آداب في نفسه، ومع معلمه، وفي درسه، فهذه ثلاثة أقسام. وتحت كل قسم منها جملة من الآداب.

أما آدابه في نفسه فهي مثل آداب المدرس، وقد تقدم الكلام عليها، وأهمها: النية، ونية العلم مبنيّةٌ على أربعة أمور:

١ ـ أن ينوي المتعلم رفع الجهل عن نفسه؛ لأن الأصل في الإنسان الجهل، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨].

٢ ـ أن ينوي رفع الجهل عن غيره، قال الإمام أحمد: طلب العلم أفضل الأعمال لمن صحّت نيته، قيل: فأيُّ شيء تصحيح النية؟ قال: «ينوي يتواضع فيه، وينفي عنه الجهل». وفي رواية: «العلم لا يعدله شيءٌ».

٣ ـ أن ينوي العمل بالعلم؛ لأنه لا يكون عمل صحيح إلا بعلم، وثمرة العلم العمل.

٤ ـ أن ينوي حفظ الشريعة، وحمايتها والدفاع عنها، وحفظ العلوم وصيانتها من الضياع[١].

ولا يؤثر على صحة النية طلب العلم لنيل الشهادة إذا كان يقصد بها مرتقى ينفع فيه الأمة[٢].

٢ ـ تطهير القلب من الأدناس

قوله: (وينبغي أن يُطهِّر قلبه من الأدناس؛ ليصلح لقبول العلم وحفظه واستثماره)؛ أي: ومن آداب المتعلم المتأكدة: أن يطهر قلبه من الأدناس، مثل: الغش والغل والحسد وسوء المعتقد وسوء الظن، وغيرها من الأخلاق السيئة، وذلك ليكون قلبه صالحًا لقبول العلم وحفظه والاستفادة منه، والعمدة في هذا قوله ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[٣].

---

(١) انظر: «الفروع» (٢/٣٣٩)، «كتاب العلم» للشيخ محمد العثيمين (ص٢٥ ـ ٢٦ ـ ١٩٨)، «شرح تذكرة السامع والمتكلم» للشيخ صالح العصيمي (ص٧٢).
(٢) انظر: «كتاب العلم» (١٩٩ ـ ٢٠٠).
(٣) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

فإذا طهر القلب من رذائل الأخلاق، ومذموم الأوصاف، ورديء الخصال، أصبح صالحًا لقبول العلم وحفظه والاطلاع على دقائق معانيه وحقائق غوامضه، فإن العلم ـ كما تقدم ـ: صلاة السر، وعبادة القلب، وقربة الباطن، فكما لا تصح الصلاة التي هي عبادة الجوارح الظاهرة إلا بطهارة الظاهر من الحدث والخبث، فكذلك لا يصح العلم الذي هو عبادة القلب إلا بطهارته عن مساوئ الأخلاق ورديئها.

وإذا طُيِّب القلب للعلم ظهرت بركته ونما؛ كالأرض إذا طُيّبت للزرع نما زرعها وزكا، قال سهل بن عبد الله التُّستَري: «حرام على قلب أن يدخله نورٌ وفيه شيء مما يكره الله »؛ أي: من أعمال القلوب وأحوالها[1].

٣ ـ التفرغ للطلب

قوله: **(وأن يقطع العلائق الشاغلة عن كمال الاجتهاد)**؛ أي: ينبغي لطالب العلم أن يحرص على التفرغ للطلب، وذلك بالبعد عن كل ما يشغله عن كمال الاجتهاد في التحصيل، إلا شيئًا لا بد منه للحاجة. وقد تقدم شيء من ذلك.

٤ ـ الرضا باليسير من القوت

قوله: **(ويرضى باليسير من القوت)** المراد به: ما يغذِّي به الإنسان نفسه بحيث يستطيع القيام بمصالحه، مراعيًا في ذلك الاكتفاء باليسير، وذلك بأكل القدر اليسير من الحلال، فكثرة الأكل جالبة لكثرة الشرب، ثم كثرة النوم، وحصول البلادة، وقصور الذهن، وفتور الحواس، وكسل الجسم.

أبيات في الحث على قلة الطعام

قال القحطاني رَحِمَهُ اللهُ في نونيته:

لا تَحْشُ بَطْنَكَ بالطعام تَسَمُّنًا ... فجُسومُ أهلِ العلم غيرُ سِمانِ
لا تَتَّبِعْ شهواتِ نفسِكَ مُسْرفًا ... فاللَّهُ يبغضُ عابدًا شَهْواني
أَقْلِلْ طَعَامَكَ ما استطعتَ فإنَّهُ ... نَفْعُ الجُسوم وصِحَّةُ الأبدانِ
وامْلِكْ هَواكَ بِضَبْطِ بَطْنِكَ إنَّهُ ... شَرُّ الرِّجَالِ العَاجِزُ البَطْنانِ

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٨٦).

تقليل الأكل مطلب أصيل

وقد أجمع المربون على أن تقليل الأكل مطلب أصيل للمسلم عمومًا، ولطالب العلم خصوصًا، وطريق تقليل الأكل التأمل في منافع قلة الطعام، والاقتصار على ما يقيم البدن، وهي الصحة والعفة والإيثار، والتأمل في مضارّ كثرة الأكل، وهي الأمراض، وملالة الطبع، وكسله عن الإدراك[(١)].

٥ ـ الصبر على ضيق العيش

قوله: (ويصبر على ضيق العيش) لينال سعة العلم؛ لأنه إذا جُمع شمل القلب عن متفرِّقات الآمال تفجرت منه ينابيع الحكم، وهذا إنما يتم في حال الفقر، ولا يكون مع الغنى والسعة؛ لأن الغني قلبه مشغول بأمواله، فهو يصل سواد الليل ببياض النهار في جمعها وحسابها وتنميتها، بخلاف الفقير. قال سفيان الثوري: «المال داء هذه الأمة، والعالم طبيب هذه الأمة، فإذا جرَّ العالم الداء إلى نفسه فمتى يبرئ الناس؟!»[(٢)].

احتياج الطالب إلى القناعة والاقتصاد

والقناعة باليسير والاقتصاد في أمر المعيشة مطلوب من كل أحد، ولا سيما المشتغلون بالعلم؛ فإنه كالمتعين عليهم؛ لأن العلم وظيفة العمر كله أو معظمه، فمتى زاحمته الأشغال الدنيوية والضروريات حصل النقص بحسب ذلك، والاقتصاد والقناعة من أكبر العوامل لحصر الأشغال الدنيوية، وإقبال المتعلم على ما هو بصدده[(٣)].

ينبغي للطالب الاهتمام بأمرين

وينبغي لطالب العلم ـ أيضًا ـ التقيد بأمرين نافعين:

١ ـ أن يقلِّل من نومه، ما لم يلحقه ضرر في بدنه وذهنه، ولا يزيد في نومه عن ثمان ساعات؛ فإن احتمل حاله أقل من ذلك فعل[(٤)].

---

(١) «تعليم المتعلم» وشرحه (ص٢٧).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٤٣)، وانظر: «حلية الأولياء» (٦/ ٣٦١).
(٣) انظر: «الفتاوى السعدية» (ص٦٣٢).
(٤) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٩٢).

٢ ـ أن يأخذ نفسه بالورع في جميع شؤونه، ويتحرَّى في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه، وفي جميع ما يحتاج إليه هو وعياله؛ ليستنير قلبه، ويصلح لقبول العلم ونورِه والنفع به. قال الزرنوجي: «مهما كان طالب العلم أورع، كان علمه أنفع، والتعلم له أيسر، وفوائده أكثر. ومن الورع الكامل: أن يحترز عن الشبع وكثرة النوم، وكثرة الكلام فيما لا ينفع... وقد كان العلماء يتورعون فلذلك وُفِّقُوا للعلم والنشر حتى بقي اسمهم إلى يوم القيامة... ومن الورع أن يجتنب أهل الفساد والمعاصي والتعطيل ويجاور الصلحاء، فإن المجاورة مؤثرة لا محالة...»[١].

٦ ـ جمع الهمِّ والتفرغ من الشواغل

قوله: **(قال أبو حنيفة رضي الله عنه[٢]: يستعان على العلم[٣] بجمع الهَمِّ)** روى هذا الخطيب بسنده عن مليح بن وكيع قال: سمعت رجلًا يسأل أبا حنيفة: بم يستعان على الفقه حتى يُحفظ؟ قال: «بجمع الهَمِّ» قال: قلت: وبم يستعان على حذف العلائق؟ قال: «بأخذ الشيء عند الحاجة، ولا تزد»[٤] ومعنى جمع الهم: جمع ذهنه ومراد نفسه عليه.

وعدم تشتت الذهن مطلب أصيلٌ في حقِّ العالم والمتعلم، ومما يعين على ذلك: التقلل من الدنيا، وتقليل الارتباط بالآخرين. قال ابن الجوزي: «لا عيش في الدنيا إلا للقنوع باليسير؛ فإنه كلما زاد الحرص على فضول العيش زادَ الهمُّ وتَشتَّتَ القلبُ، واستُعبد العبد، وأما القنوع فلا يحتاج إلى مخالطة من فوقه، ولا يبالي بمن هو مثله؛ إذ عنده ما عنده»[٥].

(١) «تعليم المتعلم» (ص٥٠ ـ ٥٢) بتصرف.
(٢) هذا تعبير القاسمي، والذي في الأصل: «رحمه الله» إلا إن كانت نسخة القاسمي من «المجموع» كذلك.
(٣) في «الفقيه والمتفقه»: الفقه ـ كما تقدم ـ، وكذا في الأصل، وكأن القاسمي رأى أنها أعم، إلا أن تكون في نسخته كذلك.
(٤) «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٨٤).
(٥) «صيد الخاطر» (ص٤٨٢).

كيف يُستعان على جمع الهمِّ؟

قوله: (ويستعان على حذف العلائق بأخذ اليسير عند الحاجة)

العلائق: هي ما يفرِّق الهم ويشتت الذهن، من المتعلقات النفسانية الداخلية التي تنبعث من محبة الدنيا والحرص عليها عند ذوي الغنى واليَسَار، وحذفها هو عدم التفكير فيها أو الاهتمام بها، فإذا أخذ باليسير عند الحاجة ولم يزد سَلِمَ من ذلك، فإن زاد كثرت تعلقاته النفسانية وعظمت وصعُبَ علاجها؛ لأن العلائق صارفة وشاغلة للقلوب، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، وإذا توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق وفهم الدقائق. وقد قيل: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، فإذا أعطيته كلك فأنت على خطر من الوصول إلى بعضه، وأيضًا: الفكرة المتوزعة كجدول تفرق ماؤه فيختطف منه الهواء، وينشف بعضه في الأرض، فلا يبقى منه ما يبلغ المزرعة[(١)].

كلام العلماء في أهمية القناعة لطالب العلم

وتقدم قول الشيخ عبد الرحمٰن السعدي: «اعلم أن القناعة باليسير والاقتصاد في أمر المعيشة مطلوب من كل أحد، لا سيما المشتغلون بالعلم، فإنه كالمتعين عليهم؛ لأن العلم وظيفة العمر كله أو معظمه، فمتى زاحمته الأشغال الدنيوية والضروريات حصل النقص بحسب ذلك، والاقتصادُ والقناعةُ من أكبر العوامل لحصر الأشغال الدنيوية، وإقبال المتعلم على ما هو بصدده»[(٢)].

وقد روى الخطيب بسنده عن حرملة قال: سمعت الشافعي يقول: «لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعزِّ النفس فيُفلح، ولكن من طلبه بذُلِّ النفس، وضيق العيش، وخِدْمة العلماء أفلح»[(٣)] وروى ـ أيضًا ـ عن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي يقول: «لا يصلح طلب العلم إلا لمفلس. فقيل: ولا الغنيُّ المكفيُّ؟ فقال: «ولا الغنيُّ المكفيُّ»[(٤)].

---

(١) انظر: «مفتاح السعادة ومصباح السيادة» (١/ ١٩).
(٢) «الفتاوى السعدية» (ص٦٣٢).
(٣) «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٨٤).
(٤) «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٨٦ ـ ١٨٧).

وهذا من الشافعي لا يراد به عيب غنى طالب العلم، ولكن المراد به بيان ضرر الغنى وخطره على طالب العلم؛ لأن الإنسان في كسب المال لا يقف عند حدّ، وإلا فمعلوم أن الفقير قد يكون عالة على غيره، وهذا يتنافى مع تعاليم الإسلام في الحث على الكسب. وقد تقدم قول عبد الرحيم بن سليمان الرازي كُنَّا عند سفيان الثوري، فكان إذا أتاه الرجل يطلب العلم سأله: هل لك وجه معيشة؟، فإن أخبره أنه في كفاية أمره بطلب العلم، وإن لم يكن في كفاية أمره بطلب المعاش»[1].

٧ـ أن يكون الطالب عزبًا

قوله: **(وقال الخطيب البغدادي[2]: يستحب للطالب أن يكون عزبًا ما أمكنه؛ لئلا يقطعه الاشتغال بحقوق الزوجة والاهتمام بالمعيشة عن إكمال طلب العلم)**؛ أي: إن الخطيب البغدادي ذكر في كتابه «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» أنه يستحب لطالب العلم إيثار العزوبة وترك الزواج.

وجه استحباب كون الطالب عزبًا

وما ذكره الخطيب قال به من يرى تقديم الدراسة على الزواج، وأن الأولى بالطالب أن يؤثر الدراسة والتعلم على الزواج فيبقى عزبًا، وذلك من أجل التفرغ لطلب العلم، وقوة التحصيل؛ لأن الذي لم يتزوج يبقى ذهنه محصورًا فيما هو بصدده، ويبقى وقته كله للتحصيل العلمي والاستزادة منه، فلا يصرف شيئًا من وقته للاشتغال بحقوق الزوجة، وتوفير معيشة الأسرة، والسهر على راحتها، وتربية الولد، وما

---

(١) «الجامع» للخطيب (١/٩٨).

(٢) هو: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، أحد الحفاظ المؤرخين المقدمين، اشتهر بالخطيب لأن أباه كان خطيبًا، فانتقل هذا اللقب إليه، قال الذهبي: (رحل في العلم إلى الأقاليم، وبرع وصنف وجمع، وسارت بتصانيفه الركبان وتقدم في عامة فنون الحديث) لما مرض مرضه الأخير وقف كتبه وفرق جميع ماله في وجوه البر وعلى أهل العلم والحديث، مؤلفاته كثيرة من أفضلها: «تاريخ بغداد»، ومنها: «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»، «الكفاية في علم الرواية»، «الفقيه والمتفقه»، وغيرها (ت٤٦٣)، «تذكرة الحفاظ» (٤/١١٣٥)، «الأعلام» (١/١٦٦).

يترتب على ذلك من الروابط الاجتماعية المترتبة على ذلك الزواج[١].

الأظهر في مسألة عزوبة طالب العلم

وهذا فيه معارضةٌ للنصوص الدالة على مشروعية الزواج والترغيب فيه، وما فيه من المصالح العظيمة التي ليس هذا موضع بيانها، وما عُرِف أن الزواج يصدُّ عن طلب العلم، وإنما الشأن في همة الطالب، واستفادته من وقته.

والأقرب أن تفرُّغ الشاب في أول عمره لطلب العلم والجدِّ في التحصيل، وجمع الهمّ على ذلك مطلوب، فإن قوِيت رغبته في الزواج وقدر عليه، فليتزوّج، ففي ذلك تحصين الفرج، وغضُّ البصر، وتكثير نسل الصالحين، والزواج معين على الدراسة ومهيئٌ لها، ولا دراسة بلا مطعم وملبس ومسكن، والتفرغ حقيقة ليس بترك الزواج بل بالتجرّد من الشواغل الأخرى، كما تقدّم.

وقد يكون الخطيب عاش عَزَبًا، ولعل مزاجه كان كذلك، ولا ندري ما سبب عزوبته ـ إن ثبتت ـ والذين ترجموا له لم يصرحوا بأنه عاش أعزب، ولا أنه لم يتزوج، وإنما ذكروا أنه لم يترك عقبًا، وليس له وارث[٢].

والأسباب التي عزف لأجلها عدد قليل من العلماء عن الزواج متعددة، منها: عدم القدرة على الجماع، ومنها غلبة التنسُّك، ومنها الإملاق وضيق الحال، ومنها المرض والزَّمانة وغيرها، ثم إنه لا يلزم من ترك الزواج عند بعض المتقدمين عدم التسرِّي، فلا تتحقق العزوبة إذن، وأما إيثار العلم على الزواج فليس هو السبب الوحيد في عزوف العلماء عن الزواج[٣]. والله أعلم.

---

(١) انظر: «الزواج والدراسة» للدكتور: فهد السنيدي (ص١١١).

(٢) انظر: مقدمة «الجامع» (١/ ٣١)، «الذين لم يتزوجوا من العلماء وغيرهم» للشيخ: بكر أبو زيد (ص١٠).

(٣) انظر: رسالة «العلماء العزاب» للشيخ: عبد الفتاح أبو غدة، رسالة «الذين لم يتزوجوا من العلماء وغيرهم» للشيخ: بكر أبو زيد «الزواج والدراسة» (ص١٢٥).

الدرس الحادي عشر

من آداب الدارس (٢)

❁ وأن يتواضع للمعلم وينقاد له ويأتمر بأمره، كما ينقاد الـمريض لطبيب حاذق ناصح.

❁ ولا يأخذ العلم إلَّا ممن كملت أهليته، وظهرت ديانته، وتحققت معرفته، وكان له دُربةٌ، وخُلق جميل، وذهن صحيح، واطلاع تام.

❁ وينبغي أن ينظر معلِّمَهُ بعين الاحترام والرجحان على أكثر طبقته، فهو أقرب إلى انتفاعه به ورسوخ ما سمعه منه في ذهنه، وقد قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (كنت أصَّفِّح الورق بين يدي مالك صفحًا رفيقًا؛ هيبة له؛ لئلا يسمع وقعها). وقال الربيع: (والله ما اجترأت أن أشرب الـماء والشافعي ينظر إليَّ؛ هيبة له).

❁ ويروى عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (من حق العالـم عليك أن تُسَلِّمَ على القوم عامة، وتخصه بالتحية، وأن تجلس أمامه، ولا تشير عنده بيدك، ولا تغمزن بعينك غيره، ولا تقول: قال فلان خلاف قوله، ولا تغتابن عنده أحدًا، ولا تُسَارَّ في مجلسه، ولا تأخذ بثوبه، ولا تُلِحَّ عليه إذا كَسِل، ولا تشبع من طول صحبته؛ فإنما هو عليك كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيءٌ).

❁ ومن آداب الـمتعلِّم: أن يتحرَّى رضا الـمُعلم وإن خالف رأي نفسه، ولا يفشي له سرًّا، وأن يرد غِيبته إذا سمعها، فإن عَجَزَ فارق الـمجلس.

الشرح

القسم الثاني: آداب الدارس مع معلمه

هذا شروع من المصنف رحمه الله تعالى في بيان آداب المتعلم مع معلمه، وآدابه في درسه وحضوره مجلس العلم، وما يُعتمد في ذلك مع الشيخ والرفقة.

١ ـ التواضع للمعلم والانقياد له

قوله: (وأن يتواضع للمعلم وينقاد له) هذا في بيان خلق الطالب مع معلمه، وهو التواضع للمعلم والانقياد له، والائتمار بأمره، وقبول قوله في حدود المروءة والأدب، فهو كالمريض العاقل يقبل قول الطبيب الناصح الحاذق، بل هو أولى، وينبغي تقييد هذا بكمال المعلم في علمه وأخلاقه وتقواه، فإذا كان كذلك فإن «ذُلَّهُ لمعلمه عِزٌّ، وخضوعه له فخرٌ، وتواضعه له رفعة»[١] «ورعاية حرمة المعلم عنوان النجاح والفلاح والتحصيل والتوفيق»[٢].

وليس من احترام الشيخ ورعاية حقه ما يصدر من بعض الطلبة من الآداب الخارجة عن حدود الشرع من لَحْس الأيدي، وتقبيل الأكتاف، والقبض على اليمين باليمين والشمال عند السلام، والانحناء عند السلام، واستعمال الألفاظ الرخوة المتخاذلة: سيدي، مولاي، ونحوها من ألفاظ الخدم والعبيد[٣]، بل ينبغي للطالب أن يترفع عن مثل ذلك، وأن يكون احترامه لمعلمه مقيدًا، كما تقدم.

وعليه أن يحذر التكبر، فمع التكبر لا يحصل العلم، وإنما يحصل العلم بالتواضع. قال عبد الله بن المعتز: «المتواضع في طلاب العلم أكثرهم علمًا، كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماءً»[٤]. قال الشاعر:

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٩٧).
(٢) «حلية طالب العلم» (ص٢٥).
(٣) انظر: المصدر السابق (ص٢٦).
(٤) «الجامع» للخطيب (١/ ١٩٨).

العِلْمُ حَرْبٌ لِلفَتَى المُتَعَالي   كالسَّيْلِ حَرْبٌ لِلمَكانِ العَالِي[(١)]

والمعنى: أن العلم عدوٌّ للمتكبر المختال لا يجتمع معه؛ كالسيل حربٌ للمكان العالي؛ لأن المكان العالي لا يبقى فيه السيل ولا يستقر عليه، بل ينحدر إلى المكان المنخفض.

وقد مضى الكلام في التواضع الذي هو ضد التكبر بما فيه كفاية.

٢ـ اختيار الشيخ وصفات من يؤخذ عنه

قوله: **(ولا يأخذ العلم إلا ممن كملت أهليته... إلخ)** هذا في بيان صفة من يؤخذ عنه العلم، وقد ذكر المؤلف لذلك سبع صفات:

* كمال الأهلية

الأولى: **كمال الأهلية**: والأهلية معناها: الصلاحية والجدارة، وذلك بأن يكون قد تضلع بالعلوم الشرعية، علوم الغاية: من تفسير وحديث وعقيدة وفقه، وأن يكون له نصيب وافر من علوم الآلة: من نحو ولغة وأصول، مع كثرة المطالعة والقدرة على استنباط الأحكام الشرعية.

* ظهور الديانة

الثانية: **ظهور الديانة**: أي ظهور الصلاح والتدين والاستقامة على العالم؛ لأن ظهور الديانة واستقامة المظهر دليل على الانتفاع بالعلم، إذ العالم أولى الناس بأن ينتفع بعلمه، فإن لم ينتفع فلا خير فيه. قال محمد بن سيرين: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم»[(٢)]. وقال إبراهيم النخعي: «كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى سَمْتِهِ وإلى صلاته وإلى حاله، ثم يأخذون عنه»[(٣)]. وقال أيضًا: «كنا إذا أردنا أن نأخذ عن شيخ سألنا عن مطعمه ومشربه ومدخله ومخرجه، فإن كان على استواء أخذنا عنه وإلا لم نأته»[(٤)]. وقال مالك بن دينار: «إن العالم إذا لم يعمل زلت موعظته عن القلوب كما يَزِلُّ المطر عن الصفا»[(٥)].

---

(١) «تعليم المتعلم طريق التعلم» (ص٢٢).
(٢) رواه مسلم في المقدمة (١/ ١٤).
(٣) «الجامع» للخطيب (١/ ١٢٨).
(٤) «الكامل في الضعفاء» (١/ ١٥٤).
(٥) «الجامع» لابن عبد البر (١/ ٧٠٢).

* تحقق المعرفة

الثالثة: تحقق المعرفة: وقد بين الشاطبي أن هذا التحقق يتم بأمور أربعة:

١ ـ أن يكون العالم عارفًا بأصول علمه، وما ينبني عليه ذلك العلم.

٢ ـ قادرًا على التعبير عن مقصوده فيه.

٣ ـ عارفًا بما يلزم عنه.

٤ ـ قادرًا على دفع الشبه الواردة عليه فيه[(١)].

* حصول الدُّربة

الرابعة: حصول الدُّربة: وهي اسم مصدر من دَرِبَ من باب: تَعِبَ، وهي الضراوة والجرأة، ومعنى ذلك: أن يكون له مع من يوثق به من مشايخ عصره كثرة بحث، ومناقشة، وطول اجتماع. سئل الإمام مالك: أيؤخذ العلم عمن ليس له طلب ولا مجالسة؟ فقال: «لا»، فقيل: أيؤخذ ممن هو صحيح ثقة غير أنه لا يحفظ، ولا يفهم ما يُحدث، فقال: «لا يكتب العلم إلا ممن يحفظ، ويكون قد طلب، وجالس الناس، وعرف وعمل، ويكون معه ورع»[(٢)].

* الخلق الجميل

الخامسة: الخلق الجميل: لأن صاحب الخلق الجميل عامل بعلمه، نافع لطلابه؛ لأن الطالب يأنس بمعلمه ويستفيد من هديه وسمته إذا كان ذا خلق وبشاشة وتواضع، ومن المقرر أن أخلاق المعلم تسري إلى طلابه من حيث لا يشعر، لأن الطالب مولع بمحكاة معلمه والاقتداء به، وما أجمل وصية عتبة بن أبي سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمؤدب ولده! وقد جاء منها قوله: «ليكن أولَ إصلاحك بنيَّ إصلاحُ نفسك؛ فإن عيوبهم معقودة بعيبك، فالحسنُ عندهم ما فعلتَ، والقبيحُ ما تركتَ...»[(٣)].

---

(١) «الموافقات» (١/ ٩٢).

(٢) «إسعاف المبطأ برجال الموطأ» (ص٤).

(٣) روى الوصية ابن أبي الدنيا بسنده في كتاب «العيال» ضمن «الموسوعة» =

* وجود ذهن صحيح

السادسة: **وجود ذهن صحيح**: لأن صحة الذهن تولد الذكاء والقدرة على الاستنباط.

* الاطلاع التام

السابعة: **الاطلاع التام**: لأن كثرة الاطلاع تنمي العلم، وتدل على أن العالم قد أخذ من كل فَنٍّ بطرف، قال الخليل بن أحمد: «إذا أردت أن تكون عالمًا فاقصد لفن من العلم، وإن كنت أردت أن تكون أديبًا فخذ من كل شيء أحسنه»[١].

وجه اشتراط هذه الصفات

ووجه هذه الصفات أن أخذ العلم عبادة، وكلما كمُل من تأخذ عنه تلك العبادة كمل انتفاعك بها.

سئل عبد الله بن المبارك: هل للعلماء علامة يعرفون بها؟ قال: «علامة العالم: من عَمِلَ بعلمه، واستقل كثير العلم والعمل من نفسه، ورَغِبَ في علم غيره، وقَبِلَ الحق من كل من أتاه به، وأخذ العلم حيث وجده، فهذه علامة العالم وصفته». قال المروذِيُّ: فذكرت ذلك لأبي عبد الله. فقال: «هكذا هو»[٢].

وقال الشاطبي: «من أنفع طرق العلم الموصلة إلى غاية التحقق به أخذه عن أهله المتحققين به على الكمال والتمام... وللعالم المتحقق بالعلم أمارات وعلامات، وهي ثلاث:

١ ـ العمل بما عَلِمَ حتى يكون قوله مطابقًا لفعله، فإن كان مخالفًا له فليس بأهل لأن يؤخذ عنه، ولا أن يقتدى به في علم.

٢ ـ أن يكون ممن رباه الشيوخ في ذلك العلم؛ لأخذه عنهم، وملازمته لهم.

= (٤/ ٣٢٤)، وذكرها ابن قتيبة في «عيون الأخبار» (٢/ ١٦٦)، وجاءت كذلك عن الإمام الشافعي رحمه الله كما في «الحلية» لأبي نعيم (٩/ ١٤٧)، ومن طريقه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٣/ ١٨٧)، وقد جاء فيها عند أبي نعيم: «فإن أعينهم معقودة بعينك». وانظر: «الجامع في كتب آداب المعلمين» ص(٦٢٣، ٦٧٥).

(١) «الجامع» لابن عبد البر (١/ ٥٢٢).

(٢) «إبطال الحيل» لابن بطة العكبري (ص٢١ ـ ٢٢).

٣ ـ الاقتداء بمن أخذ عنه والتأدب بأدبه، كما في اقتداء الصحابة ﷺ بالنبي ﷺ، واقتداء التابعين بالصحابة ﷺ، وهكذا في كل قرن»[١].

٣ ـ النظر إلى معلمه بعين الاحترام والإعظام

قوله: (**وينبغي أن ينظر معلِّمَهُ بعين الاحترام والرجحان على أكثر طبقته، فهو أقرب إلى انتفاعه به ورسوخ ما سمعه منه في ذهنه**) هذا أدب عظيم من آداب المتعلم، وله أثر كبير على انتفاعه واستفادته، ألا وهو النظر إلى المعلم بعين الإجلال والإعظام والاحترام؛ لأن من احترم معلمه وعلا قدره عنده انتفع به ورسخ ما سمعه منه في ذهنه، بخلاف من احتقره فإنه يحرم الاستفادة منه؛ لأن الإنسان لا يستفيد ممن لا يراه أهلًا للإفادة. قال طاوس بن كيسان: «من السُّنَّة أن يوقَّر أربعة: العالم، وذو الشيبة، والسلطان، والوالد»[٢]. ولما جاء الإمام مسلم بن الحجاج ﵀ إلى الإمام البخاري ﵀ وقبَّل بين عينيه قال: «دعني حتى أقبل رجليك يا أُستاذ الأُستاذين، وسيد المحدثين، وطبيب الحديث في علله...»[٣].

أمثلة لما كان عليه الأولون من احترام الشيخ

قوله: (**وقد قال الشافعي: «كنت أَصَفِّحُ الورق بين يدي مالك صفحًا رفيقًا؛ هيبة له؛ لئلا يسمع وقعها». وقال الربيع[٤]: «والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إليَّ؛ هيبةً له»**)[٥] هذان مثالان لما كان عليه الأئمة والعلماء في احترام الشيخ وإجلاله. قال أحمد بن إسحاق الفقيه: «ما رأيت في المحدثين أهيب من إبراهيم بن أبي

(١) «الموافقات» (١/ ٩١ ـ ٩٣) بتصرف.
(٢) «شرح السُّنَّة» (١٣/ ٤٣).
(٣) رواه ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٤/ ٥٣١). وانظر: «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٤٣٢).
(٤) هو: الربيع بن سليمان المرادي مولاهم، صاحب الشافعي، وراوي كتب الأمهات عنه، كان مؤذنًا، وفيه سلامة وغفلة، لكن قبلت روايته فهو ثقة، وفاته سنة (٢٧٠) بمصر. تهذيب الكمال (٩/ ٨٧).
(٥) «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٤٥).

طالب، كنا نجلس كأن على رؤوسنا الطير، لقد عطس أبو بكر العنبري، فأخفى عطاسه، فقلت له سرًّا: لا تُخْفِ؛ فلست بين يدي الله تعالى»[١]. وهذا من أبلغ ما يكون من صور الاحترام والإجلال. وأين هذا ـ اليوم ـ مما عليه كثير من طلاب المدارس والجامعات وطلاب حلقات المساجد؟ والله المستعان!

جاء عن الشعبي أنه قال: «أمسك ابن عباس رضي الله عنهما بركاب زيد بن ثابت. فقال: أتمسك لي وأنت ابنُ عَمِّ رسول الله ﷺ؟ قال: إنا هكذا نصنع بالعلماء»[٢].

وقال سلمة بن عاصم لإدريس بن عبد الكريم: أريد أن أسمع كتاب العَدَدِ من خَلَفٍ. فقلت لخلف. قال: فليجئ. فلما دخل، رَفَّعَهُ لأن يجلس في الصدر، فأبى، وقال: لا أجلس إلا بين يديك. وقال: هذا حق التعليم. فقال له خلف: جاءني أحمد بن حنبل يسمع حديث أبي عوانة: فاجتهدت أن أُرَفِّعَهُ فأبى وقال: «لا أجلس إلا بين يديك، أُمرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه»[٣].

قال حمدان ابن الأصفهاني: كنت عند شريك بن عبد الله القاضي، فأتاه بعض ولد المهدي، فاستند الولد إلى الحائط، وسأله عن حديث، فلم يلتفت إليه شريك، ثم عاد، فعاد شريك بمثل ذلك، فقال: أتستخف بأولاد الخلفاء؟! قال: لا، ولكن العلم أجل عند الله من أن أضيعه. ويُروَى: العلم أزين عند أهله من أن يضيعوه، فجثا الولد على ركبتيه، فقال شريك: هكذا يطلب العلم[٤].

---

(١) «تذكرة الحفاظ» (٢/٦٣٨).

(٢) «الجامع» للخطيب (١/١٨٨)، «الفقيه والمتفقه» (١/١٩٧)، وصححه ابن حجر في «الإصابة» (٤/٤٢ ـ ٤٣).

(٣) «الجامع» للخطيب (١/١٩٨).

(٤) «الحث على طلب العلم» للعسكري (ص٨٤ ـ ٨٥)، وانظر: «سير أعلام النبلاء» (٨/٢٠٧).

يعني: أن حالة هذا الولد المستند للجدار حالة استخفاف بالعلم وأهله، فلا ينبغي لأهل العلم أن يضيعوه، بأن يضعوه عند من لم يهتم به، ولم يرفع به رأسًا. قال ابن جماعة: «ولا يستند بحضرة الشيخ إلى حائط أو مِخَدَّةٍ، . . . أو يجعل يده عليها، ولا يعطي الشيخ جنبه أو ظهره، ولا يعتمد على يده إلى ورائه، أو جنبه. . .»[(١)].

المعلم له حق عام وحق خاص

إن المعلم له عليك حق عام وحقٌّ خاص:

أما العام: فلكونه استعدَّ لنفع الخلق بتعليمه وفتواه، فحقه على الناس حق المحسنين، ولا إحسان أعظم وأنفع من إرشاد الناس، وإنارة الطريق أمامهم.

وأما الخاص: فَلِمَا بذل من وقته وجهده في تعليمك، وحَرَصَ على إرشادك وما فيه رفعتك، فليس نفع الآباء والأمهات نظيرًا لنفع المعلمين والمربين[(٢)].

ما روي عن عليّ رضي الله عنه في حق العالم على المتعلم، وشرحه

قوله: (ويروى عن علي قال: «من حق العالم عليك أن تُسَلِّم على القوم عامة، وتخصه بالتحية...)[(٣)] هذا الأثر عن علي في سنده ضعف، لكن جاء فيه آداب نفيسة، وأخلاق عالية يحتاجها المتعلم، في تعامله مع معلمه: في حديثه معه، وفي مجلسه، وفي درسه، وفي سؤاله، فهو مع ضعف سنده مَتْنُهُ جميل الألفاظ حَسَنُ المعاني، ولذا قال ابن جماعة: «لقد جمع في هذه الوصية ما فيه كفاية»[(٤)].

فقوله: (تُسَلِّمُ على القوم عامة، وتخصه بالتحية)؛ أي: لما له من الحقوق ومزيد الإكرام، كما سيأتي.

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص١٠٤).

(٢) انظر: «الفتاوى السعدية» (ص٦٢٦).

(٣) رواه الخطيب في «الجامع» (١/ ١٩٩)، وفي «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٩٨) بسند رجاله ثقات، لكن فيه انقطاع، ورواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٤٢٤) بسند ضعيف جدًّا.

(٤) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص١٠٥).

وقوله: **(وأن تجلس أمامه)**؛ أي: قريبًا منه، كما يأتي بسطه قريبًا ـ إن شاء الله ـ.

وقوله: **(ولا تشيرُ عنده بيدك)** لأن هذا خلاف الأدب في مجلس العلم؛ لأن المطلوب في مجلس العلم السكينة والوقار، والإشارة باليد ونحوها ليس من الوقار.

وقوله: **(ولا تغمزن بعينك غيره)**[١]؛ أي: لا تقصد بنظرك غير شيخك؛ لأن هذا دليل الإعراض. قال المبرد: «الاستماع بالعين، فإذا رأيت عين من تحدثه ناظرة إليك، فاعلم أنه يُحسن الاستماع»[٢].

وقوله: **(ولا تقول: «قال فلان خلاف قوله»)** لأن هذا وهنٌ في الأدب، وضربٌ لأقوال أهل العلم بعضها ببعض، فإن كنت لا بدَّ فاعلًا فقل: ما رأيك في الفتوى بكذا؟ ولا تسمِّ أحدًا، ومن طبيعة النفوس أنها لا تحب إيراد قول غيرها في معرض السؤال، ومن القواعد العظيمة: كلام الأقران يُطوى ولا يروى»[٣].

وقوله: **(ولا تغتابنَّ عنده أحدًا)** لئلا يكون مجلس العلم الذي تحفه الملائكة مجلس لغوٍ وباطل.

وقوله: **(ولا تسارَّ في مجلسه)**؛ أي: لا تتحدث مع أحد سرًّا في مجلس العلم؛ لأن هذا إعراض عن العالم وعن درسه.

وقوله: **(ولا تأخذ بثوبه)**؛ أي: لا تأخذ بثوب العالم إذا نهض، طالبًا منه استمرار الجلوس، فهذا فيه من سوء الأدب ما فيه، وإذا كان مرذولًا مع آحاد الناس فكيف بالعالم؟!.

---

(١) هكذا في المطبوع، ومثله في «الجامع» للخطيب وابن عبد البر، وفي الأصل: (ولا تعمدن)، وعند ابن جماعة في مصورة دار الكتب العلمية (ص١٠٠)، وفي طبعة دار البشائر (ص١٠٤): [ولا تعْمِدْ]، وهي مضارع عمد، من باب ضرب: إذا قصد.

(٢) «بهجة المجالس» (١/ ٤٤).

(٣) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٩٢).

وقوله: (ولا تلح عليه إذا كسل)؛ أي: لأنك لا تستفيد منه. وسيأتي مزيد لهذا ـ إن شاء الله ـ.

وقوله: (ولا تشبع من طول صحبته؛ فإنما هو عليك كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيءٌ)؛ أي: لا تمل من صحبة العالم ومجالسته والاستفادة منه؛ لأن ذلك غنيمة، فهو مثل النخلة ينتظر الجالس تحتها متى يسقط عليه شيء من ثمرها.

٤ ـ الحرص على رضا المعلم وإن خالف رأي نفسه

قوله: (ومن آداب المتعلِّم: أن يتحرَّى رضا المُعلم وإن خالف رأي نفسه)؛ أي: ومن الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها المتعلم أن يحرص على رضا معلمه، وأن يتسع صدره إذا سمع من شيخه قولًا أو دليلًا لم يظهر له صوابه، بل عليه أن يأخذ ذلك بالقبول ولو خالف رأي نفسه، كما عليه أن يحمل ما سمع من شيخه على حسن النية والاجتهاد والتماس العذر، وليس الإنسان ـ مهما بلغ من العلم ـ بمعصوم من الخطأ أو الوهم، وعليه أن يحذر إظهار شيء من علامات السخرية والتعجب؛ كأن يقطب جبينه، أو يغمز بعينه أو يشير بيده إلى أحد صحبته، أو نحو ذلك مما يشعر بالاستهانة بالعلم وأهله، والمتعلم إذا لم يسلك مسلك الرضا فقد يخشى عليه الوقوع في الغيبة أو تشويه سمعة العالم.

ولا مانع من أن المتعلم يتكلم مع شيخه فيما سمعه منه لأجل أن تتبين له حقيقة الأمر، لكن لا ينبغي أن يكون ذلك علنًا أمام الملأ، وإنما ينتظر حتى ينفرد به. وقد تقدم الكلام في ذلك.

٥ ـ حفظ سرِّ الشيخ وعدم إفشائه

قوله: (ولا يفشي له سرًّا)؛ أي: إذا استودعه شيخه سرًّا، فإنه يحفظه ويكتمه ولا يفشيه لأحد كائنًا من كان؛ لأن السر أمانة، وإفشاؤه خيانة، وما سمي السر سرًّا إلا لأنه لا يُفشى، وتحصينُ السر للعاقل أولى به من التلهف بالندم بعد خروجه منه.

قال الشاعر:

لا يكتمُ السِّرَّ إلا من له شَرَفٌ والسِّرُّ عند كِرامِ الناس مكتومُ

السِّرُّ عندي في بيتٍ له غَلَقٌ ضَلَّتْ مفاتيحه والباب مختومُ[١]

٦ ـ ردُّ غيبة الشيخ أو مفارقة المجلس

قوله: (وأن يرد غِيبته إذا سمعها، فإن عَجَزَ فارق المجلس)؛ أي: إن الواجب على المتعلم ألا يسكت على غيبة تتعلق بشيخه سمعها في مجلسٍ ما؛ لأن الغيبة محرمة، بل نقل القرطبي وغيره الإجماع على أنها من الكبائر[٢].

وإذا كان هذا في غيبة عامة الناس، فغيبة العالم أعظم؛ لأنها إساءة إليه وإلى ما يحمله من علم الشريعة وإلى مكانته عند الناس.

عظم شأن غيبة العلماء

وغيبة العلماء أعظم من غيبة غيرهم من الناس. قال الإمام ابن عساكر الدمشقي: «واعلم يا أخي وفقنا الله وإياك لمرضاته وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته: أن لحوم العلماء ـ رحمة الله عليهم ـ مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة؛ لأن الوقيعة فيهم بما هم منه بَراءٌ أمره عظيم، والتناول لأعراضهم بالزور والافتراء مرتع وخيم، والاختلاف على من اختاره الله منهم لنشر العلم خُلُق ذميم»[٣].

تحذير طالب العلم أن يجرِّئ أحدًا على الطعن في العلماء

وعلى طالب العلم أن يحذر أن يُجرِّئ الرَّعَاعَ على الطعن في العلماء، فإن بعض طلبة العلم قد يتساهل في ذلك؛ فيجرئ الناس على القدح في أولي العلم بما يقذفه من أقوال لا يظنها تبلغ ما تبلغ، فيقول: فلان لا يُعتدُّ بتصحيحه، وفلانٌ لا يقبل رأيه، وقد يكون قول هذا المعترض حقًّا ولكنه يجب ألا يقوله عند العامة، وصغار طلبة العلم الذين لا يَزِنُونَ الأقوال، ولا يحسبون لها حسابًا؛ بل يأخذون تلك الكلمة فيجترئون ـ تحت ظل: «نحن رجالٌ وهم رجال» ـ على العلماء، ثم على الأئمة، وهكذا فالشر مبدأه شرارة[٤]. والله تعالى أعلم.

---

(١) انظر: «روضة العقلاء» (ص١٨٩ ـ ١٩١).
(٢) «تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٣٧)، «روضة الطالبين» (١١/ ٢٢٤).
(٣) «تبيين كذب المفتري» (ص٢٨).
(٤) انظر: «قواعد في التعامل مع العلماء» (١٠٥ ـ ١٠٦).

الدرس الثاني عشر

من آداب الدارس (٣)

❋ وألا يدخل عليه بغير إذن، وإذا كان معه غيره قَدَّمَ الأفضل والأسن.

❋ وأن يدخل كامل الهيبة فارغ القلب من الشواغل، مُتطهرًا، مُتنظفًا بسواك، وقص ظُفُر، وإزالة ريح كريه، ويُسَلِّم على الحاضرين بصوت يُسمعهم، ويخص الشيخ بزيادة إكرام، وكذلك يسلم إذا انصرف.

❋ ولا يتخطى رقاب الناس، ويجلس حيث انتهى به المجلس إلَّا أن يأذن المعلم أو الحاضرون بالتقدم والتَخَطِّي، أو يعلم من حالهم إيثار ذلك.

❋ ولا يقيم أحدًا من مجلسه، فإن آثره غيره بمجلسه لم يأخذه، إلَّا أن يكون في ذلك مصلحة للحاضرين بأن يقرب من الأستاذ ويذاكره مذاكرة ينتفع الحاضرون بها.

❋ ولا يجلس وسط الحلقة إلَّا لضرورة، ولا بين الصَّاحِبَيْنِ إلَّا برضاهما، وإذا فسح له قعد.

❋ وَيحرصُ على القرب من الأستاذ؛ ليفهم كلامه فهمًا كاملًا بلا مشقَّة على شريطة ألا يرتفع في المجلس على أفضل منه.

❋ ويتأدب مع رفقته وحاضري المجلس؛ فإنَّ تأَدُّبَه معهم

تأدُّبٌ مع الأستاذ واحترام لـمجلسه، ويقعد قِعْدَةَ الـمتعلمين.

❊ ولا يضحك، ولا يكثر الكلام بلا حاجة، ولا يعبث بيده ولا غيرها، ولا يلتفت بلا حاجة، بل يُقبل على الأستاذ مُنصتًا إليه.

❊ ولا يسبق إلى شرح مسألة أو جواب سؤال إلَّا أن يعلم رضاه؛ فيستدل على فضيلة الـمتعلم.

الشرح

القسم الثالث: آداب الـدارس في درسه:

قوله: (وألا يدخل عليه بغير إذن) هذا شروع من المصنف في آداب دخول المتعلم إلى مجلس المعلم، وهي آداب اعتنى العلماء بها؛ لأنها من احترام العلم والمعلم، ومجلس العلم.

١ ـ الاستئذان في الـدخـول على العالم

ومن ذلك أن المتعلم لا يدخل على معلمه إلا باستئذان، ولعل هذا إذا كان الشيخ في مجلس خاصٍّ يحتاج فيه إلى استئذان؛ كمنزله، أو غرفة له في مسجد، وقد أشار النووي في «التبيان» ومن بعده ابن جماعة إلى هذا القيد[١]، وإلا فكلامه هنا مطلق غير مقيد.

وقد جاءت الأدلة من الكتاب والسنة بتقرير أدب الاستئذان؛ لأن الشيخ قد لا يريد أحدًا يدخل عليه، ولأن الدخول بدون استئذان قد يؤدي إلى وقوع العين على شيء لا يرضاه المدخول عليه، وإذا كان هذا الأدب مطلوبًا في عموم الناس، فهو في حق المعلم آكد؛ لما له من الحق على غيره:

أما المجلس العام كموضع الدرس في المسجد، فهو غير مراد.

٢ ـ تقديم الأفضل والأسن في الدخول

قوله: (وإذا كان معه غيره قَدَّمَ الأفضل والأسن)؛ أي: وإذا كان الداخلون لمجلس الدرس جماعة، قدموا الأفضل والأسن منهم، وهذا مما حثت عليه عمومات الشريعة.

(١) انظر: «التبيان» (ص٢٤)، «تذكرة السامع والمتكلم» (ص١٠١).

٣ ـ الحرص على نظافة الثياب

قوله: (وأن يدخل كامل الهيبة)[(١)]؛ أي: إن الطالب يدخل على معلمه كامل الهيبة ـ وهي الإجلال والمخافة[(٢)] ـ؛ لأن العين تمتلئ بمن تحبه وتحترمه فتحصل المهابة، وذلك أدعى إلى احترام المعلم والاستفادة من علمه، وضد ذلك الكبر، نسأل الله السلامة، وعند ابن جماعة في «تذكرته» (كامل الهيئة) بالهمز، والمراد بها: الصورة الظاهرة، المتعلقة بنظافة الظاهر.

٤ ـ التهيؤ للاستماع

قوله: (فارغ القلب من الشواغل)؛ أي: وأن يكون الطالب حال دخوله مجلس الشيخ قد تهيأ واستعد للاستماع، وذلك بأن يكون قلبه فارغًا من الشواغل والهواجس والخواطر التي تمنعه من الاستفادة؛ لأجل أن يستفيد من شيخه عند إقباله عليه.

٥ ـ نظافة البدن

قوله: (مُتطهرًا مُتنظفًا بسواك، وقص ظفر وإزالة ريح كريه) هذا فيه بيان أنه يستحب لطالب العلم أن يكون نظيفًا في ثوبه وبدنه، ويحرص على السواك، وقص الأظفار، وإزالة الرائحة الكريهة؛ لأنه إذا كان المطلوب كمال الهيئة، وحسن المظهر، وطيب الرائحة في الدخول على المعظَّمين، فإن أحقَّ الناس بذلك علماء الشريعة؛ لأن مجالسهم مجالس ذكر واجتماع في عبادة.

والمتعلم إذا عُني بجمال المنظر وطيب الرائحة جلب الراحة النفسية له ولزملائه في الدرس. وقد استدل العلماء على هذا الأدب بحديث عمر رضي الله عنه قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر...»[(٣)].

---

(١) هكذا في الأصل، وفي المطبوع، وجاء في «تذكرة السامع والمتكلم» (ص١٠٢): (كامل الهيئة)، وهو الذي يستفاد من «الجامع» للخطيب (١/ ١٥٣)، وفي «التبيان» للنووي ص(٣٨): وأن يدخل على الشيخ كامل الخصال..

(٢) «اللسان» (١/ ٧٨٩).

(٣) رواه مسلم (١).

قال القرطبي: «فيه دليل على استحباب تحسين الثياب والهيئة والنظافة عند الدخول على العلماء والفضلاء والملوك، فإن جبريل عليه السلام أتى معلمًا بحاله ومقاله»[(١)].

٦ ـ السلام على الحاضرين

قوله: (ويُسَلِّمُ على الحاضرين بصوت يُسمعهم)؛ أي: إذا دخل المتعلم على الحاضرين في مجلس الدرس فإنه يسلم عليهم بصوت يسمعهم، وهذا فيه نظر، والأقرب أنه يسلم تسليمًا لطيفًا يسمع أدناهم القريبين منه، أما رفع الصوت لإسماع الجميع فهذا خلاف الأدب؛ لأن العدد قد يكون كثيرًا، ولأنه يَشْغَلهم عما هم فيه من الاستماع والإنصات والانتباه، فيحصل تطبيق السُّنَّة بما ذكر دون تشويش، وأما ما ذكره فقهاء الحنفية والحنابلة[(٢)] من أنه لا ينبغي السلام على من هم في درس ومذاكرة؛ لما فيه من شَغْلِهِمْ، فهو استثناء من عموم الأدلة الدالة على مشروعية إفشاء السلام، لم يقم عليه دليل، فيندرج هذا الموضع تحت العمومات، ويؤيده شرعية السلام على المصلي مع ما هو فيه من شغل.

ويؤيده ـ أيضًا ـ حديث عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال: كنا جلوسًا في المسجد نقرأ القرآن، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلم علينا، فرددنا عليه السلام... الحديث[(٣)].

فإذا شرع السلام على قارئ القرآن ـ على القول الراجح ـ فلأن يشرع على من هم في مجلس علم من باب أولى.

---

(١) «المفهم» (١/ ١٣٧).

(٢) انظر: «الاختيار» (٤/ ١٦٥)، «كشاف القناع» (٢/ ١٥٣).

(٣) رواه أحمد (٢٨/ ٥٩١)، والنسائي في «الكبرى» (٧/ ٢٢٦) من طريق قَباث بن رزين، قال: سمعت عُلَيَّ بن رباح يقول: سمعت عقبة بن عامر رضي الله عنه يقول: وذكره. وقباث قال عنه الحافظ في «التقريب»: «صدوق مقرئ» وتابعه موسى بن عُلَي بن رباح، عن أبيه به. رواه أحمد (٢٨/ ٥٥٤ ـ ٥٥٦)، والنسائي في «الكبرى» (٧/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦)، وابن أبي شيبة (٢/ ٥٠٠) وغيرهم، وليس فيه ذكر الجلوس في المسجد وموسى صدوق ربما أخطأ كما في «التقريب». وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم (٣٢٨٥).

٧ ـ تخصيص الشيخ بزيادة في التحية

قوله: (**ويخص الشيخ بزيادة إكرام**)؛ لأن له حُظوة سواهم ـ أي محبة ومنزلة ـ فإنه يغذِّي نفوسهم وقلوبهم بالعلم والإيمان، فلما اختص بذلك اختص بحقٍّ زائد في التحية، فإذا حيّا جميع المجلس بالسلام زاد في حقِّ الشيخ ما يناسبه، ولعل هذا في مجلس خاص؛ كمنزل الشيخ، أو غرفة في المسجد ونحو ذلك.

٨ ـ السلام عند الانصراف

قوله: (**وكذلك يسلم إذا انصرف**)؛ أي: من المجلس؛ لأن السلام سنة عند الانصراف، كما هو سنة عند اللقاء، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة**»[1].

٩ ـ عدم تخطي الرقاب

قوله: (**ولا يتخطّى رقاب الناس**)؛ أي: ليس للداخل مجلس الدرس أن يتخطى رقاب الناس من أجل أن يكون قريبًا من الشيخ؛ لأن تخطي الرقاب محذور شرعًا؛ لما فيه من احتقار الجالسين وأذيتهم، ورفع الأرجل فوق رؤوسهم، وقد قال النبي ﷺ للذي رآه يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة: «**اجلس، فقد آذيت**»[2] فوصف فعله بأنه أذية.

١٠ ـ الجلوس حيث انتهى به المجلس

قوله: (**ويجلس حيث انتهى به المجلس**) هذا هو الأدب في حضور المجالس، لما جاء في حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «كنا إذا أتينا النبي ﷺ جلس أحدنا حيث ينتهي»[3]، وجلوس الداخل حيث

---

(١) رواه أبو داود (٥٢٠٨)، والترمذي (٢٧٠٦)، والنسائي في «الكبرى» (٩/ ١٤٤)، وأحمد (١٢/ ٤٧) من طريق محمد بن عجلان، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة مرفوعًا. وفيه محمد بن عجلان، وهو كما قال الحافظ الذهبي في «السير» (٦/ ٣٢٢) (إنْ لم يبلغ حديثه رتبة الصحيح فلا ينحط عن رتبة الحسن). وقد تابعه يعقوب بن زيد الأنصاري عند البخاري في «الأدب المفرد» (٩٨٦)، والنسائي في «الكبرى» (٩/ ١٤٤)، وابن حبان (٤٩٣).

(٢) رواه أبو داود (١١١٨)، والنسائي (٣/ ١٠٣)، وأحمد (٢٩/ ٢٢١، ٢٣٩ ـ ٢٤٠) من طريق معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه مرفوعًا. وهذا سند صحيح.

(٣) أخرجه أبو خيثمة في «كتاب العلم» (١٠٠)، وأبو داود (٤٨٢٥)، والترمذي =

ينتهي به المجلس فيه معنى الأدب والتواضع والحرص على أسباب التآلف والمودة.

جواز التخطي والتقدم في حال الإذن

قوله: (إلا أن يأذن المعلم أو الحاضرون بالتقدم والتخطي أو يعلم من حالهم إيثار ذلك) هذا استثناء مما قبله، وهو أنه يجوز التقدم والتخطي إذا أذن المعلم أو الحاضرون؛ لأن الحق لهم، وذلك كأن يكون المتقدم له منزلة في العلم يُقَدَّم بها، أو يكون ممن يقرأ على الشيخ الكتاب الذي يراد شرحه، ونحو ذلك.

١١ ـ لا يقيم أحدًا من مجلسه

قوله: (ولا يقيم أحدًا من مجلسه) لحديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: «**لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مقعده ثم يجلس فيه، ولكن تفسَّحوا وتوسَّعوا**» وفي رواية: «وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا قام له رجل عن مجلسه لم يجلس فيه»[(١)].

إذا آثره غيره بمجلسه لم يقبل إلا لمصلحة

قوله: (فإن آثره غيره بمجلسه لم يأخذه، إلا أن يكون في ذلك مصلحة للحاضرين بأن يقرب من الأستاذ ويذاكره مذاكرة ينتفع الحاضرون بها)؛ أي: ومن الأدب في مجلس الشيخ أنه إذا قام أحد من الطلبة لهذا الداخل وآثره بمجلسه ليكون قريبًا من الشيخ فإنه لا يقبل، اقتداءً بما تقدم عن ابن عمر رضي الله عنهما، إلا أن يكون في قربه مصلحة للحاضرين، كأن يكون ممن يذاكر الشيخ مذاكرة نافعة يستفيد منها الحاضرون، أو يكون هو قارئ الشيخ ـ مثلًا ـ أو كبير سن، أو ممن ظهر فضله وصلاحه، ونحو ذلك مما يقتضي التقديم.

أما ما ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان إذا قام له أحد من مجلسه لا يجلس مكانه، فهو محمولٌ على التورُّع؛ خشية أن يكون من آثره قد

= (٢٧٢٥)، وأحمد (٣٤/ ٤٣٧) من طريق شريك، عن سماك، عن جابر بن سمرة رضي الله عنه. وشريك هو ابن عبد الله القاضي، سيئ الحفظ، لكن تابعه زهير بن معاوية كما ذكر الترمذي. وزهير ثقة من رجال الشيخين. والحديث له شواهد فيها مقال، لكنه باجتماع ما ذكر قابل للتحسين.

(١) رواه البخاري (٦٢٦٩)، ومسلم (٢١٧٧) (٢٨) (٢٩).

استحيا منه، فقام له بدون طيب من نفسه، أو أنه محمول على تأديب الناس، وحملهم على الأفضل، فكان ابن عمر رضي الله عنهما يهضم حقّه لأجل تعليم الناس الأدب، فإذا عُرف هذا وشُهر فلا بأس أن يتقدم من هو أهل لذلك[(١)].

١٢ ـ لا يجلس وسط الحلقة

قوله: (ولا يجلس وَسَطَ الحلقة إلا لضرورة) هذا فيه أدب الجلوس، وهو ألا يجلس المتعلم وسط حلقة العلم؛ لأنه خلاف الأدب، وفيه أذيّة تخطي الرقاب، وهو يشعر بإعجاب المرء بنفسه، وفيه استدبار بعض الطلبة، والحيلولة بين الوجوه، وحجب بعض الطلبة من بعض.

وأما حديث حذيفة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن من جلس وسط الحلقة، فهو حديث ضعيف[(٢)].

١٣ ـ لا يفرق بين اثنين إلا برضاهما

قوله: (ولا بين الصاحبين إلا برضاهما)؛ أي: ولا يجلس الداخل بين صديقين بحيث يفرق بينهما، إلا برضاهما؛ لحديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: «**لا يحل لرجل أن يفرِّق بين اثنين إلا بإذنهما**»[(٣)]، فإن فسحا له جلس؛ لأنها كرامة أكرماه بها، فلا ينبغي أن يردَّها[(٤)].

قوله: (وإذا فُسِحَ له قعد)؛ أي: إذا فسح لهذا الداخل المتأخر في الحلقة، فلا بأس أن يجلس، لكن يضم نفسه ولا يتربع؛ لئلا يضيق على الجالسين مع مجيئه متأخرًا. قال بعض الحكماء: اثنان ظالمان: رجل أُهديت له النصيحة فاتَّخذها ذنبًا، ورجل وُسِّعَ له في مكان ضيق فقعد متربّعًا[(٥)].

---

(١) انظر: «فتح الباري» (١١/ ٦٤).
(٢) رواه أبو داود (٤٨٢٦)، والترمذي (٢٩٥٦) وهو حديث ضعيف؛ لأنه من رواية أبي مِجْلَزٍ ـ لاحق بن حميد ـ عن حذيفة رضي الله عنه، وهو لم يدركه، ولم يسمع منه كما قال شعبة وابن معين.
(٣) رواه أبو داود (٤٨٤٥)، والترمذي (٢٩٥٥) وقال: حديث حسن.
(٤) «الجامع» (١/ ١٧٨).
(٥) «الجامع» (١/ ١٧٩).

١٤ ـ الحرص على القرب من الشيخ بشرطه

قوله: **(ويحرص على القرب من الأستاذ؛ ليفهم كلامه فهمًا كاملًا بلا مشقة، على شريطة ألا يرتفع في المجلس على أفضل منه)** هذا الأدب في صفة الجلوس عند الأستاذ في دروس المساجد والدورات العلمية، وهو أن يكون قريبًا منه؛ ليفهم كلامه فهمًا واضحًا كاملًا بلا مشقة، بشرط ألا يكون مرتفعًا في مجلسه على من هو أكثر منه فضلًا وأرفع مقامًا.

وقد ذكروا أن المتعلم لا يكون قريبًا من الأستاذ قربًا كثيرًا ينسب فيه إلى سوء الأدب، بل يكون بينه وبين أستاذه مقدار طول القوس؛ لأن هذا أقرب إلى التعظيم(١)، والشيخ أحق من غيره بإفساح المجلس له، والقربُ منه ربما ضايقه أو حجب عنه الهواء ونحو ذلك.

وأما ما نقل ابن الحاج في «المدخل»(٢) عن بعض السلف أنهم كانوا لا يبتعدون عن المدرس بل تَمَسُّ ثياب الطلبة ثوبه؛ لقربهم منه، فلعل المراد به إذا كان العدد كثيرًا والمكان ضيِّقًا، أو إذا كان المتعلم واحدًا، كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: علمني رسول الله ﷺ التشهد ـ كفي بين كفيه ـ كما يعلمني السورة من القرآن... الحديث(٣). فإن كانوا كثيرين، فالأمر على ما تقدم تقريره.

ولا ينبغي للمتعلم أن يؤثر بقربه من الشيخ إلا من هو أولى منه؛ لأجل سنه، أو علمه أو صلاحه.

قال الحسين بن منصور: «كنت مع يحيى بن يحيى وإسحاق ـ يعني ابن راهويه ـ يومًا نعود مريضًا، فلما حاذينا الباب تأخر إسحاق، وقال ليحيى: تقدّم، فقال يحيى لإسحاق: تقدم أنت، قال: يا أبا زكريا، أنت أكبر مني، قال: نعم أنا أكبر منك، وأنت أعلم مني، فتقدَّمَ

(١) انظر: «تعليم المتعلم» ص(٢١).
(٢) (١/ ١٩٨)، وانظر: «الإعلام» لابن الملقن (٣/ ٤٤٥).
(٣) رواه البخاري (٦٢٦٥)، ومسلم (٤٠٢).

إسحاق»[١]. وقال مالك بن مِغْوَل: «كنت أمشي مع طلحة بن مُصرِّف فصرنا إلى مضيق، فتقدمني ثم قال لي: لو كنت أعلم أنك أكبر مني بيوم ما تقدمتك»[٢]. وقال الخطيب: «وإذا حضر جماعةٌ من الطلبة باب المحدِّث، وأذن لهم في الدخول، فينبغي أن يقدموا أسنهم ويدخلوه أمامهم؛ فإن ذلك هو السُّنَّة... وإن قَدَّمَ الأكبرُ على نفسه من كان أعلم منه جاز ذلك، وكان حسنًا»[٣].

١٥ ـ التأدب مع رفقته في الدرس

قوله: (ويتأدّبَ مع رفقته وحاضري المجلس، فإن تأدُّبه معهم تأدُّبٌ مع الأستاذ واحترام لمجلسه) هذا في بيان أدب المتعلم مع زملائه في الدرس، فإن المتعلم كما يتأدب مع أستاذه يتأدب مع زملائه، فيتأدب معهم ومع من حضر الدرس من غيرهم؛ لأن تأدب المتعلم مع زملائه تأدب مع الأستاذ نفسه واحترام لمجلس العلم، والصحبة في طلب العلم تجمع حقوقًا كثيرة، ومن ذلك: توسيع المجلس للقادم، وتوقير الكبير، واحترام ذوي الفضل، وطلاقة الوجه، والبشاشة، ومحبة البذل، وكف الأذى، وغير ذلك.

١٦ ـ التأدب في صفة الجلوس عند الشيخ

قوله: (ويقعد[٤] قِعدة المتعلمين) أي: إن المتعلم يقعد بين يدي معلمه قعدة المتعلمين لا قعدة المعلمين، وذلك بأن يكون أمام الأستاذ، وإذا كانوا على الأرض فإن المتعلم يجلس جِلْسَة الأدب، وهي كما ذكر العلماء جِلْسَة الصبي بين يدي المقرئ[٥] وذلك كهيئة الجلوس للتشهد الأول في الصلاة، فهذا من حسن الأدب في الجلوس، وفيه تهيؤ لما سيلقيه المدرس، أو يجلس متربعًا بتواضع وخضوع، وسكون وخشوع، والتربع أكثر راحة واطمئنانًا. وقد جاء ذلك في صفة صلاة المريض في

---

(١) «الجامع» للخطيب (١/ ١٧١).
(٢) المصدر السابق (١/ ١٧٠).
(٣) المصدر السابق (١٧٠ ـ ١٧١).
(٤) جاء في المطبوع (ويقعده) بالهاء، والذي في الأصل (ص٣٧): (ويقعد) فالهاء زائدة.
(٥) انظر: «الجامع» للخطيب (١/ ١٩٨).

حديث في سنده مقال[١].

ذكر البرهان البِقاعي أنه سأله بعض العجم أن يقرأ عليه، فأذن، فجلس متربعًا، فامتنع من إقرائه وقال له: «أنت أحوج إلى الأدب منك إلى العلم الذي جئت تطلبه»[٢].

١٧ ـ اجتناب الضحك في مجلس العلم

قوله: **(ولا يضحك)**؛ لأن الضحك لا يليق في مجلس العلم، فإن غلبه تبسَّم تبسُّمًا بغير صوت؛ لأن التبسم علامة الرزانة وتمام العقل. قال ابن القيم: «كان جُلُّ ضَحِكِ النبي ﷺ التبسم[٣]، بل كله التبسم، فكان نهاية ضحكه أن تبدو نواجذه»[٤].

١٨ ـ اجتناب كثرة الكلام لغير حاجة

قوله: **(ولا يكثر الكلام بلا حاجة)**؛ لأن هذا يخلُّ بتعظيم العلم وأهله ومجلسه، وهو خلاف المروءة والأدب، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة بالأمر بالصمت وحفظ اللسان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»[٥] ومن المأثور عن علي رضي الله عنه أنه قال: «اللسان قِوام البدن، فإذا استقام اللسان استقامت الجوارح، وإذا اضطرب اللسان لم تقم له الجوارح»[٦].

وفي الصمت والإقلال من الكلام فضائل عظيمة، فهو دليل كمال الإيمان، وحسن الإسلام، ورجاحة العقل، وحسن الخلق، وطهارة النفس، والسلامة من فضول القول، والعصمة من زيغ المنطق.

وقد ذكر العلماء أن للكلام شروطًا أربعة:

(١) انظر: «منحة العلام» (٣/ ١١٤).
(٢) «فيض القدير» (١/ ٢٩٠ ـ ٢٩١).
(٣) ورد هذا في عدة أحاديث. انظر: «مختصر الشمائل المحمدية» للألباني (ص١٢٠).
(٤) «زاد المعاد» (١/ ١٨٢).
(٥) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).
(٦) «الصمت» لابن أبي الدنيا (ص٢٣٩).

١ ـ أن يكون لداعٍ يدعو إليه، إما جلب منفعة أو دفع مضرة.

٢ ـ أن يكون الكلام بقدر الحاجة؛ لأن الكلام ليس له نهاية.

٣ ـ أن يكون الكلام في موضعه بحيث يتوخى به إصابة غرضه.

٤ ـ أن يتخير الألفاظ المناسبة للمقام[١].

قال أحمد بن سنان: كان عبد الرحمٰن بن مهدي لا يُتَحَدَّثُ في مجلسه، ولا يُبرى قلم، ولا يُبتسم، ولا يقوم أحد قائمًا؛ كأنما على رؤوسهم الطير، أو كأنهم في صلاة، فإن رأى أحدًا منهم تبسم أو تحدَّث أو يضحك أو يبري قلمًا لبس نعله وخرج[٢].

١٩ ـ ترك العبث باليد ونحوها

قوله: **(ولا يعبث بيده ولا غيرها)** كلحيته أو هاتفه، أو شيء آخر، وأعظمُ من هذا أن يعبث بيده في أنفه، أو نحو ذلك مما لا يليق بمجلس العلم.

٢٠ ـ عدم الالتفات بلا حاجة

قوله: **(ولا يلتفت بلا حاجة)**؛ أي: لا يلتفت في مجلس شيخه يمينًا وشمالًا، أو خلفه بلا حاجة، أو ينظر إلى شخص داخلٍ لمجلس العلم، ويعرض عن شيخه، أو يضطرب لضجة سمعها، أو يلتفت إليها، فكل هذا خلاف الأدب، ولا سيما عند شرح الشيخ له، أو كلامه معه؛ لأن الشيخ جلس لك وأقبل عليك، فينبغي لك أن تتأدب معه، وتقبل إليه. قال سفيان بن عيينة: «قال مِسْعَرُ بن كِدام: كنت في حلقة، فجعلت ألتفت إلى حلقة أخرى. فقال لي رجل منهم: ما فاتك من العلم أكثر»[٣].

٢١ ـ الإقبال على الشيخ والإنصات إليه

قوله: **(بل يُقبل على الأستاذ منصتًا إليه)**؛ لئلا يحوجه إلى إعادة الكلام؛ لأن الإعادة ثقيلة على النفوس، ولأن الإقبال على الأستاذ تهيؤٌ لسماع كلامه، وسلوك الأدب معه في الاستماع، ولأن ذلك ادعى

---

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص٢٣٧).

(٢) «تقدمة الجرح والتعديل» (١/٢٥٧)، «سير أعلام النبلاء» (٩/٢٠١ ـ ٢٠٢)، «تذكرة الحفاظ» (١/٣٠٣).

(٣) «الجامع» للخطيب (١/١٩٩).

للفهم، وأحضر للقلب. قال بعض الحكماء: «إذا جالست العالم فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول»[(١)].

أثر انتباه الطلبة وحرصهم على نشاط الشيخ في درسه

واعلم أن قرب الطلبة من الشيخ، وشدة انتباههم، وظهور حرصهم على الاستفادة، وسرورهم بالدرس، له أثر كبير على نشاط الشيخ وبذل ما عنده من العلم، وعلى الطالب أن يحذر أن يكون وسيلة لقطع عِلْم شيخه بالكسل والفتور، أو الالتفات، أو الاتكاء، أو انصراف الذهن وفتوره. قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حق الفائدة ألا تساق إلا إلى مبتغيها، ولا تعرض إلا على الراغب فيها، فإذا رأى المحدث بعض الفتور من المستمع فليسكت، فإن بعض الأدباء قال: نشاط القائل على قدر فهم المستمع»[(٢)].

ثم ساق بسنده عن زيد بن وهب قال: قال عبد الله ـ يعني ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ: «حَدِّثِ القوم ما رمقوك بأبصارهم، فإذا رأيت منهم فترةً فانْزِعْ». وعن أبي الأحوص، عن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «حَدِّثِ القوم ما أقبلت عليك قلوبهم، فإذا انصرفت قلوبهم فلا تحدثهم. قيل له: ما علامة ذلك؟ قال: إذا حَدَّقوك بأبصارهم. فإذا تثاءبوا، واتكأ بعضهم على بعض، فقد انصرفت قلوبهم. فلا تحدثهم»[(٣)].

وتقدم قول المبرد: «الاستماع بالعين، فإذا رأيت عين من تحدثه ناظرة إليك، فاعلم أنه يُحسن الاستماع»[(٤)]. وعن أبي خَلْدَةَ قال: سمعت أبا العالية يقول: «حَدِّثِ القومَ ما حملوا، قال: قلتُ: ما (ما حملوا)؟ قال: ما نشِطوا»[(٥)].

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٤٢٥).
(٢) «الجامع» (١/ ٣٣٣).
(٣) المصدر السابق (١/ ٣٣٠)، وانظر: «حلية طالب العلم» (ص٢٧).
(٤) «بهجة المجالس» (١/ ٤٤).
(٥) « الجامع» للخطيب (١/ ٣٣١).

٢٢ ـ ألا يسبق شيخه إلى شرح مسألة أو جواب سؤال

قوله: (ولا يسبق إلى شرح مسألة أو جواب سؤال إلا أن يعلم رضاه)؛ أي: ومن آداب المتعلم مع شيخه ألا يسبق شيخه إلى شرح مسألة، أو جواب سؤال منه أو من غيره، بل ينتظر حتى يتكلم شيخه؛ لأن الأصل أن المتعلم تابع للمعلم يقفو أثره، ولا يتقدم عليه؛ كحال المأموم مع إمامه، إلا إن علم رضى شيخه بذلك، بأن عرض عليه الشيخ ذلك ابتداء والتمسه منه، فلا بأس.

قوله: (فيُستدل على فضيلة المتعلم)(١) هذا فيه معنى التعليل لما قبله، وهو أن الشيخ قد يؤثر الطالب بالجواب ـ مثلًا ـ؛ فيستدل بذلك على فضيلة تلميذه، ويكون من باب التشجيع له، فإن من المعلمين من يحب تشجيع طلابه ورفع معنوياتهم.

وقد كان بعض مشايخنا ـ جزاه الله خيرًا ـ في المعهد العلمي يطلب ـ أحيانًا ـ من بعض الطلبة البارزين تحضير الدرس الذي وقف عنده المدرس؛ لأجل أن يلقيه الطالب على زملائه في الفصل، ويتم ذلك ـ بحضور المدرس نفسه ـ بكل هدوء واحترام.

ومن جميل الأمثلة في هذا أن الشيخ ابن التلمساني أحد كبار علماء شمال أفريقيا سأله السلطان عن مسألة، فقال: إن تلميذي فلانًا يحسن الجواب عنها، فوجَّه السلطان السؤال إلى تلميذ ابن التلمساني، فأحسن الجواب، فأجازه، وأحسن منزلته.

وكان ابن التلمساني أعلم من تلميذه فيما سأله عنه السلطان، ولكن لما أراد تشجيع تلميذه ورفعة شأنه وأنه عنده بمنزلة ولده أراد أن يُنَوِّه به في حضرة السلطان كما لو كان ولده حَقًّا(٢). والله أعلم.



---

(١) هكذا في المطبوع، والذي في الأصل (ليستدل به)، وهي أوضح.

(٢) انظر: «مع المعلمين» (ص٩٨) نقلًا عن: «أحاديث في رحاب الأزهر» لشيخ الأزهر: محمد الخضر حسين «موسوعة الأعمال الكاملة» (١٠/٤٩١٧).

الدرس الثالث عشر

من آداب الدارس (٤)

❊ ولا يقرأ على أستاذه عند شَغْلِ قلبه وملله وغمه ونعاسه، ونحو ذلك مما يشق عليه أو يمنعه استيفاء الشرح.

❊ ولا يسأله عن شيء في غير موضعه إلَّا أن يعلم من حاله أنه لا يكرهه، ولا يُلِحُّ في السؤال إلحاحًا مُضجرًا، ويغتنم سؤاله عند طيب نَفْسِهِ وفراغه، ويتلطف في سؤاله، ويُحسِنُ خطابه، ولا يستحي من السؤال عما أشكل عليه، بل يستوضحه أكمل استيضاح، فمن رقَّ وجهه رقَّ علمه، ومن رقَّ وجهه عند السؤَال ظهر نقصه عند اجتماع الرجال.

❊ وإذا قال له الأستاذ: فَهِمْتَ؟ فلا يقُلْ: نعم؛ حتى يتَّضح له المقصود إيضاحًا جليًّا؛ لئلَّا يكذب، ويفوته الفهم، ولا يستحي من قوله: «لم أفهم»؛ لأن استيثاقه يُحَصِّل له مصالح عاجلة وآجلة.

❊ فمن العاجلة: حفظ المسألة، وسلامته من كذب ونفاق بإظهاره فَهْمَ ما لم يكن فَهِمَهُ منها، ومنها: وثوق الأُستاذ باعتنائه ورغبته وكمال عقله وورعه وملكه لنفسه وعدم نفاقه.

❊ ومن الآجلة: ثبوت الصواب في قلبه دائمًا، واعتياده هذه الطريقة المرضية، والأخلاق الرضية.

❊ وعن الخليل بن أحمد: (منزلة الجهل بين الحياء والأَنَفَةِ).

❁ الشرح ❁

ومن آداب الدارس:
٢٣ ـ ألا يقرأ على إستاذه في حال لا تناسب القراءة

قوله: (ولا يقرأ على أستاذه عند شَغْلِ قلبه ومَلَله وغمّه ونعاسه، ونحو ذلك مما يشق عليه أو يمنعه استيفاء الشرح)؛ أي: ومن آداب المتعلم التي يتأكد الاعتناء بها ألا يقرأ على الأستاذ في حال لا تناسب القراءة؛ كأن يقرأ عليه في حال شغل ذهنه وفكره، أو في حال ملله وغمه وفرحه ونعاسه وقلقه ونحو ذلك؛ لأن هذه الأحوال مزعجة، تشوّش الذهن، وتَشْغَلَ الفكر، فتمنع إتقان الدرس، وتؤدي إلى عدم استيفاء الشرح، ولا يؤمن الوقوع في الغلط. وقد تقدم زيادة على ذلك.

٢٤ ـ مراعاة آداب السؤال
* ألا يسأل عن شيء في غير موضعه

قوله: (ولا يسأله عن شيء في غير موضعه، إلا أن يعلم من حاله أنه لا يكرهه) شرع المصنف رَحِمَهُ اللهُ في بيان آداب السؤال؛ لأن للسؤال آدابًا كثيرة تحسن مراعاتها، وبذلك تتم الفائدة من الجواب، مع احترام المسؤول أو المفتي.

* أهمية أسئلة الطلاب

وموضوع أسئلة الطلاب له أهمية بالنسبة للمدرس والطالب، فعلى المدرس أن يتقبل أسئلة الطلاب وأن يعطيها حقها من العناية؛ لأن في أسئلة الطلاب ـ ولا سيما الطلاب الجادين ـ فوائد جمة يستفيد منها السائل والمسؤول بل وجميع الطلاب، وقال الشيخ عبد الرحمٰن السعدي: «ونحن ممنونون في كل ما يقع لكم من الإشكالات؛ لأنها قد تصير سببًا لبحث أمور لم تخطر على البال، ومراجعة محالها، وهذا من طرق العلم، فلا تحرمونا ذلك»[(١)] وعلى الطالب أن يتقيد بالآداب المتعلقة بالسؤال وسنذكر ـ إن شاء الله تعالى ـ شيئًا منها.

* أقسام السؤال من حيث الإجابة وعدمها

وقد ذكر الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ أن السؤال أربعة أقسام:

١ ـ سؤال العالم لمثله؛ كتحقيق ما حصل، أو رفع إشكال عنَّ له، أو تحصيل ما عسى أن يكون فاته من العلم.

(١) «الفتاوى السعدية» (ص١٠٣).

٢ ـ سؤال المتعلم لمثله؛ كمذاكرة الطالب لزميله بما سمع.

٣ ـ سؤال العالم للمتعلم؛ كتنبيهه على موضع إشكال يطلب رفعه، أو اختبار عقله أين بلغ؟.

٤ ـ وهو الأصل: سؤال المتعلم للعالم، وهو يرجع إلى طلب علم ما لم يعلم.

فأما الأول والثاني والثالث فالجواب عنه مستحق إن عُلم، ما لم يمنع من ذلك عارض معتبر شرعًا، وإلا فالاعتراف بالعجز.

وأما الرابع فليس الجواب مُستحقًّا بإطلاق بل فيه تفصيل[(١)]. تقدمت الإشارة إلى شيء منه.

والسؤال عن العلم من وسائل تحصيل العلم ومفاتيحه، ولا ينال العلم إلا صاحب اللسان السؤول، والقلب العقول. وقد صحّ عن الزهري أنه قال: «إنما هذا العلم خزائن، وتفتحها المسألة»[(٢)]، وقال الخليل بن أحمد: «العلوم أقفال، والسؤالات مفاتيحها»[(٣)].

* الأمر بالسؤال والترغيب فيه

وقد جاء في كتاب الله تعالى الأمر بالسؤال والترغيب فيه، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]. وقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣]. قال الشيخ عبد الرحمٰن السعدي: «عموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه: العلم بكتاب الله المنزل؛ فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم، حيث أمر بسؤالهم، وأنه بذلك يخرج الجاهل من التبعة، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال، وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم؛

---

(١) انظر: «الموافقات» (٤/ ٣١١).
(٢) «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٦٢) وتقدم ذكر ذلك.
(٣) «الجامع» لابن عبد البر (١/ ٣٢٠).

فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم...»[(١)].

وقال في موضع آخر: «هذه الآية وإن كان سببها خاصًّا بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين لأهل الذكر وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها، أن يسأل من يعلمها، ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه.

وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونَهْيٌ له أن يتصدى لذلك...»[(٢)].

* من مراتب العلم: حسن السؤال

والسؤال له آداب تنبغي مراعاتها؛ لأن السؤال عنوان عقل السائل وأدبه، ومن القواعد المحفوظة: «اسأل سؤال جاهل، وافهم فهم عاقل»[(٣)]. وحسن السؤال نصف الجواب، ومتى روعيت آداب السؤال، تحققت الفائدة المرجوة من السؤال من غير مضايقة للمسؤول.

وقد ذكر العلماء من مراتب العلم: حسن السؤال، وحسن السؤال له أثر عظيم في الاستفادة، وعدمُ ذلك مؤثر عليها.

ومن آدابه: أنه ينبغي للطالب أن يكون سؤاله في موضوع الدرس، ليس خارجًا عنه، وأن يكون السؤال في موضعه، إلا أن يعلم من حال شيخه أنه لا يكره مثل ذلك، ويعرف ذلك بالقرينة ككونه يجيب إذا سئل في غير موضع البحث.

* عدم الإلحاح في السؤال

قوله: (ولا يلحُّ في السؤال إلحاحًا مضجرًا) هذا من آداب السؤال، وهو ألا يلح في السؤال إلحاحًا يضجر الشيخ، بل إذا سكت الشيخ عن الجواب لم يلح عليه؛ لأن من مآخذ الجواب عند أهل

---

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٤٤١). (٢) المصدر السابق (ص٥١٩).

(٣) انظر: «عيون الأخبار» (٢/١٢٢)، «الفقيه والمتفقه» (٢/٣٠٣)، «الجامع» لابن عبد البر (١/٣٢٦).

العلم: السكوت، وربما لاحظ الشيخ أن عدم الجواب أولى لأمر رآه، وبهذا يصحح المفهوم الخاطئ في هذا الزمان، وهو أن العالم أو المدرس أو المحاضر يجيب على كل سؤال يلقى إليه.

* عدم الإكثار من الأسئلة

وعلى الطالب أن يجتنب كثرة الأسئلة، ولا سيما مع شهود الملأ، فإن هذا يوجب للطالب الغرور، وللمدرس الملل[١]، وتقليل الأسئلة فيه محافظة على وقت الدرس، ورعاية حق الآخرين من الطلاب. وقد جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه لما سأل النبي ﷺ: «أي العمل أحب إلى الله؟» قال في آخره: «ولو استزدته لزادني»[٢].

* اغتنام الفرص في سؤال الشيخ

قوله: (ويغتنم سؤاله عند طيب نفسه وفراغه)؛ أي: ينبغي للمتعلم أن يغتنم وجود الشيخ معه في حالة يمكن فيها الاستفادة منه، وذلك عند طيب نفسه وفراغه؛ لأجل أن يبسط الجواب، وينطق بالفوائد؛ لأن وجود الشيخ مع الطالب في مثل هذه الحال غنيمة، فلا ينبغي له أن يفوتها، وقد جاء في «الصحيحين» حديث محمد بن عباد بن جعفر قال: سألت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وهو يطوف بالبيت: أنهى رسول الله ﷺ عن صيام يوم الجمعة؟ فقال: نعم ورب هذا البيت[٣].

ففيه دليل على حرص السلف على العلم وانتهاز فرصة وجود العالم، وجواز سؤال الطائف بالبيت إذا كان السؤال خفيفًا، ليكون الجواب قصيرًا لا يَشْغَلُ الطائف عن عبادته.

* الأدب في طرح السؤال

قوله: (ويتلطف في سؤاله) هذا من آداب السؤال ـ أيضًا ـ وهو أن يلقيه إلى شيخه بأسلوب سهل يشعر بالتواضع، مع الدعاء للمعلم.

قوله: (ويُحسِن خطابه) فلا يناديه باسمه مجردًا، أو مع لقبه نحو: يا شيخ فلان، بل يقول: يا شيخي أو يا شيخنا، ثم يستفتح السؤال

---

(١) انظر: «حلية طالب العلم» (ص٢٥).
(٢) رواه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥) (١٣٩).
(٣) رواه البخاري (١٩٨٤)، ومسلم (١١٤٣).

بعبارة تدل على الأدب والاحترام ورعاية حق العلم مثل: عفا الله عنكم، أو أحسن الله إليكم، أو نفع الله بعلمكم... ونحو ذلك.

* ألا يمنعه الحياء من السؤال والاستيضاح

قوله: (ولا يستحي من السؤال عما أشكل عليه، بل يستوضحه أكمل استيضاح) هذا أدب نفيس من آداب السؤال، وهو حرص الطالب على السؤال عن كل ما يشكل عليه، وعليه أن يحذر الحياء إذا كان له علاقة بالسؤال، فإن هذا من الحياء المذموم، بل عليه أن يسأل ويستوضح من الشيخ كمال الاستيضاح، وبهذا يحصل العلم وتتم الفائدة. وقد ذكر بعض العلماء للسؤال صورة أخرى غير صورة الإشكال، وهي أن يُظهر الطالب أن غيره من الطلبة يحتاج إلى هذا السؤال؛ كأن يكون فاهمًا للدرس، ولكن فيه مسائل صعبة تحتاج إلى بيان لبقية الطلبة، فيسأل من أجل غيره، والسائل لحاجة غيره بمنزلة المعلِّم، كما في حديث عمر رضي الله عنه في أسئلة جبريل عليه السلام للنبي ﷺ... ثم قال النبي ﷺ: **«هذا جبريل أتاكم ليعلمكم دينكم»**[١].

* معنى: من رَقَّ وجهه رَقَّ علمه

قوله: (فمن رقَّ وجهه رقَّ علمه)؛ أي: من رقَّ ماء وجهه حياءً، فلم يسأل عما يشكل عليه، رقَّ علمه ضعفًا؛ لأن من استحيا لا يجرؤ على السؤال، فيفوته علم كثير.

وهذه الجملة نصُّ أثرٍ رواه الدارمي[٢] وسنده منقطع؛ لأنه من رواية حفص بن عمر عن عمر رضي الله عنه، ورواه ـ أيضًا ـ من كلام عامر الشعبي، وإبراهيم النخعي، والإسناد إليهما صحيح، فهذا الأثر فيه الحث على السؤال.

قوله: (ومن رقَّ وجهه عند السؤَال ظهر نقصه عند اجتماع الرجال)

(١) تقدم تخريجه، وانظر: «كتاب العلم» للشيخ محمد بن عثيمين (ص٢٣٣).

(٢) «سنن الدارمي» (١/ ١١٢)، ورواه ـ أيضًا ـ البيهقي في «المدخل» (٢/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧)، ورواه يعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (٣/ ١١٣)، والبيهقي في «المدخل» (٢/ ٣٦٦)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٣٠٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وفي سند الأثرين ضعف.

جاء ذلك بنحوه في «الجامع»[(١)] لابن عبد البر: «من رق وجهه عند السؤال رق علمه عند الرجال، ومن ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حقه».

ومعنى ذلك: أن من غلبه الحياء فرقَّ وجهه لم يستطع السؤال فيحرم علمًا كثيرًا، ويظهر نقصه إذا اجتمع مع زملائه وأقرانه في مجلس علم وبحث ومناقشة.

* ألا يسكت السائل إذا لم يتضح له الجواب

قوله: **(وإذا قال له الأستاذ: فهمتَ؟ فلا يقُلْ: نعم؛ حتى يتَّضح له المقصود إيضاحًا جليًّا...)** هذا الأدب يتعلق بجواب الشيخ على سؤال الطالب، وهو أن المقصود بالسؤال تمام الفائدة، فإذا سأله الشيخ: هل فهمتَ؟ فإنه لا يقول: نعم، وهو لم يتضح له الجواب؛ لأن هذا من الكذب، وهو يفوت عليه الفهم، ويحرمه الفائدة؛ فالحياء في مثل هذا الحال مذموم شرعًا. والواجب عليه إذا لم يفهم أن يقول: لم يتضح لي المراد، أو أعد الجواب عفا الله عنك، ونحو ذلك من العبارات اللطيفة. وفي هذا مصالح عاجلة وآجلة.

* طلب السائل من المسؤول تفهيم الجواب فيه مصالح

فمن العاجلة:

١ ـ حفظ المسألة ومعرفتها.

٢ ـ سلامته من كذب، ونفاق؛ بإظهاره فَهْمَ ما لم يكن فهمه منها.

٣ ـ وثوق الأستاذ باعتنائه وحرصه ورغبته وكمال عقله وورعه وملكه لنفسه وعدم نفاقه.

٤ ـ ارتفاع قدره عند أستاذه.

ومن المصالح الآجلة:

١ ـ ثبوت الصواب في قلبه دائمًا.

٢ ـ اعتياده هذه الطريقة المرضية، والأخلاق الرضية، بحيث يكون ذلك خلقًا راسخًا عنده.

---

(١) (١/٣٢٣).

* معنى: منزلة الجهل بين الحياء والأَنَفَة

قوله: (وعن الخليل بن أحمد[١]: «منزلة الجهل بين الحياء والأَنَفَةِ»)[٢]؛ أي: إن الإنسان لا يزال في الجهل متربّعًا بين حيائه وأنفته، فإذا كان ذا حياءٍ لم يتعلم، وإذا كان ذا أنفة وكِبْرٍ لم يتعلم، فيبقى جاهلًا. وقال الحسن: «من استتر عن طلب العلم بالحياء لبس للجهل سِرباله»[٣].

والأَنَفَة: بالتحريك مثل: قَصَبَة، هي الاستكبار، يقال: أَنِفَ من الشيء أنفًا من باب تعب، والاسم الأَنَفَة؛ أي: استنكف واستكبر[٤].

* خلاصة أهم آداب السائل والمستفتي

ونظرًا لأهمية آداب سؤال أهل العلم فإني رأيت في ختام هذا الدرس أن أذكر أهم آداب السائل ـ ومثله المستفتي ـ من كلام المؤلف مضافًا إليه ما ذكره غيره من أهل العلم؛ لأجل أن تتم الفائدة ـ إن شاء الله تعالى ـ فمن هذه الآداب:

١ ـ ألا يمنعه الحياء من السؤال عن أمرٍ نزل به، فإن غلب عليه الحياء، ألقى سؤاله إلى من يثق به.

٢ ـ أن يكون الغرض من السؤال معرفة ما يشكل والاستفادة من العالم؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾ [النحل: ٤٣]. وسيأتي مزيد لهذا في آخر الرسالة ـ إن شاء الله تعالى ـ.

٣ ـ أن يستوضح السائل من العالم كمال الاستيضاح، وألا يكتفي بالجواب أو يسكت وهو لم يتضح له المراد.

---

(١) هو: أبو عبد الرحمٰن الخليل بن أحمد بن عمر بن تميم الفراهيدي اليَحْمَدي الأزدي، من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض، وهو أستاذ سيبويه، عاش فقيرًا صابرًا، له كتاب «العين» في اللغة، و«معاني الحروف» وغير ذلك. مات سنة (١٧٠). «وفيات الأعيان» (٢/ ٢٤٤)، «الأعلام» (٢/ ٣٦٣).

(٢) انظر: «عيون الأخبار» (٢/ ١٢٣).

(٣) «عيون الأخبار» (٢/ ١٢٣)، «الجامع» لابن عبد البر (١/ ٣٢٣).

(٤) انظر: «المصباح المنير» (ص٢٦).

٤ ـ أن على المستفتي أن يتأدب مع المفتي ويحسن خطابه، كما تقدم.

٥ ـ الوضوح في السؤال في كلماته وتفاصيله بحيث لا يكون فيه إشكال على المستفتي، وعليه أن يحذر الكتمان والتدليس أو التزوير في الألفاظ والوقائع.

٦ ـ ألا يلح بالسؤال إلحاحًا يتضايق منه العالم.

٧ ـ أن الأولى أن يتولى السائل السؤال بنفسه؛ لأن المفتي قد يحتاج إلى الاستفصال عن بعض الجزئيات التي لها تأثير في الحكم، وله أن يوصي ثقة يقبل خبره فيستفتي له.

٨ ـ ألا يسأل في حالة لا تناسب السؤال، كما تقدم في موضعه.

٩ ـ عدم الإطالة في السؤال، وألا يكثر الأسئلة فيما لا حاجة إليه؛ محافظةً على وقت المفتي وحق الآخرين.

١٠ ـ ألا يكتب جواب المفتي ولا يسجله إلا بإذنه؛ فقد تكون الكتابة غير دقيقة أو غير سليمة، وقد يكون للجواب ظرفه ومناسبته التي يختلف فيها عن ظروف ومناسبات أخرى.

١١ ـ تحري الأوقات المناسبة للمفتي، فلا يسأل في كل وقت، ولا سيما مع تيسر أدوات الاتصال والتواصل، واختلاف الأوقات بين الدول والمناطق، فينبغي مراعاة ذلك؛ حتى لا يتسبب ذلك في إيذاء المفتي، فللمفتي الحق في الراحة والعبادة والأكل والشرب والقراءة والجلوس مع الأهل وغير ذلك من الحاجات والأغراض.

١٢ ـ ألا ينتقل بسؤاله بين المفتين وأهل العلم، فهذا ليس من الديانة، ولا من الورع، بل إذا اختلف المفتون في مسألة واحدة، فإن المستفتي يختار أوثق المفتين عنده في دينه وعلمه وورعه.

١٣ ـ الحذر من تتبع الرخص، وأن يتخير من فتاوى أهل العلم ما يروق له؛ لأن تعمد تتبع الرخص والتأويلات واختلاف المذاهب هو

عين البطالة المنافية للصدق، وحسن الديانة، وتحري براءة الذمة، وقد قال سليمان التيمي: «إن أخذت برخصة كل عالم اجتمع فيك الشر كله»[١]، وقال إبراهيم بن أبي عبلة: «من حمل شَاذَّ العلم حمل شرًّا كثيرًا»[٢].

١٤ ـ أن يغتنم الطالب وجود العالم وطيب نفسه وفراغه فيحرص على الاستفادة منه[٣]. والله تعالى أعلم.

۞ ۞ ۞

---

(١) «الجامع» لابن عبد البر (٢/ ١١٩).

(٢) «تهذيب الكمال» (٢/ ١٤٤). وانظر: «الجامع» لابن عبد البر (١/ ١٥٩ ـ ١٦٠).

(٣) انظر: المراجع المتقدمة نهاية الدرس التاسع.

الدرس الرابع عشر

من آداب الدارس (٥)

❊ وينبغي إذا سمع الأستاذ يقول مسألة، أو يحكي حكاية وهو يحفظها: أن يصغيَ لها إصغاءَ من لا يحفظها.

❊ وينبغي أن يكون حريصًا على التعلم، مواظبًا له في جميع أوقاته ليلًا ونهارًا حضرًا وسفرًا، ولا يُذهب من أوقاته شيئًا في غير العلم إلَّا بقدر ما لا بدَّ له من أكل ونوم وراحة.

❊ وما أجمل قولَ الشافعي: «حقٌّ على طلبة العلم بُلوغُ غاية جهدهم في الاستكثار من العلم، والصبرُ على كل عارض دون طلبه، وإخلاصُ النِّـيَّة لله تعالى في إدراك علمه نصًّا واستنباطًا، والرغبةُ إلى الله تعالى في العون عليه».

❊ يقال: أجود أوقات الحفظ: الأسحارُ، ثُمَّ الغداةُ، وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار؛ لفراغ البال، وهدوء الحركة. ووقت الجوع أنفع من وقت الشِّبَعِ. وأجود أماكن الحفظ الغُرَفُ، وكل موضع بَعُدَ عن المُلهيات.

❊ ولا يُحْمَدُ الحفظ بحضرة النَّبات والخضرة والأنهار وقوارع الطرق؛ لأنها تمنع غالبًا خُلُوَّ القلب.

❊ وإذا جفاه الأستاذ رجع إليه بالاعتذار، وأظهر ندمه وخطأَه، فذلك أنفع له دينًا ودُنيا وأبقى لقلبه، وقد قالوا: (من لم يصبر على ذُلِّ التَعلم بقي دهرَه في عَمَايَة الجهل).

❊ ومن آدابه: الحلم والأناة، وأن تكون همته عالية؛ فلا يرضى باليسير مع إمكان الكثير.

❁ الشرح ❁

من آداب الدارس: ٢٥ ـ الإصغاء إلى الشيخ ولو كان يعرف ما يقوله

قوله: (وينبغي إذا سمع الأستاذ يقول مسألة أو يحكي حكاية وهو يحفظها: أن يصغي لها إصغاء مَنْ لا يحفظها) هذا يتعلق بأدب عظيم من آداب حسن الاستماع، وهو أنه إذا سمع من أستاذه كلامًا وهو يعرفه أنه يصغي له إصغاء من لم يكن سمع ذلك من قبل، وعليه أن يحذر من مساوقته الكلام أو مداخلته أثناء سياقه؛ ليريه أنه يعرف ذلك، فإن من فعل مثل هذا كان منسوبًا إلى الخفة وسوء الأدب. قال بعض الحكماء: إن الأدب ألا يشارك الرجل غيره في حديثه وإن كان أعلم به منه، وأنشد:

ولا تُشارِكْ في الحديث أَهْلَهُ وإن عرفتَ فَرْعَهُ وأَصْلَهُ

قال عطاء: «إن الشاب ليتحدث بحديث، فأستمع له كأني لم أسمع، ولقد سمعته قبل أن يولد»[(١)]. وقال معاذ بن سعيد: كنا عند عطاء فتحدث رجل بحديث، فاعترض له آخر في حديثه، فقال عطاء: سبحان الله، ما هذه الأخلاق؟! ما هذه الأحلام؟! إني لأسمع الحديث من الرجل، وأنا أعلم منه، فأريهم من نفسي أني لا أحسن منه شيئًا[(٢)].

قال ابن عبد البر: «من سوء الأدب في المجالسة: أن تقطع على جليسك حديثه، أو تَبْدُرَهُ إلى تمام ما ابتدأ به منه خبرًا كان أو شعرًا، تتم له البيت الذي بدأ به، تُريه أنك أحفظ له منه، فهذا غاية في سوء المجالسة، بل يجب أن تصغي إليه كأنك لم تسمعه قط إلا منه»[(٣)].

---

(١) انظر: «الجامع» للخطيب (١/ ٢٠٠ ـ ٢٠١).
(٢) «حلية الأولياء» (٣/ ٣١١).
(٣) «بهجة المجالس» (١/ ٤٩).

٢٦ ـ الحرص على التعلم والمواظبة له في جميع الأوقات

قوله: **(وينبغي أن يكون حريصًا على التعلم، مواظبًا له في جميع أوقاته ليلًا ونهارًا حضرًا وسفرًا، ولا يُذهِب من أوقاته شيئًا في غير العلم إلا بقدر ما لا بدَّ له من أكل ونوم وراحة)**؛ أي: ينبغي للمتعلم أن يستغرق جميع أوقاته في الطلب والتحصيل فـ«العلم عزيز الجانب، لا يعطيك بعضه حتى تُعطيَه كُلَّكَ، وأنت إذا أعطيتَهُ كُلَّكَ كنتَ من إعطائه إياك البعضَ على خطر»[(١)] ومن كلامهم: وقت التعلم من المهد إلى اللحد، ومن المحبرة إلى المقبرة[(٢)].

ولا ينبغي للطالب أن يذهب شيئًا من أوقاته في غير العلم، وإذا مَلَّ من علم اشتغل بعلم آخر؛ لأن لكل علم لذة تغاير لذة العلم الآخر، وذلك لأن العمر قصير، والعلم غزير، والعمر يمضي، كما قال الحسن البصري: «ابن آدم، إنما أنت أيام، فإذا ذهب منك يومٌ ذهب منك بعضك»[(٣)]. وهذا في الغالب إنما يكون في زمن الشباب؛ لأن الفراغ فيه أكثر، وهو أخلى من الشواغل والعوائق، مع صفاء الذهن، وجودة الحفظ، والعلم لا ينال براحة الجسم. فزمن الشباب وقت جمع القلب، واجتماع الفكر؛ لقلة الشواغل والصوارف والترؤس وخفة الظهر والعيال[(٤)].

روى أبو نُعيم من طريق فَرْقَدَ إمامِ مسجد البصرة قال: دخلوا على سفيان الثوري في مرضه الذي مات فيه، فحدثه رجل بحديث فأعجبه، وضرب يده تحت فراشه، فأخرج ألواحًا له فكتب ذلك الحديث، فقالوا له: على هذه الحال منك؟! فقال: «إنه حسن، إن بقيت فقد سمعت حسنًا، وإن مت فقد كتبت حسنًا»[(٥)].

---

(١) «الحث على طلب العلم» للعسكري (ص٤٢).
(٢) «تعليم المتعلم» (ص٤٥).
(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٤٨).
(٤) «حلية طالب العلم» (ص٤٥).
(٥) «الحلية» (٧/ ٦٤).

وصية نفيسة من الإمام الشافعي لطلبة العلم

قوله: (وما أجملَ قولَ الشافعي: «حَقٌّ على طلبة العلم بلوغُ غاية جهدهم في الاستكثار من العلم[١]، والصبرُ على كل عارض دون طلبه، وإخلاصُ النِّيَّة لله تعالى في إدراك علمه نصًّا واستنباطًا، والرغبةُ إلى الله تعالى في العون عليه») هذه أربع وصايا نفيسة ذكرها الإمام الشافعي في كتابه «الرسالة»[٢]، وهي جديرة بتأملها وتحويلها إلى واقع عملي ملموس.

شرح هذه الوصية

فالأولى: بلوغ غاية الجهد في الاستكثار من العلم، ولا سيما ما يتعلق بالقرآن، ومعنى ذلك أنه لا بد لطالب العلم من الجد والاجتهاد في سبيل الاستكثار من العلم بكتاب الله تعالى، وما يضاف إلى ذلك من علوم أخرى. قال ابن الجوزي: «اعلم أنك في ميدان سباق، والأوقات تُنتهب، ولا تُخلد إلى كسل، فما فات ما فات إلا بالكسل، ولا نال من نال إلا بالجد والعزم، وإن الهمة لتغلي في القوب غليان ما في القدور..»[٣] وما أحسن قول الشاعر!

بِقَدْرِ الجِدِّ تُكتسبُ المعالي   ومن طلبَ العُلا سَهِرَ اللَّيالي
تَرومُ العِزَّ ثم تنامُ ليلًا   يغوصُ البَحْرَ من طَلَبَ اللآلي[٤]

والثانية: الصبر على كل عارض دون طلبه، وما أحوج طالب العلم إلى الصبر؛ لأن العمر قصير، والعلم غزير، فهو بحاجة إلى بذل جهد واغتنام وقت على الدوام، والنفس أمارة بالسوء وميالة إلى الراحة والدعة، فإذا لم يرزق طالب العلم صبرًا على التحصيل فاته خير كثير.

والثالثة: إخلاص النية لله تعالى؛ لأن صلاح النية وسلامة القصد أكبر معين بتوفيق الله تعالى على الطلب والاستفادة، قال أبو عبد الله

---

(١) هكذا في المطبوع، والذي في الأصل (من علمه) وهو الموافق لما في «الرسالة» للشافعي؛ لأنه يتحدث عن القرآن، فالضمير عائد عليه، ويدل له قوله: «في إدراك علمه نصًّا واستنباطًا».

(٢) «الرسالة» للشافعي (ص١٩).

(٣) «صيد الخاطر» (ص١٦١).

(٤) «تعليم المتعلم» (ص٢٣).

الروذباري: «العلم موقوف على العمل، والعمل موقوف على الإخلاص، والإخلاص لله يورث الفهم عن الله»[(١)] وعن ابراهيم النخعي قال: «من ابتغى شيئًا من العلم يبتغي به وجه الله آتاه الله منه ما يكفيه»[(٢)] وقد مضى في أول هذه الرسالة زيادة على هذا.

والرابعة: الرغبة إلى الله تعالى في العون على الطلب؛ لأنه لا يُدْرَك خير إلا بعونه، ومعنى ذلك أن طالب العلم ـ كغيره ـ عليه أن يلجأ إلى الله تعالى ويرغب في طلب العون منه على التحصيل والاستفادة؛ لأن العبد ضعيف بنفسه، عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره، لا غنى له عن عون الرب ﷻ، فمن سعى في تحقيق مطلوبه وجب عليه أن يكون مستعينًا بالله تعالى متوكلًا عليه مفتقرًا إليه في حصوله، ومن فضل الله تعالى على عباده أن من تعلق به منهم أعانه وسدده وبلغه مناه. وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كثيرًا ما يقول في دعائه إذا استعصى عليه تفسير آية من كتاب الله تعالى: اللَّهُمَّ يا معلم آدم وإبراهيم علِّمني، ويا مفهم سليمان فهمني، فيجد الفتح في ذلك[(٣)].

٢٧ ـ اختيار الأوقات المناسبة للحفظ والمطالعة والمذاكرة

قوله: (يقال أجود أوقات الحفظ: الأسحار [ثم نصف النهار][(٤)] ثُمَّ الغداة) شرع المصنف في بيان أوقات الحفظ التي لها مزية على غيرها، وقد كان للعلماء عناية في توجيه الطلاب إلى تنظيم الوقت، والاستفادة منه، والحث على اختيار الأوقات الملائمة للحفظ والدرس والنسخ والمذاكرة، وكذا الحث على اختيار الأمكنة التي تلائم الحفظ.

وقد نقل المؤلف عن الخطيب البغدادي[(٥)] أن أجود أوقات

---

(١) رواه الخطيب في «الاقتضاء» (ص٣٢).
(٢) رواه الدارمي (١/ ٧١).
(٣) «فتاوى ابن تيمية» (٤/ ٣٨).
(٤) ليست في المطبوع، وهي موجودة في الأصل، تبعًا لـ«الفقيه والمتفقه» (٢/ ٢٠٧).
(٥) انظر: «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٢٠٧). وانظر: «صيد الخاطر» (ص١٧٧).

الحفظ: الأسحار، وهي جمع سَحَرٍ، وهو آخر الليل قبل الفجر، قال الخليل بن أحمد: أصفى ما يكون ذهن الإنسان في وقت السحر[١] ثم يلي ذلك [نصف النهار]؛ لأنه وقت راحة غالبًا، ثم الغداة وهي أول النهار؛ لأن الذهن قد أخذ حظه من الراحة بالنوم، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾ [النبأ: ٩].

وما ذكره المصنف عن الخطيب هو بالنظر إلى زمانه، فقد كان السابقون من سلف هذه الأمة إلى زمن قريب عاصرناه، ينامون مبكرين، فيستيقظون مبكرين، قد أخذوا حظهم من الراحة، فناسب أن يكون حفظهم في السحر أو في الغداة، أما الآن فقد تغيّر الحال، وعلى هذا فالمعوَّل على كون الإنسان قد أخذ حظه من الراحة.

مزية حفظ الليل

قوله: (وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار؛ لفراغ البال، وهدوء الحركة) لأن الظُّلمة إذا استحكمت استنار القلب فلم يحصل له استرسال، قيل لبعضهم: بم أدركتَ العلمَ؟ فقال: «بالمصباح، والجلوس إلى الصباح». وقيل لآخر، فقال: «بالسفر، والسهر، والبكور في السَّحَر»[٢].

مزية الحفظ وقت الجوع

قوله: (ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع) لأن الشبع يضعف الحفظ؛ لأن من المعلوم بالتجربة أن الإنسان إذا ملأ بطنه بالطعام ولَّد ذلك عطشًا، فشرب كثيرًا فارتخى جسمه، وتخدّرت أعضاؤه، فضعُف نشاطه، وضعُف تفكيره، وتقدمت الإشارة إلى هذا، بخلاف الجوع فإن الجسم معه يكون خفيفًا، والذهن متوقدًا، ومن عجائب خلق الإنسان أن المعدة إذا تعوّدت على شيء اعتادت عليه، فإن عوَّدتها على قلة الطعام فإنها لن تطلب الطعام إلا بقدر يتناسب مع الثلث، وإلا ازدادت إفرازاتها وطلبت المزيد[٣].

---

(١) «وفيات الأعيان» (٢/ ٢٤٥).

(٢) «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٢٠٧).

(٣) عن كتاب «البطنة تذهب الفطنة» (ص١٩).

٢٨ ـ اختيار الأماكن المناسبة للحفظ

قوله: (وأجود أماكن الحفظ الغرف، وكل موضع بَعُدَ عن المُلهيات) لأن الغرفة محاطة بالجدران الأربعة، فلا مجال للبصر في أن ينتقل إلى هناك وهناك، فإذا منع سمعه وبصره عن النظر والسماع اجتمع قلبه وتركز ذهنه، بخلاف الأماكن المفتوحة كما ذكر المؤلف بعد هذا؛ لأنها تشغل القلب فينصرف عن الحفظ، والقاعدة: أن كل مكان يساعد على خلوِّ القلب، فإن الحفظ يكون فيه محمودًا، وكل مكان ينشغل فيه القلب لم يصلح فيه الحفظ.

قوله: (ولا يحمد الحفظ بحضرة النَّبات والخضرة والأنهار وقوارع الطرق؛ لأنها تمنع غالبًا خُلوَّ القلب) وذلك يفهم مما تقدم من أن هذه الأماكن ينشغل فيها النظر، وإذا انشغل النظر تبعه القلب.

٢٩ ـ الصبر على جفاء الأستاذ مع الاعتذار

قوله: (وإذا جفاه الأستاذ رجع إليه بالاعتذار، وأظهر ندمه وخطأه) وجه ذلك أن الأستاذ بشرٌ كغيره يغضب ويسخط، فإذا صدرت منه جفوة أو سوء خلق، فينبغي للطالب أن يعتذر، وينسب موجب هذا الجفاء إلى نفسه، فيظهر الندم والخطأ، ولا يصده ذلك عن ملازمة أستاذه، والاستمرار مع درسه، ويلتمس له عذرًا، ولا يعجز عن هذا إلا طالب قليل التوفيق.

وقوله: (وإذا جفاه الأستاذ...) يقال: جفوت الرجل أجفوه: أعرضت عنه، أو طردته، وقد يكون مع بغض، وهو مأخوذ من جُفاء السيل: وهو ما نفاه[(١)].

فائدة الصبر على جفاء الأستاذ

قوله: (فذلك أنفع له دينًا ودنيا وأبقى لقلبه)؛ أي: إن الطالب إذا صبر على جفاء أستاذه، ونسب سبب الجفاء إلى نفسه، واعتذر له، فإن هذا أنفع للطالب في دينه ودنياه؛ لما يترتب عليه من المصالح، وهو أحفظ لقلبه، وأبقى لمودة شيخه.

قوله: (وقد قالوا: من لم يصبر على ذُلِّ التعلم، بقي دَهْرَهُ في

---

(١) «المصباح المنير» (ص١٠٤).

عَمَايةِ الجهلِ) وتمامها: ومن صبر عليه آل أمره إلى عِزِّ الدنيا والآخرة[١]. وهذا قريب من قول الأصمعي: «من لم يحتمل ذُلَّ التعلم ساعة بقي في ذُلِّ الجهل أبدًا»[٢]. قال الشاعر:

إنَّ المعلمَ والطبيبَ كلاهما لا ينصحان إذا هما لم يُكرما
فاصبر لدائك إن جفوتَ طبيبه واقنع بجهلك إن جفوتَ مُعَلِّمَا[٣]

٣٠ـ اتصاف طالب العلم بالحِلْم

قوله: (ومن آدابه: الحلم والأناة)؛ أي: ومن الآداب التي يتأكد على طالب العلم التحلي بها: الحلم والأناة. أما الحلم: فهو ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب، وترك الانتقام مع القدرة عليه[٤]. وهو خلق رفيع، وهو دعامة العقل، وجمال الإنسان. وإن من نفاسة الحلم وارتفاع قدره أن الله تسمى به، ثم لم يسم بالحلم في كتابه أحدًا من خلقه إلا إبراهيم خليله وإسماعيل ذبيحه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ۝١١٤﴾ [التوبة: ١١٤]. وقال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾ [الصافات: ١٠١][٥]. ويكفيه شرفًا أن الله يحب من اتصف به، كما قال النبي ﷺ لأشج عبد القيس رضي الله عنه: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحِلْمُ والأناةُ**»[٦].

فيتأكد في حق طالب العلم أن يتصف بالحلم وسعة الصدر؛ لأنه دليل على كمال العقل وامتلاك النفس، والحليم عظيم الشأن، رفيع المكان، محمود الأمر، مرضي العقل. يروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال:

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص١٠٠).
(٢) رواه البيهقي في «المدخل» (١/ ٣٦٣)، والسمعاني في «أدب الإملاء والاستملاء» (ص٤٥).
(٣) «تعليم المتعلم» (ص١٥).
(٤) «المفردات في غريب القرآن» (ص١٢٩)، «أدب الدنيا والدين» (ص٢٦١)، «تهذيب الأخلاق» (ص٢٣).
(٥) «روضة العقلاء» (ص٢٠٩).
(٦) رواه مسلم (٢٦) (١٨)، وروى البخاري (٥٣) الحديث بطوله، وليس فيه هذه الجملة.

«تعلَّموا العلم، وتعلَّموا للعلم السكينة والحلم»[١] وقال طاوس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما حُمل العلمُ في مثل جِراب حِلْمٍ»[٢] وقال الشعبي: «زينُ العلم حِلْمُ أهله»[٣] وقال الحسن البصري: «اطلبوا العلم وزينوه بالوقار والحلم»[٤].

٣١ ـ الاتصاف بالأناة

وأما الأناة: فهي بفتح الهمزة، ومعناها التأني والرفق وترك العجلة والتثبت في الأمور[٥].

والأناة والتأني والرفق صفات جميلة يحبها الله تعالى ـ كما تقدم ـ، وحب الله ورسوله ﷺ للحلم والأناة فيه أعظم الدفع والحفز للالتزام بهما والتربي عليهما على صعوبته ومشقته، والأناة نوع من السكينة المحمودة اللائقة بالإنسان، ولا سيما طالب العلم الذي يجب أن يظهر على تصرفاته وحركاته الرفق والتؤدة، وأن يكف نفسه عن العجلة، ويردعها عن السرعة، ويعودها بالتدريب واستثمار المواقف والمناسبات على التروي والأناة؛ استنادًا لما يتصف به من العلم والنور.

والإنسان وإن كان مجبولًا على العجلة كما قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ [الأنبياء: ٣٧]. لكن باستطاعته أن يلزم نفسه بالتأني والرفق، كما جبل على حب الشهوات مع أن باستطاعته أن يلزم نفسه بالكف عنها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١]. والله تعالى أنعم على الإنسان بالسمع والبصر والفؤاد، وهي الآلات التي تؤهله للنظر والتحري وتدعوه للتعقل والاستبصار[٦].

٣٢ ـ عُلوُّ الهمة في طلب العلم.

قوله: **(وأن تكون همته عالية، فلا يرضى باليسير مع إمكان الكثير**

---

(١) «الإحياء» (٣/ ١٧٨).
(٢) رواه الدارمي (١/ ١١٦).
(٣) المصدر السابق.
(٤) «الإحياء» (٣/ ١٧٨).
(٥) انظر: «تاج العروس» (٣٧/ ١٠٨).
(٦) انظر: «الكشاف» (٢/ ٥٧٢ ـ ٥٧٣)، «أضواء البيان» (٤/ ٥٧٦)، رسالة «العجلة» للدكتور: عبد العزيز النغيمشي.

علو الهمة: هو استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور[١]. وهذا هو اللائق بطالب العلم، ألا وهو علو الهمة، والرغبة في الصعود في معارج الرقي والكمال، فلا يكتفي بيسير العلم مع إمكان كثيره «والمرء يطير بهمته كالطير يطير بجناحيه»[٢] قال الجنيد: «ما طلب أحدٌ شيئًا بِجِدٍّ وصدقٍ إلا ناله، فإن لم يَنَلْهُ كلَّه نال بعضه»[٣] وقال الفراء: «لا أرحم أحدًا كرحمتي لرجلين: رجلٍ يطلب العلم ولا فَهْمَ له، ورجلٍ يفهم ولا يطلبه، وإني لأعجبُ ممن في وسعه أن يطلب العلم ولا يتعلم»[٤].

وإذا اجتمع مع عُلُوِّ الهمة الجِدُّ في الطلب، والمواظبةُ على التحصيل، نال الطالب حظًّا وافرًا من العلم، فأما إذا كانت له همة عالية، ولم يكن له جِدٌّ، أو كان له جِدٌّ ولم يكن له همة عالية فلا يحصل له علم إلا القليل[٥].

قال ابن الجوزي تعليقًا على قول أبي الطيب المتنبي:

ولم أرَ في عيوب الناس شيئًا　　كنقص القادرين على التمام[٦]

«ينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه، فلو كان يُتصور للآدمي صعود السماوات لرأيت من أقبح النقائص رضاه بالأرض، ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد، رأيت المقصر في تحصيلها في حضيض... والسيرة الجميلة عند الحكماء: خروج النفس إلى غاية كمالها الممكن لها في العلم والعمل».

إلى أن قال: «وفي الجملة لا يترك فضيلة يمكن تحصيلها إلا حصلها، فإن القُنوع حالة الأرذال»[٧]. وقال في موضع آخر: «من علامة

(١) «تهذيب الأخلاق» للجاحظ ص(٢٨).　　(٢) «تعليم المتعلم» (ص٢٥).
(٣) «الجامع» للخطيب (٢/ ١٧٩).
(٤) «جامع بيان العلم» (١/ ٣٥٦).
(٥) «تعليم المتعلم» (ص٢٥ ـ ٢٦).
(٦) «ديوان المتنبي بشرح العكبري» (٤/ ١٤٥).
(٧) «صيد الخاطر» (ص١٥٩ ـ ١٦٠) بتصرف.

كمال العقل علوُّ الهمة، والراضي بالدون دنيء»[(١)]. وقال أيضًا: «الهمة مولودة مع الآدمي، وإنما تقصر بعض الهمم في بعض الأوقات، فإذا حُثت سارت، ومتى رأيت في نفسك عجزًا فسل المنعم، أو كسلًا فسل الموفِّق، فلن تنال خيرًا إلا بطاعته، ولا يفوتك خيرٌ إلا بمعصيته»[(٢)].

والله أعلم.

۞ ۞ ۞

(١) «صيد الخاطر» (ص١٥).

(٢) «لفتة الكبد إلى نصيحة الولد» (ص٥٩).



من آداب الدارس (٦)

❋ وألا يُسَوِّف في اشتغاله، ولا يؤخر تحصيل فائدة وإن قلَّت إذا تمكن منها؛ لأن للتأخير آفاتٍ. ولا يُحمِّل نفسه ما لا تطيق مخافة الـملل.

❋ وإذا جاء مجلس أستاذه فلم يجده انتظر، ولا يفوِّت درسه.

❋ وإذا وجده نائمًا لا يستأذن عليه، بل يصبر حتى يستيقظ، أو ينصرف. والأحسن الصبر كما كان السلف يفعلون.

❋ وينبغي أن يغتنم التحصيل في وقت الفراغ والنشاط وحال الشباب، وقوة البدن، ونَبَاهةِ الـخاطر، وقلة الشواغل، قبل عوارض البطالة وارتفاع الـمنزلة، فقد قال الشافعي: (تَفَقَّه قبل أن تَرْأَس؛ فإذا رَأَسْتَ فلا سبيل إلى التفقُّه).

❁ الشرح ❁

٣٣ـ الحذر من التسويف وتأخير الواجب

قوله: (وألا يسوِّف في اشتغاله) التسويف: هو التأخير والمدافعة، يقال: سَوَّفَ الأمر: إذا قال سأفعل، والمعنى: أنه ينبغي لطالب العلم ألا يغتر بخدع التسويف والتأميل، بحيث كلما همت نفسه بخير عاقها بـ«سوف» أو «سأفعل»، بل عليه البدار واغتنام الزمان؛ فإن كل ساعة تمضي من عمره لا بدل لها ولا عوض عنها، ومن أعمل البدار دل على أنه يحمل كِبَرَ الهمة في العلم[١].

(١) انظر: «حلية طالب العلم» (ص٤٦).

فمن حق يومك عليك ـ يا طالب العلم ـ أن تعمره بالنافع من العلم، والصالح من العمل، فإن هذا اليوم هو الذي تملكه، ولا تُسَوِّفْ إلى غدٍ حتى يُفلت منك حاضرك، فيصبح ماضيًا لا يعود. قال الحسن البصري: «إياك والتسويف، فإنك بيومك، ولست بغدك، فإن يكن غدٌ لك، فكن في غدٍ كما كنت في اليوم، وإن لم يكن لك غدٌ لم تندم على ما فرطت في اليوم»[1].

وما أحسن قول الشاعر الصالح!

تزوَّدْ مِنَ التقوى فإنك لا تدري ... إذا جَنَّ ليلٌ: هل تعيشُ إلى الفجرِ؟!
فكم من سليمٍ مات من غير عِلَّةٍ ... وكم من سقيمٍ عاشَ حينًا من الدهرِ
وكم من فتىً يمسي ويصبح آمنًا ... وقد نُسِجَتْ أكفانه وهو لا يدري

آفات التسويف

وفي التسويف وتأخير واجب اليوم إلى الغد آفات:

١ ـ أنك لا تضمن أنك تعيش إلى الغد.

٢ ـ أنك إن ضمنت حياتك إلى الغد فلا تأمن المعوقات من مرض طارئ، أو شُغْلٍ عارض، أو بلاء نازل. قال عبد الحميد بن يحيى الكاتب: «من أَخّر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقةٍ من فوتها»[2].

٣ ـ أن لكل يوم عمله، ولكل وقت واجباته، فليس هناك وقت بدون عمل.

٤ ـ أن التسويف إذا اعتاده الإنسان صار شعارًا له وعادة لسلوكه، والعادة إذا رسخت أصبحت طبيعة ثانية يصعب الإقلاع عنها. قال يحيى بن معاذ: «لا يزال العبد مقرونًا بالتواني ما دام مقيمًا على وعد الأماني»[3]. وما أحسن قول أبي تمام!

---

(١) «الوقت في حياة المسلم» (ص٦٤).
(٢) «أدب الدنيا والدين» (ص١٧٣).
(٣) «الزهد الكبير» للبيهقي (ص٢٣١).

مَنْ كَانَ مَرْعَى عَزْمِهِ وهُمُومِهِ   رَوْضَ الأَمَاني لَمْ يَزَلْ مَهْزُولَا

٥ ـ أن العمل هو مهمة الإنسان الحي، فالمرء الذي لا يعمل لا يستحق الحياة[١].

٣٤ـ الحرص على اقتناص الفوائد وتقييدها في وقتها

قوله: (ولا يؤخر تحصيل فائدة وإن قَلَّتْ إذا تمكن منها؛ لأن للتأخير آفاتٍ)؛ أي: إن المنهج السليم لطالب العلم أن يحرص على الفوائد في وقتها، فيحمل معه كراسته وقلمه لتسجيلها، ولا يقول: أكتبها فيما بعد من زميلي أو غيره؛ لأن التأخير ـ في مثل ذلك ـ له آفات كثيرة، منها: أن الفائدة تفوت، ومنها: أنه يحصل في الزمن الثاني غيرها، ومنها: أنه إذا تعود التأخير صار ديدنًا له وعادة، وهذا ينافي علو الهمة، كما تقدم.

قال الفِرَبْريُّ: «كنت مع محمد بن إسماعيل بمنزله ذات ليلة؛ فأحصيت عليه أنه قام، وأسرج، يستذكر أشياء يعلقها في ليلة ثمانِ عشرةَ مرة»[٢]. وحكى الحميدي عن الشافعي أنه لما كانا بمصر أنه كان يخرج في بعض الليالي، فإذا مصباح منزل الشافعي مُسْرَجٌ، فيصعد إليه، فإذا قرطاس ودواة، قال الحميدي: فأقول: مَهْ يا أبا عبد الله! فيقول: «تفكرت في معنى حديث ـ أو في مسألة ـ فخفت أن يذهب عليَّ، فأمرت بالمصباح، وكتبته»[٣].

وقد تحدث العلماء عن مسألة الكتابة عن الشيخ حال الدرس والمذاكرة. وذكروا ما يتعلق بها من شروط وآداب[٤].

يقول بعض المربين: (حَذارِ أن تهمل كتابة أيِّ ملاحظة تراها، أو

---

(١) «الوقت في حياة المسلم» (ص٦٤ ـ ٦٧) بتصرّف.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٤٠٤)، وقوله: «ثمانِ عشرةَ» بكسر النون وحذف الياء للتخفيف.

(٣) «آداب الشافعي ومناقبه» (ص٤٤ ـ ٤٥)، وقوله: (مَهْ) اسم فعل أمر مبني على السكون بمعنى: اكفُفْ.

(٤) «الجامع» للخطيب (٢/ ٣٦ ـ ٣٧).

أن تؤجل ذلك اعتمادًا على الذاكرة، أو اعتمادًا على كتابتها في المستقبل فما أسهلَ أن تُنسى، وما أكثرَ ما ينتهي التأجيل إلى سراب، وبذلك تضيع من بين يديك ملاحظات قد تكلفك في المستقبل جهدًا كبيرًا ووقتًا طويلًا).

وإذا اضْطُررت لأمرٍ ما أن تكتب بعض الملاحظات على أوراق مشردة، فيجب أن تنقلها إلى إضبارة[١] الملاحظات وفي مكانها المناسب في أسرع وقت وأقرب فرصة.

ويجب أن تكتب ملاحظاتك وتلخيصاتك بأسلوبك أنت، وهذا يفيدك فوائد شتى:

فهو يدربك على الكتابة العلمية، ويجعلك ذا قدرة على تلخيص ما تقرؤه في الكتب الموسعة، ويثبت المعلومات في ذاكرتك.

ولقد أثبتت التجارب أن الذين يقيدون ملاحظاتهم في الورق أقدر على التذكر ممن لا يقيدون، وأقدر على التعبير عنها، وكثير من الذين لا يقيدون ملاحظاتهم يظنون في أنفسهم أنهم قد فهموا موضوعًا، أو أنهم قد استوعبوا مسألة، فإذا طولبوا بالتعبير عما فهموه أصابهم العجز وتعثر اللسان)[٢].

٣٥ـ الرفق بالنفس وعدم تحميلها ما لا تطيق

قوله: (ولا يحمِّل نفسه ما لا يطيق مخافة الملل) هذا أدب نفيس من آداب طالب العلم، ألا وهو الرفق بالنفس والبدن وعدم الإرهاق، فقد تقدم الحث على الحرص والمواظبة على التعلم في جميع الأوقات، لكن لا بد من مراعاة النفس وعدم تحميلها ما لا تطيق، ومن حمَّل نفسه ما لا تطيق فهو حري بالملل الذي قد يؤدي إلى الترك والانقطاع.

---

(١) الأضبارة: بكسر الهمزة وفتحها، الحزمة من الصحف أو الورق، وجمعها: أضابير. «القاموس» مع شرحه (١٢/ ٣٧٨).

(٢) «رسائل لم يحملها البريد» في مجلة الجامعة الإسلامية، عدد (٣٧).

منهج السلف في الاقتصار على اليسير من العلم الذي يمكن ضبطه

وقد كان هذا منهج السلف من هذه الأمة؛ فإنهم لا يأخذون النفس بما لا تطيق، وإنما يقتصرون على اليسير من العلم الذي يمكن ضبطه، ويُحكم حفظه وإتقانه. قال إسماعيل بن عُلَيَّة: «كنت أسمع من أيوب خمسة، ولو حدثني بأكثر من ذلك ما أردت».

وقال سفيان الثوري: كنت آتي الأعمش ومنصورًا، فأسمع أربعة أحاديث، خمسة، ثم أنصرف، كراهة أن تكثُرَ وتَفلَّتْ. وعن شعبة قال: كنت آتي قتادة، فأسأله عن حديثين، فيحدثني، ثم يقول: أزيدك؟ فأقول: لا، حتى أحفظهما وأتقنهما. وقال الزهري: من طلب العلم جملة، فاته جملة، وإنما يُدرك العلمُ: حديث وحديثان[(١)].

ما جاء في السُّنَّة مما يؤيد ذلك

وقد جاء في السُّنَّة الحث على الاقتصار على ما يطاق من العبادة، والنهي عن تكلف ما لا يطاق، وذلك عام في جميع الأعمال الشرعية ومنها: طلب العلم، ففي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال: «**خذوا من العمل ما تطيقون، فو الله لا يسأم الله حتى تسأموا**» وفي رواية: «**وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه**»[(٢)].

قال النووي: «فيه الحث على المداومة على العمل، وأن قليله الدائم خير من كثير ينقطع، وإنما كان القليل الدائم خيرًا من الكثير المنقطع؛ لأن بدوام القليل تدوم الطاعة والذكر والمراقبة والنية والإخلاص والإقبال على الخالق، ويثمر القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافًا كثيرة»[(٣)].

وقد ذكر العلماء أنه لا بأس أن يريح طالب العلم نفسه وقلبه وذهنه وبصره إذا كَلَّ شيء من ذلك أو ضعف، وذلك بالتنزه والترويح عن النفس بما هو مباح شرعًا في أوقات الفراغ، بما يزيل الملل

---

(١) «الجامع» للخطيب (١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢).
(٢) رواه البخاري (٤٣)، ومسلم (٧٨٥).
(٣) «شرح صحيح مسلم» (٥/ ٣١٨ ـ ٣١٩).

والتعب، ويجدد للنفس نشاطها وسرورها[١]. وقد جاء في حديث حنظلة بن الربيع رضي الله عنه أنه لما ذكر اختلاف حاله عند النبي ﷺ وحاله عند أهله، قال له: «**يا حنظلة: ساعةً وساعةً**»[٢] وجاء في معناه ما روي عن أنس رحمه الله أن النبي ﷺ قال: «**روِّحوا القلوب ساعة وساعة**»[٣].

٣٦ـ انتظار الشيخ أولى من تفويت الدرس

قوله: (وإذا جاء مجلس أستاذه فلم يجده انتظر، ولا يفوِّت درسه)

هذا من آداب حضور مجلس الدرس، وهو أنه إذا جاء إلى مجلس العلم فلم يجد أستاذه، فإنه ينبغي له أن ينتظر ولا يرجع؛ لئلا يفوت الدرس، وكل درس يفوت لا يُعَوَّضُ، وقد لا يرجع فيفوته الدرس، ويتأكد على الطالب الحرص على الحضور وعدم الغياب.

ومما ينبغي توكيده: حثُّ الطالب على المبادرة بحضور الدرس من أوله، سواء أكان ذلك في دروس المساجد أو الدراسة النظامية، لما في ذلك من المصالح التي تحدث عن شيء منها بعض المربين حيث يقول: (دخولك غرفة التدريس في أول الحصة وقبل أن يبدأ المدرس محاضرته أمر يجب أن تحرص عليه وترعاه، كي لا يفوتك شيء من التوجيهات، أو المعلومات أو الإشارة إلى مراجع ذات قيمة، ومن جهة أخرى فهذا الدخول المبكر يوثق الصلة بينك وبين المدرس، ويجعل بينكما مودة ورحمة، فتراه حريصًا على فهمك، محتفيًا بأسئلتك، لا يعرض عنك، ولا يعتذر إليك إن سألته خارج غرفة التدريس أو داخلها.

وأرجو كذلك أن تحرص على حضور كل حصة، فحضور كل حصة يجعل معلوماتك في كل مادة متواصلة متماسكة ليس فيها فجواتُ

---

(١) انظر: «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٢١٥)، «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٩٣).
(٢) رواه مسلم (٢٧٥٠).
(٣) رواه الشهاب القُضاعي (١/ ٣٩٣) بسند ضعيف؛ لأن فيه الوليد بن محمد الموقَّري. وهو متروك كما في «التقريب». ورواه أبو داود في «المراسيل» (٤٤) من وجه آخر عن الزهري مرسلًا. ويشهد له حديث حنظلة رضي الله عنه. وانظر: «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٢٢٠)، و«الجامع» لابن عبد البر (١/ ٣٦١).

ضَعْفٍ ولا ثغراتُ جهالة)[١].

٣٧ـ الصبر حتى يستيقظ الشيخ أولى من الانصراف

قوله: **(وإذا وجده نائمًا لا يستأذن عليه، بل يصبر حتى يستيقظ، أو ينصرف، والأحسن الصبر كما كان السلف يفعلون)** هذا من آداب الدخول على الأستاذ في غير المجلس العام كبيته، أو في غرفة في المسجد ونحو ذلك، فإذا جاء الطالب ووجد الأستاذ نائمًا فلا ينبغي أن يستأذن عليه، بل يصبر حتى يستيقظ، أو ينصرف ثم يعود، والصبر خير له، كما كان السلف يفعلون، ولأنه إذا انصرف قد لا يعود.

وقد رُوِيَ أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يجلس في طلب العلم على باب زيد بن ثابت رضي الله عنه حتى يستيقظ، فيقال له: ألا نوقظه لك؟ فيقول: لا، وربما طال مقامه وقرعته الشمس، وقد ذكر الذهبي أن ابن عباس رضي الله عنهما ممن قرأ القرآن على زيد رضي الله عنه[٢]. وعنه ـ أيضًا ـ رضي الله عنهما قال: «طلبت العلم فلم أجده أكثر منه في الأنصار، فكنت آتي فأسأل عنه، فيقال لي: نائم، فأتوسد ردائي، ثم اضطجع حتى يخرج إليَّ الظهر، فيقول: متى كنت هاهنا يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فأقول: منذ زمن طويل، فيقول: بئس ما صنعت، هلّا أعلمتني؟!، فأقول: أردت أن تخرج إليَّ وقد قضيت حاجتك»[٣].

وقد ذكر الحافظ ابن حجر عن الإمام الحافظ محدث خراسان محمد بن إسحاق السراج (ت٣١٣) أن عنده أحاديثَ عواليًا انفرد بها في زمانه، وكان لا يحدث بها إلا من بات عند بابه ينتظره، فإذا جاء آخر الليل خرج فحدث بها، كان يقصد بذلك إعزاز الحديث، ورفع منزلته. وقد طبعت في جزء صغير اسمه: «البيتوتة» وعددها واحد وأربعون حديثًا، وجلُّها عن شيخه قتيبة بن سعيد، وهي أعلى ما كان عن قتيبة[٤].

---

(١) «رسائل لم يحملها البريد» مجلة الجامعة الإسلامية عدد (٣٧).
(٢) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٩).
(٣) رواه الدارمي (١/ ١١٤).
(٤) انظر: «المعجم المفهرس» للحافظ ابن حجر (ص٢٥٠).

٣٨ـ اغتنام التحصيل في الفرص المساعدة والأحوال المناسبة

قوله: **(وينبغي أن يغتنم التحصيل في وقت الفراغ والنشاط وحال الشباب، وقوة البدن، ونباهة الخاطر، وقلة الشواغل، قبل عوارض البطالة وارتفاع المنزلة)**؛ أي: ينبغي لطالب العلم أن يغتنم التحصيل في الفرص المساعدة والأحوال المناسبة للطلب؛ لأن في العمر والأحوال أوقاتًا وأحوالًا تمر سريعًا، ثم تنقضي ولا تعود، وهي من أغلى ما يملك الإنسان، فإذا لم تُستغل هذه في الطلب والتحصيل فات الإنسانَ خيرٌ كثير. ومن أمثلة هذه الفرص والأحوال:

أمثلة للفرص والأحوال: ١ ـ الفراغ

١ ـ الفراغ: ويقصد به الخلو من الشواغل والمعوقات الدنيوية، والفراغ نعمة عظيمة لا يدرك قدرها ويستفيد منها إلا الموفقون الذين يعرفون قيمة العمر وثمن الحياة، وطالب العلم أولى بأن يستفيد من فراغه وخلوه من الشواغل، فيستفيد من وقته، ويحذر إضاعته في المجالس الخاوية التي ضررها أكثر من نفعها، كما عليه أن يحذر أن يكون أمره فُرُطًا، فتنقضي أيامه ولياليه في سهو وغفلة، وتنقلب نعمة الفراغ نقمة يشقى بها دنيا وأخرى، ويشتد الضرر ويعظم الخطب إذا اجتمع مع الفراغ شباب وجِدَةٌ، شباب يتدفق حيوية ونشاطًا، وقدرة مالية يتمكن بها من تحصيل ما يشتهي، وعليه أن يحذر ـ أيضًا ـ ما وقع فيه كثير من الناس من إضاعة أوقاتهم في مواقع التواصل الاجتماعي، أو وسائل التقنية الحديثة، أو أمام القنوات الفضائية، أو في المستراحات، فالوقت هو الحياة، فمن عرف حق الوقت فقد أدرك قيمة الحياة.

٢ ـ زمن الشباب

٢ ـ ومن أمثلة الفُرص والأحوال: وجود النشاط وحال الشباب وقوة البدن وزمان العافية.

٣ ـ الذكاء

٣ ـ الذكاء ونباهة الخاطر؛ «لأن الذكاء وجودة القريحة وثقوب الذهن جواهر نفيسة، فإذا طلب صاحبها العلم، فبلغ فيه مبلغًا، فقد حفظ جمالها على نفسه، وأحرز منفعتها لها. ومن ترك الطلب حتى كَلَّ ذهنُه، وعميت فطنتُه، وتبلدت قريحتُه مع إدبار عمره، كان كمن عَمَدَ إلى ما عنده من الياقوت والدُّر فَرَضَّهُ، وأبطل الجمال والنفع

به...»[١]. وتقدم ـ قريبًا ـ قول الفراء: «لا أرحم أحدًا كرحمتي لرجلين: رجل يطلب العلم ولا فهم له، ورجل يفهم ولا يطلبه، وإني لأعجبُ ممن في وُسْعِهِ أن يطلب العلم ولا يتعلم»[٢].

٤ ـ قلة الشواغل

٤ ـ قلة الشواغل قبل عوارض البطالة، أو موانع الرئاسة، وارتفاع المنزلة، كما سيأتي.

كلام نفيس للماوردي في الشروط التي يتوفر بها العلم

يقول أبو الحسن الماوردي: «وأما الشروط التي يتوفر بها علم الطالب، وينتهي معها كمال الراغب، مع ما يلاحظ به من التوفيق، ويُمد به من المعونة، فتسعة شروط:

الأول: العقل الذي يدرك به حقائق الأمور.

والثاني: الفطنة التي يتصور بها غوامض العلوم.

والثالث: الذكاء الذي يستقر به حفظ ما تصوّره، وفَهْمُ ما علمه.

والرابع: الشهوة التي يدوم بها الطلب، ولا يسرع إليها الملل.

والخامس: الاكتفاء بمادة تغنيه عن كُلَفِ الطلب.

والسادس: الفراغ الذي يكون معه التوفر، ويحصل به الاستكثار.

والسابع: عدم القواطع المذهلة، من هموم، وأشغال، وأمراض.

والثامن: طول العمر، واتساع المدة؛ لينتهي بالاستكثار إلى مراتب الكمال.

والتاسع: الظفر بعالم سَمْحٍ بعلمه متأنٍّ في تعليمه.

فإذا استكمل هذه الشروط التسعة، فهو أسعد طالب، وأنجح متعلم. وقد قال الإسكندر: يحتاج طالب العلم إلى أربع: مُدَّةٍ، وجِدَةٍ، وقريحة، وشهوة، وتمامها في الخامسة: معلم ناصح»[٣].

---

(١) «الحث على طلب العلم» للعسكري (ص٧٣ ـ ٧٤).
(٢) «جامع بيان العلم» (١/٣٥٦).
(٣) «أدب الدنيا والدين» (ص٥٣).

٣٩ـ الحرص على الطلب والتحصيل قبل السيادة والرئاسة

قوله: (فقد قال الشافعي: «تَفَقَّه قبل أن ترأس؛ فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقُّه»)[١] هذه وصية نفيسة من الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهي الحث على الطلب والتحصيل قبل السيادة والرئاسة؛ لأن الرئيس قد يمنعه الكبر والاحتشام أن يجلس مجلس المتعلمين. وقد جاء عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «تفقهوا قبل أن تُسَوَّدُوا»[٢]، ومعناه: قبل أن تصبحوا سادة، قال البخاري: «وبعد أن تُسَوَّدُوا، وقد تعلم أصحاب النبي ﷺ في كِبَرِ سنهم»[٣]. وقَصْدُ البخاري أن كلمة عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لا مفهوم لها؛ خشية أن يفهم أحد أن السيادة مانعة من التفقه، وإنما أراد عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنها قد تكون سببًا للمنع. قال أبو عبيد: قوله: ««تفقهوا قبل أن تُسودوا» يقول: تعلموا العلم ما دمتم صغارًا قبل أن تصيروا سادةً رؤساءَ، منظورًا إليكم، فإن لم تَعلَّموا قبل ذلك استحييتم أن تعلموه بعد الكِبَرِ، فبقيتم جهَّالًا تأخذونه من الأصاغر، فيزري ذلك بكم»[٤]. والله أعلم.



(١) رواه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٥٢).
(٢) علقه البخاري (١/ ١٦٥ «فتح الباري»)، ووصله الدارمي (١/ ٦٩)، وأبو خيثمة في «العلم» (٩) وغيرهما، قال الحافظ: إسناده صحيح.
(٣) هذا في بعض نسخ البخاري. انظر: طبعة دار التأصيل (١/ ٢٤٧).
(٤) «غريب الحديث» (٤/ ٢٦٠ ـ ٢٦١).

الدرس السادس عشر

من آداب الدارس (٧)

❁ ويعتني بتصحيح درسه الذي يحفظه تصحيحًا مُتقنًا، ويكرره مرات؛ ليرسخ رسوخًا مُتأكدًا، ثُمَّ يراعيه بحيث لا يزال محفوظًا جيِّدًا. وليذاكر بمحفوظاته، ولْيُدِمِ الفكر فيها.

❁ وينبغي أن يبدأ من دروسه - وفي الحفظ، والتكرار والمطالعة - بالأَهَمِّ فالأهمِّ.

❁ وأول ما يبتدئُ به حفظ القرآن العزيز، فهو أهم العلوم، وكان السلف لا يُعلّمون الحديث والفقه إلَّا لمن حفظ القرآن، وإذا حفظه فليحذر من الاشتغال عنه بالحديث والفقه وغيرهما اشتغالًا يؤَدي إلى نسيان شيء منه أو تعريضه للنسيان.

❁ وبعد حفظ القرآن يحفظ من كل فنٍّ مختصرًا، ويبدأ بالأهم، ومن أهمها: الحديث، والأصول، والنحو، ثم الباقي.

❁ ثم يشتغل باستشراح محفوظاته، ويعتمد من الشيوخ في كل فن أكملهم في الصفات السابقة.

❁ وكلما أتقن مختصرًا انتقل إلى أكبرَ منه، مع المطالعة المتقنة والعناية الدائمة المحكمة، وتعليق ما يراه من النفائس والغرائب، وحلِّ المُشكلات مما يراه في المطالعة أو يسمعه من الأستاذ.

❋ ولا يحتقرن فائدة يراها أو يسمعها في أي فن كانت، بل يبادر إلى كتابتها، ثُمَّ يُواظب على مطالعة ما كتبه.

❋ وليعتنِ بكل الدروس ويُعلق عليها ما أمكن، فإن عَجَزَ اعتنى بالأهم.

❋ وينبغي أن يرشد رفقته وغيرهم من الطلبة إلى مواطن الاشتغال والفائدة، ويذكر لهم ما استفاده على جهة النصيحة والـمُذاكرة.

الشرح

ومن آداب الدارس: ٤٠ ـ العناية بالمحفوظات

قوله: (ويعتني بتصحيح درسه الذي يحفظه تصحيحًا مُتقنًا، ويكرره مرات؛ ليرسخ رسوخًا مُتأكدًا، ثُمَّ يراعيه بحيث لا يزال محفوظًا جيدًا. وليذاكر بمحفوظاته، ولْيدِم الفكر فيها) هذا الأدب يتعلق بما يحفظ من الدروس من منثور أو منظوم، وذلك أن ما يُحفظ تراعى فيه الأمور الآتية:

❋ التصحيح قبل الحفظ

١ ـ أن يصحح ما يقرأه قبل حفظه تصحيحًا متقنًا إما على شيخه أو على غيره ممن يعينه، وذلك ليأمن الخطأ؛ لأن ما حفظ خطأً يصعب تصويبه.

❋ إحكام الحفظ

٢ ـ إحكام الحفظ بكثرة تكريره تكريرًا جيدًا؛ ليرسخ في الذهن رسوخًا متأكدًا، قال ابن الجوزي: «الطريق في إحكام المحفوظ كثرة الإعادة، والناس يتفاوتون في ذلك، فمنهم من يثبت معه المحفوظ مع قلة التكرار، ومنهم من لا يحفظ إلا بعد التكرار الكثير، فينبغي للإنسان أن يعيد بعد الحفظ؛ ليثبت معه المحفوظ. . .

وكان أبو إسحاق الشيرازي يعيد الدرس مائة مرة، وكان أبو الحسن الهراسي يعيد سبعين مرة، وقال لنا الحسن بن أبي بكر النيسابوري الفقيه: لا يحصل الحفظ لي حتى يعاد خمسين مرة.

وحكى لنا الحسن: أن فقيهًا أعاد الدرس في بيته مرارًا كثيرة، فقالت له عجوز في بيته: قد ـ والله ـ حفظته أنا. فقال: أعيديه، فأعادته، فلما كان بعد أيام قال: يا عجوز، أعيدي ذلك الدرس، فقالت: ما أحفظه. قال: أنا أكرر عَدَّ الحفظ؛ لئلا يصيبني ما أصابك[١].

* تعاهد الحفظ

٣ ـ مراعاة الحفظ وتعاهده من وقت لآخر، بحيث لا يزال محفوظًا جيدًا؛ لأن عدم التعاهد عنوان الذهاب للعلم مهما كان[٢].

* مذاكرة معنى ما يُحفظ

٤ ـ مذاكرة العلم، وتسمى المذاكرة مع النفس، والثانية: المذاكرة مع الغير، وستأتي. قال ابن جماعة بعد أن رَغَّبَ في المذاكرة مع الغير: «.. فإن لم يجد الطالب من يذاكره، ذاكر نفسه بنفسه، وكرر معنى ما سمعه ولَفْظَه على قلبه؛ ليعلق ذلك على خاطره، فإن تكرار المعنى على القلب؛ كتكرار اللفظ على اللسان، سواء بسواء، وقل أن يفلح من يقتصر على الفكر والتعقل بحضرة الشيخ خاصةً، ثم يتركه ويقوم، ولا يعاوده»[٣].

٤١ ـ المنهجية في طلب العلم

قوله: **(وينبغي أن يبدأ من دروسه ـ وفي الحفظ، والتكرار والمطالعة ـ بالأهم فالأهم)** هذا الأدب يتعلق بالمنهجية في طلب العلم؛ فالمنهجية في الطلب أمر من الأهمية بمكان، وذلك لأن العلم كثير، والعمر قصير، والعوارض كثيرة، فلا بد من منهجية يسير عليها الطالب؛ ليستفيد من جهده ووقته. قال سلمان الفارسي ﷺ لصاحبه: «إن العلم كثير، والعمر قصير؛ فخذ من العلم ما تحتاج إليه في أمر دينك، ودع ما سواه فلا تُعانِهْ»[٤].

---

(١) «الحث على حفظ العلم» لابن الجوزي (ص٢١).
(٢) «حلية طالب العلم» (ص٣٩).
(٣) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص١١٧ ـ ١١٨).
(٤) «حلية الأولياء» (١/ ١٨٩).

الاستعانة بمن يرسم المنهجية

وإن استعان الطالب بشيخ يرسم له المنهجية فهذا أولى. وهذه المنهجية تختلف باختلاف الزمان والمكان والمذهب. وللعلماء السابقين ومن بعدهم توجيهات نفيسة في سُلَّمِ التعلم، ثمرتها الاستفادة من الوقت، والتأسيس على أسس سليمة وقواعد راسخة.

قوله: (ثم الأهمَّ ثم الأهمَّ) مراد به تقديم الأهمِّ من الدروس على ما يليه مما هو دونه في الرتبة، لكن ظاهر العبارة يفيد الترقي، وهو غير مراد قطعًا، وعليه فالأولى أن يقول: «ثم الأهم فالمهم» وتكون صيغة (أفعل) الثانية ليست على بابها، وإنما هي من باب اسم الفاعل، ولهذا نظائر في اللغة[١].

الابتداء بحفظ القرآن الكريم

قوله: (وأول ما يبتدئُ به حفظ القرآن العزيز فهو أهم العلوم، وكان السلف لا يعلّمون الحديث والفقه إلَّا لمن حفظ القرآن)؛ أي: إن حفظ القرآن العزيز، مطلوب ممن يتجه لطلب العلم، فهو أهم العلوم، بل هو أصلها وأمها، وحُكي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول:

جميعُ العلم في القرآن لكن   تَقَاصَرَ عنه أفهامُ الرجالِ[٢].

وقال ابن القيم:

فتدبرِ القرآنَ إن رمتَ الهُدى   فالعلمُ تحتَ تدبرِ القرآنِ[٣]

تأكيد الأئمة على تقديم حفظ القرآن على طلب العلم

وقد نصَّ على تقديم حفظ القرآن في طلب العلم كبار الأئمة كابن عبد البر، وابن الجوزي، وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهم[٤]؛ ليسهل على الطالب الاستدلال، قال ابن عبد البر: «أول العلم: حفظ كتاب الله، وتفهمه، وكلُّ ما يعين على فهمه فواجب طلبه معه، ولا أقول إن حفظه كله فرض، ولكني أقول: إن ذلك شرط لازم على من

---

(١) انظر: «تذكرة السامع والمتكلم» شرح الشيخ: صالح العصيمي ص(٨٢).
(٢) «مرقاة المفاتيح» (٩/ ٣٩٧٢).
(٣) «النونية» (ص٤١).
(٤) انظر: «صيد الخاطر» (ص١٦٩)، «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٢٣/ ٥٤).

أحب أن يكون عالمًا، فقيهًا ناصبًا نفسه للعلم، ليس من باب الفرض»[١] ولعل هذا محمول على من بدأ الطلب في الصغر، أما من لم يطلب العلم إلا في الكبر فإن حفظ القرآن صعب عليه، وربما قطعه عن معرفة ما يلزمه من أحكام دينه. قال الميموني: «سألت أحمد أيما أحب إليك: أبدأ ابني بالقرآن أو بالحديث؟ قال: لا، بالقرآنِ، القرآنِ، قلت: أعلمه كلَّه؟ قال: إلا أن يعسر عليه فتعلمه منه، ثم قال: إذا قرأ أولًا تعود القراءة ولزمها»[٢].

منهج السلف في عدم التعليم إلا بعد حفظ القرآن

وقد كان السلف لا يعلمون الحديث والفقه إلا لمن حفظ القرآن. قال ابن أبي حاتم: لم يدعني أبي أطلب الحديث حتى قرأت القرآن على الفضل بن شاذان[٣]. وعن الوليد بن مسلم قال: كُنّا إذا جالسنا الأوزاعيَّ فرأى فينا حَدَثًا قال: «يا غلام، قرأتَ القرآن؟ فإن قال: نعم، قال: اقرأ ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ [النساء: ١١]. وإن قال: لا. قال: اذهب تعلم القرآن قبل أن تطلب العلم»[٤].

وروى ابن المديني، عن عبد الوهاب بن همام، عن ابن جريج قال: «أتيت عطاءً، وأنا أريد هذا الشأن، وعنده عبد الله بن عبيد بن عمير. فقال لي ابن عمير: قرأت القرآن؟ قلت: لا. قال: فاذهب فاقرأه، ثم اطلب العلم. فذهبت فغبرت زمانًا، حتى قرأت القرآن، ثم جئت عطاءً، وعنده عبد الله، فقال: قرأت الفريضة؟ قلت: لا. قال: فتعلم الفريضة، ثم اطلب العلم. قال: فطلبت الفريضة ثم جئت. فقال: الآن فاطلب العلم»[٥].

وقال أبو العيناء: أتيت عبد الله بن داود، فقال: ما جاء بك؟

---

(١) «جامع بيان العلم» (٢/ ٢٨٠).
(٢) «طبقات الحنابلة» (١/ ٢١٤).
(٣) «تذكرة الحفاظ» (٣/ ٨٣٠).
(٤) «الجامع» للخطيب (١/ ١٠٨).
(٥) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٣٢٧).

قلت: الحديث. قال: اذهب فتحفظ القرآن. قلت: قد حفظت القرآن. قال: اقرأ. ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: ٧١]. فقرأت العُشْرَ حتى أنفذته. فقال لي: اذهب الآن فتعلم الفرائض. قلت: قد تعلمت الصُّلْبَ، والجَدَّ، والكُبَرَ. قال: فأيما أقرب إليك ابن أخيك، أو عمك؟ قلت: ابن أخي. قال: وَلِمَ؟ قلت: لأن أخي من أبي، وعمي من جدي. قال: اذهب الآن فتعلم العربية. قال: قد علمتها قبل هذين. قال: فَلِمَ قال عمر ـ يعني حين طُعن ـ ياللَّه ولِلمسلمين، لِمَ فتح تلك، وكسر هذه؟ قلت: فتح تلك اللام على الدعاء، وكسر هذه على الاستغاثة والانتصار. فقال: لو حدثت أحدًا لحدثتك[١].

الحذر من الاشتغال عن القرآن بدراسة الحديث ونحوه

قوله: **(وإذا حفظه فليحذر من الاشتغال عنه بالحديث والفقه وغيرهما اشتغالًا يؤدي إلى نسيان شيء منه أو تعريضه للنسيان)** هذا أدب عظيم من آداب حملة القرآن وطلاب العلم وهو الحث على تعاهد القرآن والإكثار من قراءته حتى لا يتفلت منه ويُنسى، وقد جاء في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**تعاهدوا القرآن، فو الذي نفسي بيده لهو أشد تفصيًا من الإبل في عُقُلِهَا**» ولفظ مسلم: «**لهو أشد تفلتًا من الإبل في عُقُلِهَا**»[٢]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المعقلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت**»[٣].

فينبغي لطالب العلم الإكثار من تلاوة القرآن، وتعاهده، فمن أقبل عليه بالمذاكرة يسره الله له، ومن أعرض عن ذلك ضاع حفظه وتفلت منه، وعليه أن يحذر الاشتغال عنه بالحديث والفقه وغيرهما

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٣٥١).

(٢) رواه البخاري (٥٠٣٣)، ومسلم (٧٩١)، وقوله: «أشد تفصيًا» بفتح الفاء وكسر الصاد المهملة الثقيلة، بعدها تحتانية خفيفة، أي: خروجًا وتخلصًا.

(٣) رواه البخاري (٥٠٣١)، ومسلم (٧٨٩).

بحيث يعرضه للنسيان، بل يُعطي القرآن حظه، ويعطي هذه العلوم وغيرها نصيبها، وهذه صفة طالب العلم الذي يرتب وقته، ويستفيد من عُمُرِهِ.

والأمثل في ذلك أن يكون لطالب العلم حزب يومي مقدر من كتاب الله تعالى، حسب همته ونشاطه وفراغه، يؤديه في وقته، ويقضيه إن فات أداؤه في وقته، ويحرص على أن تكون القراءة في الصلاة، أو قبل الصلاة، والقراءة في صلاة الليل لها شأن عظيم، وأخبار سلف الأمة في هذا مشهورة[١].

حفظ مختصر من كل فنّ

قوله: **(وبعد حفظ القرآن يحفظ من كل فن مختصرًا؛ ويبدأ بالأهم، ومن أهمها: الحديث، والأصول، والنحو، ثم الباقي)**؛ أي: وبعد أن يحفظ الطالب القرآن يحفظ من كل فن متنًا مختصرًا؛ لأن المختصرات فيها ثلاث مزايا:

مزايا المتون المختصرة

١ ـ أنها أقرب إلى الفهم والضبط من المطولات؛ لاختصارها.

٢ ـ أنها أبعد من الملل والسأم الذي قد يكون في قراءة بعض المطولات؛ نظرًا لقصرها وسرعة الانتهاء منها.

٣ ـ أن مسائلها أكثر وقوعًا بين الناس؛ لعدم التفاصيل والتفاريع فيها[٢].

قال ابن الجوزي: «لِيَنْظُرِ [المبتدئ] ما يحفظ من العلم؛ فإن العمر عزيز، والعلم غزير، وإن أقوامًا يصرفون الزمان إلى حفظِ ما غيُرهُ أولى منه، وإن كان كل العلوم حسنًا، ولكن الأولى تقديم الأهم والأفضل»[٣].

وقال أبو العباس أحمد بن قدامة: «ابتدئْ بكتاب الله، ثم بسُنَّة رسوله ﷺ، ثم بعلوم القرآن: من التفسير، ومن ناسخ ومنسوخ،

(١) انظر: «التبيان» (ص٤٥)، «مفاتح تدبر القرآن» ص(١٣٩).
(٢) «تعليم المتعلم» (ص٣٣).
(٣) «صيد الخاطر» (ص١٧٨).

ومحكم ومتشابه إلى غير ذلك، وكذلك في السُّنَّة، ثم اشتغل بالفروع، وأصول الفقه، وهكذا بقية العلوم على ما يتسع له العمر، ويساعد فيه الوقت، ولا تستغرق عمرك في فن واحد منها؛ طلبًا للاستقصاء؛ فإن العلم كثير، والعمر قصير»(١).

الأخذ عن الشيخ الأحسن تعليمًا في كل فنّ

قوله: (ثم يشتغل باستشراح محفوظاته، ويعتمد من الشيوخ في كل فن أكملهم في الصفات السابقة)؛ أي: بعد حفظ المتون ينتقل الطالب إلى مشايخه؛ طلبًا لشرح ما تم حفظه، ويحسن أن يعتمد في كل فن على من هو أحسن تعليمًا له، وأكثر تحقيقًا فيه، وتحصيلًا منه.

وقوله: (في الصفات السابقة)؛ أي: التي تقدم ذكرها من الدين والصلاح والشفقة وغيرها، وهذا إن تيسر فهو أفضل وأكمل، فإن لم يكن أخذ شرحها على بعض طلاب العلم النابغين، فإن لم يكن ـ كما في بعض الجهات ـ فليأخذ شرحها عن طريق الوسائل الحديثة ـ التي أنعم الله بها ـ من الأشرطة ونحوها، وهذه الوسائل متوفرة بحمد الله.

وقد روى ابن أبي حاتم في تفسيره(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران: ٧٩]. قال: هو المعلم. وقال سعيد بن جبير: هو الفقيه العليم الحكيم. وقال البخاري: يقال: الرباني: الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره.

والربَّاني منسوب إلى التربية من ربَّ يربُّ ربًّا أي تربية؛ أي: يَرُبُّ الناس بالعلم، ويربيهم به كما يربي الطفلَ أبوه(٣).

التدرج في العلم وحفظ المتون

قوله: (وكلما أتقن مختصرًا انتقل إلى أكبرَ منه) هذا هو التدرج

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٢٠).
(٢) (٢/ ٦٩١).
(٣) انظر: «صحيح البخاري» (١/ ٢٤٤)، «تفسير الطبري» (٦/ ٥٤٢)، «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٨٥)، «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦).

في العلم والترقي في الطلب، فإذا حفظ الطالب مختصرًا في الفقه ـ مثلًا ـ فلينتقل إلى ما فوقه، لكن عليه أن يعطي الكتاب الذي قرأه كليته حتى يتقنه، وعليه أن يحذر التنقل من كتاب إلى كتاب من غير موجب، فإن هذا مضيعة للوقت والجهد، وهو علامة على الضجر، ولا يجمع بين أكثر من فن؛ لأن ازدحام العلم في السمع مَضَلَّةُ الفهم، يقول الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «يجب ألا يخوض الإنسان في فن حتى يتناول من الفن الذي قبله على الترتيب بُلْغَتَهُ، ويقضي منه حاجته، فازدحام العلم في السمع مَضَلَّةُ الفهم، وعليه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]؛ أي: لا يجاوزون فنًّا حتى يحكموه علمًا وعملًا، ويجب أن يقدم الأهم فالأهم من غير إخلال بالترتيب.

وكثير من الناس منعوا الوصول بتركهم الأصول؛ وحقه أن يكون قصده من كل علم يتحراه التبلغ به إلى ما فوقه حتى يبلغ النهاية»[(١)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ على قوله ﷺ: «**إن العلماء ورثة الأنبياء**»[(٢)]: «فيه تنبيه لأهل العلم على تربية الأمة كما يربي الوالد ولده؛ فيربونهم بالتدريج والترقي من صغار العلم إلى كباره، وتحميلهم منه ما يطيقون، كما يفعل الأب بولده الطفل في إيصاله الغذاء إليه؛ فإن أرواح البشر إلى الأنبياء والرسل كالأطفال بالنسبة إلى آبائهم، بل دون هذه النسبة بكثير»[(٣)].

تنمية المعلومات وتوسيع المدارك

قوله: (مع المطالعة المتقنة والعناية الدائمة المحكمة) هذا أدب نفيس ومطلب عظيم ينبغي لطالب العلم أن يتحلى به، ألا وهو تنمية المعلومات، وتوسيع المدارك، وكسب الثقافة، والتعرف على الكتب

(١) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (ص١٤٦ ـ ١٤٧).
(٢) تقدم تخريجه (ص٩٥).
(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٨٠).

وعلى العلماء الذين بذلوا جهدهم، وأنفقوا أوقاتهم في تأليفها، وذلك بواسطة القراءة، والحرص على المطالعة الدائمة؛ فبالإضافة إلى فوائد القراءة في تنمية المعلومات، فإن فيها شغل الوقت بما ينفع، والبعد عما يعانيه الإنسان في حياته من الفراغ، وما قد يترتب عليه من مشكلات نفسية وأمور اجتماعية.

استشارة العلماء فيما تنبغي مطالعته

ولا بد من استشارة أهل العلم في الكتب التي تنبغي قراءتها؛ لأن حصر الكتب النافعة لا يمكن لكثرتها وتنوعها، ولا سيما في زماننا هذا، ومن الناس من يقرأ ولكن لا يميز بين النافع وغيره، أو بين المهم والأهم، أو بين ما يناسب فهمه وإدراكه أو لا، وعليه فلا بد من الاستشارة عن الأنفع علمًا، والأخصر طريقًا، والأسهل أسلوبًا، والأحسن طبعةً، والأجود تحقيقًا.

والتدرج في القراءة مطلوب، فإن لها سُلَّمًا كَسُلَّمِ التعلم، وعلى طالب العلم ألا يستعجل الثمرة؛ لأن المقصود من القراءة الاستفادة لا الاستكثار، وعليه أثناء قراءته أن يحرص على تسجيل الفوائد، وتقييد الفرائد التي تمر به، إما في حاشية الكتاب، أو مقدمته، أو في دفتر مستقل، كما سيأتي إن شاء الله.

القراءة ثلاثة أنواع:

والقراءة ـ في نظري ـ ثلاثة أنواع:

١ ـ قراءة تنمية المعلومات

النوع الأول: قراءة تنمية المعلومات. وهذه قد تكون نافعة، وقد تكون ضارة؛ لأنها على حسب تخصص القارئ وميوله، وهذه ليس لها وقت معين، وهي مفيدة إذا روعيت فيها ضوابط القراءة وشروطها: من حسن الاختيار، واختيار الطبعة الجيدة المحققة، والتأني، وتسجيل الفوائد.

٢ ـ قراءة التأليف أو تحضير الدروس

النوع الثاني: قراءة التأليف أو تحضير الدروس. وهذه أنفع مما قبلها؛ نظرًا لشمولها، واتصافها بالجدية، ووجود الدوافع القوية لها، وثبات المعلومات فيها، لكنها على حسب همة المدرس أو المؤلف ورغبته في نفع نفسه أولًا، وإثراء طلابه بالمعلومات ثانيًا، واستعداده

لأسئلة طلابه ثالثًا، وهي تتعلق بفنون كثيرة، وإذا روعيت فيها مسألة تسجيل الفوائد النادرة، صار نفعها عظيمًا، واجتمع على إثرها فوائد ونفائس، وهذا شيءٌ ملحوظ ومجرب.

٣ ـ قراءة المتعة وإجمام النفس

النوع الثالث: قراءة المتعة وإجمام النفس. وهي شبيهة بالنوع الأول، وغالبًا ما تكون في كتب الأدب أو التاريخ أو المجاميع، وهي نافعة، ففيها زيادة على المتعة وإجمام النفس، تنمية المعلومات، وقضاء وقت الراحة بما ينفع ويفيد، إذا أُحسن فيها الاختيار، وهي بهذا مسلك جميل، سلكه العلماء ونبهوا عليه[(١)].

التعليق على الكتاب الذي يشرحه الشيخ

قوله: **(وتعليق ما يراه من النفائس والغرائب، وحلِّ المُشكلات مما يراه في المطالعة أو يسمعه من الأستاذ)** هذه من صفات طالب العلم الحريص على اقتناص الفوائد وتسجيل الأوابد، وهي التعليق على الكتاب الذي يقرأه، أو يشرحه الشيخ، فيحرص الطالب على التعليق على الكتاب الذي يطالع فيه، وكذا ما يسمعه من شيخه أو أستاذه، ولا يكتفي بمجرد سماعه وقت الدرس؛ لأن الإنسان عرضة للنسيان، فإذا لم يكتب نسي ما تعلمه، وضاع منه، فتقييد العلم بالكتابة أمان من الضياع، واختصار لمسافة البحث عند الاحتياج، ولا سيما في مسائل العلم التي تكون في غير مظانها، ومن أَجَلِّ فوائده أنه عند كبر السن وضعف القوى يكون لديك مادة تَسْتَجِرُّ منها مادة تكتب فيها بلا عناء في البحث والتقصي[(٢)]. وقديمًا قيل:

العلمُ صَيْدٌ والكتابةُ قَيْدُهُ ... قَيِّدْ صُيُودَكَ بالحبالِ الواثِقَه
فَمِنَ الحَمَاقَةِ أن تَصِيْدَ غَزَالةً ... وتَفُكَّها بَيْنَ الخَلائِقِ طَالِقَه[(٣)]

وكما قيل: كل علم ليس في القرطاس ضاع.

---

(١) انظر: «حلية طالب العلم» (ص٦٤).
(٢) انظر: «حلية طالب العلم» (ص٣٧).
(٣) «إعانة الطالبين» (٤/ ٥).

وقال الشعبي: إذا سمعت شيئًا فاكتبه ولو في الحائط[١].

وقال الخليل: ما كُتب قرَّ، وما حُفظ فرَّ[٢].

وتقدم قول الفِرَبْرِي: «كنت مع محمد بن إسماعيل بمنزله ذات ليلة، فأحصيت عليه أنه قام، وأسرج يستذكر أشياء يعلقها في ليلة ثمانِ عشرةَ مرة»[٣].

الحرص على اقتناص الفوائد وتقييدها

قوله: **(ولا يحتقرن فائدة يراها أو يسمعها في أي فن كانت، بل يبادر إلى كتابتها)** هذه مسألة اقتناص الفوائد وتقييدها، فيحرص الطالب على تقييد الفوائد والفرائد والأبحاث المنثورة في غير مظانها، سواء عَلَّقَ ذلك على غلاف الكتاب الذي معه، أو في «كُنَاشٍ»[٤] أو «مذكرة» وهذا أحسن، وإذا اجتمع لديك ما شاء الله أن يجتمع فرتبه على الموضوعات، فإنه يسعفك في أضيق الأوقات التي قد يعجز عن الإدراك فيها كبار الأثبات[٥]. لكن هذا يحتاج إلى صبر وعزم وجِدٍّ، وكل ذلك يهون إذا تذكر عظم الفائدة مستقبلًا.

مراجعة ما تمت كتابته من تعليق أو غيره

قوله: **(ثم يواظب على مطالعة ما كتبه)** هذه وصية نفيسة لكل من يحضر الدروس مع المشايخ، أو في الدورات العلمية، أو في الدراسة النظامية، وهو أن على الطالب أن يراجع ما كتبه في دفتره أو عَلَّقَهُ على كتابه من نفائس وفوائد وحل مشكلات، سواء أكان ذلك بنفسه أم مع غيره من أقرانه وزملائه في الدرس ـ كما سيأتي إن شاء الله ـ والمواظبة على مطالعة ما كتب له أثر كبير في نماء المعلومات، وثباتها، وتفقد ما قد يكون في بعضها من خطأ أو سقط أو نحو ذلك ليتم تصحيحه.

---

(١) رواه أبو خيثمة في «العلم» (ص٣٤).

(٢) انظر: «تعليم المتعلم» (ص٤٨).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٤٠٤)، وقوله: «ثمانِ عشرةَ» بكسر النون وحذف الياء للتخفيف، كما تقدم.

(٤) هي بضم الكاف وتخفيف النون وشين معجمة على وزن غراب. انظر: «كناشة النوادر» (ص٩).

(٥) انظر: «حلية طالب العلم» (ص٣٧).

والأمثل في هذا: أن تراجع الموضوعات التي ستشرح في درس مسجد أو دورة علمية أو دراسة نظامية قبل شرحها، وعندما كنا طلابًا في العهد العلمي ثم في الكلية كنا نراجع الدروس قبل شرحها، ثم نراجعها بعد شرحها، ثم نراجع في نهاية الأسبوع جميع ما شرح في أوله، ولا شك أن هذا يحتاج إلى صبر ومواظبة، وقد لمسنا من ذلك فوائد عظيمة، تحدث عنها بعض المربين عندما قال: (إنَّ من المجرّب أن قراءتك الموضوع قبل تدريسه أفضل خِطَّةً يمكن أن تسير عليها، وكلما ازداد ما تعرفه عن المحاضرة قبل إلقائها ازدادت الفائدة منها، وازدادت قدرتك على أن تميز فيما يلقيه المحاضر بين ما هو خير وله قيمة وبين ما هو حشو تافه لا خير فيه.

وتعطيك قراءة الموضوع قبل تدريسه قدرة على أن تختار بسهولةٍ وعن علم الملاحظاتِ الجديرةَ بالتسجيل في دفترك الخاص بالملاحظات، وتعطيك فرصة لأن تسأل المدرس وتباحثه في أمور عرضت حين قراءتك الموضوع.

أما إذا أجَّلت قراءة الموضوع إلى ما بعد تدريسه فسوف تحتاج إلى بذل جهد كبير كي تفهم ما يقوله المدرس، ومن المتوقع أن تَشْغَلَ نفسك بتسجيل ملاحظات يكون بعضها تافهًا لا قيمة له، وبعضها جاء في الكتاب المقرر وأنت لا تدري).

ومن سيئات تأجيل قراءة الموضوع إلى ما بعد تدريسه أنك لن تجد فرصة للتعمق فيما يقوله المحاضر، ولا لنقده، ولا لترجيح رأي على رأي.

وربما كان في الكتاب المقرر بعض عبارات غامضة، وألفاظ اصطلاحية تحتاج إلى إيضاح، فلا تدري بها إلا بعد فوات الوقت المناسب)[1].

قوله: **(وليعتنِ بكل الدروس ويُعلق عليها ما أمكن)** تقدم الحث على التعليق واقتناص الفوائد، فإذا حضر الدروس العلمية عن المشايخ

---

(١) «رسائل لم يحملها البريد» مجلة الجامعة الإسلامية عدد (٣٧).

اعتنى بها وعلق عليها ما سمعه من الشيخ، فإن أمكن أن يعلق على جميع دروسه فهو المطلوب، وإلا اعتنى بالأهم منها. قال أبو زيد النحوي: لا يضيء الكتاب حتى يظلم. وفي رواية: لا ينير[١]. يريد بذلك حث الطالب على التعليق على كتابه في كل بياض منه.

٤٢ ـ إرشاد الطالب زملاءه إلى الفوائد ومواطن الإشكال

قوله: **(وينبغي أن يرشد رفقته وغيرهم من الطلبة إلى مواطن الاشتغال والفائدة، ويذكر لهم ما استفاده)** هذا الأدب يتعلق بالرفقة والزمالة في الطلب، إذ إن الطالب لا يخلو من زميل ورفيق أثناء الدراسة إما على المشايخ في المساجد والدورات العلمية، وإما في الدراسات النظامية ـ وهذا هو الغالب ـ. وقد حث العلماء استنادًا إلى نصوص الشريعة على أن الطالب يتخير للزمالة والصداقة من يقربه إلى ربه، وينفعه في دينه، ويعينه على مطلبه، ويحذر من هو بضد ذلك؛ إذ الطبيعة نقالة، والطباع سراقة، وآفة العشرة: ضياع العمر بغير فائدة[٢].

وقد ذكر المؤلف أنه ينبغي للطالب أن يرشد زملاءه وغيرهم من الطلبة إلى الفوائد ومواطن الاشتغال؛ كحفظ الأدلة، ووجه الاستدلال، وتفسير الغريب، وتسجيل الفوائد العارضة، ويذكر لهم ما استفاده من المشايخ.

وكذا في الدراسة النظامية يحرص الطالب على إفادة زملائه ومساعدتهم، ولا يبخل عليهم، خشية أن يتقدموا عليه، فإن من أفاد غيره في مسألة بورك في علمه، واستنار قلبه، وتأكدت المسائل عنده، وثبتت في ذهنه، مع جزيل ثواب الله. قال ابن المبارك: «أول منفعة العلم أن يفيد الطلبة بعضهم بعضًا»[٣] وما أحسن قول القائل!

إذا أفادكَ إنسانٌ بفائدةٍ مِنَ العلوم فَلَازِمْ شُكْرَهُ أَبدَا
وقُلْ: فلانٌ جَزَاهُ اللَّهُ صالحةً أفادنيها وأَلْقِ الكِبرَ والحَسَدَا

---

(١) «الجامع» للخطيب (١/ ١٧٧).
(٢) انظر: «تعليم المتعلم» (ص١٤)، «حلية طالب العلم» (ص٣٣).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٣٩٨).

فالحُرُّ يشكُرُ صُنْعًا للمُفيدِ له   عِلمًا ويَذكُرُهُ إنْ قامَ أو قَعَدَا[(١)]

ولما تحدث ابن القيم عن مراتب الجود وهي عشر مراتب، ذكر أن الجود بالعلم وبذله [لمن هو أهل له][(٢)] من أعلى المراتب، وأن الجود بالعلم أفضل من الجود بالمال؛ لأن العلم أشرف من المال، العلم يبقى، والمال يفنى.

ومن الجود بالعلم: ألا تبذله لمن يسألك عنه فحسب، بل تطرحه عليه طرحًا، ومن الجود بالعلم: أن السائل إذا سألك عن مسألة: استقصيت له جوابها جوابًا شافيًا.. ولم تقتصر على مسألة السائل، بل تذكر له نظائرها ومتعلقها ومأخذها ـ إن أمكن ـ بحيث يشفيه ويكفيه[(٣)].

وقد حذر الأئمة من البخل بالعلم. قال عبد الله بن المبارك: من بخل بالعلم ابتلي بثلاث: إما يموت فيذهب علمه، أو ينسى، أو يتبع السلطان[(٤)].

وقال ابن القاسم: كنا إذا ودعنا مالكًا يقول لنا: اتقوا الله، وانشروا هذا العلم، وعلموه ولا تكتموه[(٥)]. وقيل: ما صِيْنَ العلم بمثل العمل به وبذله لأهله[(٦)]. وقال ابن القيم: اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ: ألا ينفع بالعلم بخيلًا أبدًا[(٧)].

٤٣ ـ الحرص على مذاكرة الدرس مع الرفيق

قوله: (على جهة النصيحة والمذاكرة) هذا متعلق **بقوله**: (أن يرشد رفقته) والمعنى: أن الطالب يحرص على نفع زميله إما على جهة

(١) «طبقات الشافعية» (٦/ ١٣٧)، «العلماء وعلم لا أدري» إعداد: عبد الرحمٰن الفرحان (ص٥).
(٢) هذا قيد لا بد منه. انظر: «شرح ابن بطال» (١/ ٢٠٧)، «فتح الباري» (١/ ٢٢٥).
(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤).
(٤) تقدم تخريجه (ص٨٣).
(٥) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٤٠٥).
(٦) المصدر السابق (١/ ٤٠٨).
(٧) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٩٣).

النصيحة ابتداءً، أو على جهة المذاكرة، وتسمى المذاكرة مع الغير.

فوائد المذاكرة مع الغير

والمذاكرة مع الغير تفوق المطالعة، وتشحذ الذهن، وتقوِّي الذاكرة، وتنمي العلم وتزيده وتثبته في الذهن؛ لأنه ينكشف في المذاكرة من المعاني الدقيقة الغامضة ما لا ينكشف بدونها، وهي أقوى من فائدة مجرد التكرار؛ لأن فيها تكرارًا لما علمته وزيادة ما لم تَعْلَمْهُ.

حثُّ العلماء على المذاكرة مع الغير

قال عبد الله بن المعتز: «من أكثر مذاكرة العلماء لم ينس ما علم، واستفاد ما لم يعلم»[1]. وقال أبو هلال العسكري: «الحفظ لا يكون إلا مع شدة العناية وكثرة الدرس وطول المذاكرة، والمذاكرة حياة العلم، وإذا لم يكن درس لم يكن حفظ، وإذا لم يكن مذاكرة قلَّت منفعة الدرس، ومن عوَّلَ على الكتاب وأخل بالدرس والمذاكرة ضاعت ثمرة سعيه واجتهاده في طلب العلم»[2].

قيل: مطارحة ساعة خير من تكرار شهر[3]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «مذاكرة العلم ساعة خير من إحياء ليلة»[4] وقال عطاء بن أبي رباح: «كنا نكون عند جابر بن عبد الله رضي الله عنهما فيحدثنا، فإذا خرجنا من عنده تذاكرنا حديثه، قال: فكان أبو الزبير محمد بن مسلم بن تَدْرُس أحفظنا للحديث»[5]. وقال عبد الله بن الإمام أحمد: «لما قدم أبو زرعة نزل عند أبي، فكان كثير المذاكرة له. سمعت أبي يومًا يقول: ما صليت غير الفرض، استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي»[6].

وتقدم قول الخليل: «أيامي أربعة: يوم أخرج فألقى فيه من هو أعلم مني، فأتعلم منه فذاك يوم فائدتي وغنيمتي، ويوم أخرج فألقى فيه من أنا أعلم منه، فأعلمه فذاك يوم أجري، ويوم أخرج فألقى فيه من هو

(١) «الجامع» للخطيب (١/ ٣٦٥).
(٢) «الحث على حفظ العلم» (ص٦٧).
(٣) «تعليم المتعلم» (ص٣٥).
(٤) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٤١).
(٥) «الجامع» للخطيب (١/ ٢٣٨).
(٦) «طبقات الحنابلة» (١/ ١٩٩).

مثلي فأذاكره فذاك يوم درسي، ويوم أخرج فيه فألقى من هو دوني وهو يرى أنه فوقي، فلا أكلمه وأجعله يوم راحتي»[(١)].

قال ابن جماعة: «ينبغي أن يتذاكر مواظبو مجلس الشيخ ما وقع فيه من الفوائد، والضوابط، والقواعد، وغير ذلك، وأن يعيدوا كلام الشيخ فيما بينهم، فإن في المذاكرة نفعًا عظيمًا.

وقت المذاكرة مع الغير

وينبغي المذاكرة في ذلك عند القيام من مجلسه قبل تفرق أذهانهم، وتشتت خواطرهم، وشذوذ بعض ما سمعوه عن أفهامهم»[(٢)].

شرطها

وشرط المذاكرة: أن تكون مع شخص حاذق في الفن، منصفٍ، سليم الطبع عن الاعوجاج، لا مع مُتعنتٍ، طالبٍ زلة الخصم، فإن الطبيعة نقالة، والطباع سراقة، والأخلاق متعدية، والمجاورة مؤثرة[(٣)].

قال النووي: «مذاكرةُ حاذق في الفن ساعة أنفعُ من المطالعة والحفظ ساعاتٍ بل أيامًا، وليكن في مذاكرته متحريًا الإنصاف، قاصدًا الاستفادة أو الإفادة، غير مترفع على صاحبه بقلبه ولا بكلامه، ولا بغير ذلك من حاله، مخاطبًا له بالعبارة الجميلة اللينة، فبهذا ينمو علمه، وتزكو محفوظاته. والله أعلم»[(٤)].



(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٥٣٥).
(٢) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص١١٧).
(٣) «تعليم المتعلم» مع شرحه (ص٣٠).
(٤) «شرح صحيح مسلم» (١/ ١٦٣ ـ ١٦٤).



ثمرة التقيد بما تقدم من الآداب

❊ قال الإمام النووي إثر ما تقدم: وإذا فعل ما ذكرناه، وتكاملت أهليته، واشتهرت فضيلته: اشتغل بالتصنيف، وجدَّ في الجمع والتأليف، مُحققًا كل ما يذكره، ومُبينًا[1] في نقله واستنباطه، مُتحريًا لإيضاح العبارات، وبيان المشكلات، مُجتنبًا العبارات الركيكات، والأدلة الواهيات، مستوعبًا مُعظم أحكام ذلك الفن، غير مخلٍّ بشيءٍ من أصوله، منبهًا على القواعد؛ فبذلك تظهر له الحقائق، وتنكشف المشكلات، ويطلع على الغوامض، وحل المُعضلات، ويعرف مذاهب العلماء، والراجح من المرجوح، ويرتفع عن الجمود على محض التقليد، ويلتحق بالأئمة المجتهدين أو يقاربهم إن وفق الله، وبالله التوفيق.اهـ. كلام النووي.

❊ الشرح ❊

أراد المؤلف بهذا الكلام بيان أن تقيد الطالب بما تقدم من الآداب المتعلقة بنفسه وشيخه ودرسه وزملائه وتحويل ذلك إلى واقع عملي له أثر كبير في البناء العلمي والتهيؤ لنشر العلم بالتأليف والتدريس ونفع الأمة.

---

(١) هكذا في المطبوع، وفي الأصل **(ومتثبتًا في نقله)** وكأنها أوضح، إلا إن كان مراد القاسمي أن المصنف يردف النقل ببيان وجه الاستدلال وشرح الغامض ونحو ذلك.

ولعله قصد بذلك ـ في خاتمة الكلام ـ حَثَّ طالبِ العلم على الاستفادة مما تقدم من الآداب، إذا كان العمل بها وامتثال ما جاء فيها، سيكون له أثر طيب وفائدة ملموسة.

وقد أضاف المؤلف إلى مسألة العمل بما تقدم من الآداب شرطين آخرين:

الأول: تكامل أهلية طالب العلم، وذلك بأن يكون قد تضلع بالعلوم الشرعية، علوم الغاية: من تفسير وحديث وعقيدة وفقه، وأن يكون له نصيب وافر من علوم الآلة: من نحو ولغة وأصول، مع كثرة المطالعة والقدرة على استنباط الأحكام الشرعية. وقد تقدم ذلك في آخر الدرس العاشر.

الشرط الثاني: اشتهار فضيلته، وذلك بأن يكون ممن رباه الشيوخ، لأخذه عنهم، وملازمته لهم، وهكذا كان سلف هذه الأمة، وأول ذلك ملازمة الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ وأخذهم بأقواله وأفعاله[(١)].

وقد مضى الكلام على هذين الشرطين بما يغني عن إعادته، وليس ما ذكره ـ هنا ـ تكرارًا لما تقدم؛ لأن المراد بمن تقدم المعلم، وهذا يراد به المتعلم.

قوله: (محققًا كلَّ ما يذكره..) هذا فيه بيان ما يجب أن يسلكه المتعلم حال التأليف، وذلك بما يلي:

١ ـ تحقيق ما يذكره المصنف في كتابه.

٢ ـ التثبت من النقول وعزوها إلى مصادرها، والتثبت مما يستنبطه من الأدلة من الأحكام الشرعية.

٣ ـ الحرص على بيان ما قد يشكل على القارئ مما قد يسبب له التوقف، أو يحتاج معه إلى سؤال أهل العلم.

---

(١) انظر: «الموافقات» (١/ ٩٣).

٤ ـ الحرص على سهولة الأسلوب، ووضوح الألفاظ؛ لأن الألفاظ قوالب المعاني، وعليه اجتناب العبارات الركيكات التي يصعب على القارئ من خلالها فهم المعنى المراد.

٥ ـ الحرص على إيراد الأدلة الصحيحة التي يستقيم الاستدلال بها، والبعد عن الأدلة الواهيات التي لا طائل تحتها.

٦ ـ التنبيه على المسائل والقواعد التي هي بمثابة الكليات التي يحتاج إليها.

قوله: (فبذلك تظهر له الحقائق..) أشار بذلك إلى فوائد التصنيف، وقد مضى شيء من ذلك في الكلام على اشتغال العالم بالتصنيف. ومن هذه الفوائد:

١ ـ ظهور حقائق العلم ودقائقه، وانكشاف المشكلات، وذلك بالتعمق في فهم نصوص الكتاب والسُّنَّة.

٢ ـ الاطلاع على المسائل الغامضة والقدرة على حل المعضلات.

٣ ـ معرفة مذاهب العلماء والاطلاع على أقوال الفقهاء.

٤ ـ معرفة الراجح والمرجوح من الأقوال، وهذا يستفاد منه في حال الفتوى.

٥ ـ الارتفاع عن الجمود على محض التقليد والالتحاق بالأئمة المجتهدين أو مقاربتهم إن وفقه الله لوصول هذا المنصب.

وبلوغ العالم رتبة الاجتهاد ليس بالأمر الهين؛ لأنه منوط بشروط وضوابط يكون المرء بها أهلًا للاجتهاد، وهي شروط ذكرها العلماء وفصلوا القول فيها، ومردها إجمالًا إلى معرفة مصادر الشريعة ومقاصدها، والتمكن من استنباط الأحكام، ومعرفة أساليب اللغة العربية التي تلزم لفهم النصوص. والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

الدرس الثامن عشر

آداب يشترك فيها العالم والمتعلم

* ينبغي لكل منهما ألا يُخلَّ بوظيفته لعروض مرض خفيف ونحوه مما يمكن معه الاشتغال، وألا يسأل أحدًا تعنُّتًا وتعجيزًا، فالسائل تعنتًا وتعجيزًا لا يستحق جوابًا.

* وأن يعتني بتحصيل الكتب شراءً واستعارة، وليشتغل بنسخه أو استنساخه إذا كان نفيسًا، وليعتنِ بتصحيحه، ولا يرتضي الاستعارة مع إمكان تحصيله، فإن استعاره لم يبطئْ به؛ لئلا يفوت الانتفاع به على صاحبه. ولا يكسل عن تحصيل الفائدة منه، ولا يمتنع من إعارته غيره؛ لأنه إعانة على العلم مع ما في مطلق العارية من الفضل.

* روي أنَّ رجلًا قال لأبي العتاهية: أعرني كتابك، قال: إني أكره ذلك. قال: أما علمت أن المكارم موصولة بالمكاره؟ فأعاره.

* ويستحب شكر المُعِير؛ لإحسانه. وليحذر من الإبطاء بها عن أربابها؛ قال الزهري: «إيَّاك وغُلول الكتب» يعني: حبسها عن أصحابها. وبسبب حبسها امتنع غير واحد من إعارتها، وأنشدوا في ذلك أشياء كثيرة.

❁ الشرح ❁

١ ـ الحرص على المواظبة

قوله: (ينبغي لكل منهما: ألا يُخلَّ بوظيفته لعروض مرض خفيف ونحوه مما يمكن معه الاشتغال)؛ أي: ينبغي لكل من العالم والمتعلم أن يواظب على الدرس وألا يخل به لعروض مرضٍ خفيف، أو ألم لطيف، ويتأكد هذا في حق المعلم. وقد مضت الإشارة إلى شيء من ذلك.

٢ ـ ألا يسأل تعنتًا وتعجيزًا

قوله: (وألا يسأل أحدًا تَعنُّتًا وتعجيزًا، فالسائل تعنتًا وتعجيزًا لا يستحق جوابًا) هذا أدب نفيس من آداب السؤال ينبغي أن يتحلى به السائل والمستفتي، وهو ألا يسأل تعنتًا؛ أي: سؤالًا فيه مشقة على المسؤول، ولا يسأل تعجيزًا، ومثل ذلك أن يكون قصده اختبار العالم أو المفتي أو إحراجه أو إظهار التعالم، وسعة الاطلاع، أو قصد تتبع الرخص، أو ضرب آراء العلماء بعضها ببعض، ومثل ذلك: سؤال العالم بقصد تصنيفه، وكلها مقاصد سيئة، واتجاهات دنيئة لا تليق بطالب العلم، كان يقال: «إذا جلست إلى عالم فَسَلْ تفقُّهًا ولا تَسَلْ تعنتًا»[(١)].

٣ ـ العناية بالكتب والحرص على اقتنائها

قوله: (وأن يعتني بتحصيل الكتب شراءً واستعارة)؛ أي: ومن الآداب المشتركة بين العالم والمتعلم العناية بالكتب، والحرص على اقتنائها، إما بالشراء إن كان الطالب قادرًا والكتاب موجودًا، وإما بالاستعارة ممن هو في حوزته.

وقد جرت عادة العلماء أن يتكلموا في مثل هذا التأليف عن الكتب، وذلك لأنها آلة العلم ووعاؤه؛ لأن العلم يحفظ إما في الصدر، وإما في السطر، وهو الكتاب.

نماذج من عناية العلماء بشراء الكتب

وقد كانت للعلماء عناية بالغة في شراء الكتب، وبذل كل غالٍ

(١) «عيون الأخبار» (٢/ ١٢٣).

ونفيس في سبيل الحصول عليها، والحرص على اقتنائها وتحصيلها، ولهم في ذلك أخبار. وهذا يؤيد الحكمة القائلة: «إذا كان الكتاب جديرًا بالقراءة فهو جدير بأن يُشترى»[(١)].

قال الإمام طلحة بن مظفر: «بيعت كتب ابن الجواليقي في بغداد، فحضرها الحافظ أبو العلاء الهمذاني، فنادوا على قطعة منها: ستين دينارًا، فاشتراها الحافظ أبو العلاء بستين دينارًا، والإنظار من يوم الخميس إلى يوم الخميس، فخرج الحافظ، واستقبل طريق هَمَذَانَ، فوصل، فنادى على دارٍ له فبلغت ستين دينارًا، فقال: بيعوا، قالوا: تبلغ أكثر من ذلك، قال: بيعوا، فباعوا بستين، فقبضها ثم رجع إلى بغداد، فدخلها يوم الخميس، فوفّى ثمن الكتب، ولم يشعر أحدٌ بحاله إلى بعد مدة»[(٢)].

وقال ابن النجار: «اشترى ابن الخشاب يومًا كتابًا بخمسمائة دينار، ولم يكن عنده شيء، فاستمهلهم ثلاثة أيام، ثم مضى ونادى على داره، فبلغت خمسمائة دينار، فنقد صاحبها، وباعه بخمسمائة دينار، ووفى ثمن الكتب، ولما مرض أشهد عليه بوقف كتبه، فتفرقت وبيع أكثرها ولم يبقَ إلا عشرها، فتركت في رباط المأمونية وقفًا»[(٣)].

وقال ياقوت الحموي في ترجمة الحسن بن محمد بن حمدون ـ وكان معاصرًا له ـ: «كان من المحبين للكتب واقتنائها والمبالغين في تحصيلها وشرائها، وحُصِّلَ له من أصولها المتقنة وأمهاتها المعينة ما لم يحصل لكثيرِ أَحَدٍ... وكان مع اغتباطه بالكتب ومنافسته ومناقشته فيها جوادًا بإعارتها، ولقد قال لي يومًا ـ وقد عجبت من مسارعته من إعارتها للطلبة ـ: ما بخلت بإعارة كتاب قط، ولا أخذت عليه رهْنًا،

(١) «عشاق الكتب» إعداد: عبد الرحمٰن الفرحان (ص٨٢).
(٢) «الذيل على طبقات الحنابلة» (٢/ ٢٧٧).
(٣) «الذيل على طبقات الحنابلة» (٢/ ٢٥١).

ولا أعلم أنه مع ذلك فقد كتابًا في عارية قط. فقلت: الأعمال بالنيات، وخلوص نيتك في إعارتها لله حفظها عليك»[(١)].

وذكر ياقوت ـ أيضًا ـ في ترجمة معاصره الوزير أبي الحسن علي بن يوسف الشيباني القِفْطي المعروف بالقاضي الأكرم فقال: «وكان الأكرم القاضي المذكور جَمَّاعةً للكتب حريصًا عليها جدًا، لم أرَ مع اشتمالي على الكتب وبيعي لها وتجارتي فيها أشدَّ اهتمامًا منه بها، ولا أكثر حرصًا منه على اقتنائها، وحصل له منها ما لم يحصل لأحد...»[(٢)].

وقال الذهبي في ترجمة الحافظ العالم محدث بغداد أبي البركات عبد الوهاب الأنماطي نقلًا عن السمعاني أنه قال: «هو حافظ، ثقة، متقن، واسع الرواية، دائم البشر، سريع الدمعة عند الذكر، حسن المعاشرة، وخرّج التخاريج، لعله ما بقي جزء مروي إلا وقد قرأه وحصل نسخته، ونسخ الكتب الكبار مثل «الطبقات» لابن سعد و«تاريخ الخطيب» وكان متفرغًا للحديث إما أن يُقرأ عليه أو ينسخَ شيئًا...»[(٣)].

وجاء في ترجمة علامة حلب في عصره الشيخ أحمد بن قاسم الشهير بالحَجَّار أن مكتبته بلغت قيمتها بعد موته أربعين ألفًا، مع أنها بيعت بغير أثمانها! وكان يحب اقتناء الكتب، حتى ذكر أنه رأى كتابًا يُباع، ولم يكن معه دراهم، وكان عليه ثياب، فنزع بعضها وباعه واشترى الكتاب في الحال»[(٤)].

من الأخبار الطريفة في المزادات العلنية عند شراء الكتب

ومن الأخبار الطريفة في المزادات العلنية عند شراء الكتب ما رواه الحضرمي قائلًا: «أقمت مرةً بقرطبة ولازمت سوق كتبها مرةً

(١) «معجم الأدباء» (٩/ ١٨٥ ـ ١٨٨) بتصرف.
(٢) «معجم الأدباء» (١٥/ ١٨٨).
(٣) «تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٢٨٢ ـ ١٢٨٣).
(٤) «صفحات من صبر العلماء» (ص٨٦). نقلًا عن «أعلام النبلاء» (٧/ ٣١٥). وانظر: «عشاق الكتب» (ص٥٧).

أترقب فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء، إلى أن وقع وهو بخط جيد وتسفير ـ أي: تجليد ـ مليح، ففرحت به أشد الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه، فيرجع إليَّ المنادي بالزيادة عليَّ إلى أن بلغ فوق حدّه، فقلت له: يا هذا، أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلّغه إلى ما لا يساوي.

فأراني شخصًا عليه لباس رياسة، فدنوت منه، وقلت له: أعزّ الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حدّه.

فقال لي: لست بفقيه، ولا أدري ما فيه، ولكني أقمت خزانة كتب، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته، ولم أبالِ بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق، فهو كثير.

فأحرجني وحملني على أن قلت له: نعم لا يكون الرزق كثيرًا إلا عند مثلك، يُعطى الجوز من لا عنده أسنان، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به، يكون الرزق عندي قليلًا، وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه»[(١)].

ويُلاحظ في هذه القصة أن سوق الورَّاقين كانت مزدحمة، ولذلك كان الدلّال يذهب بالكتاب إلى الزَّبون الغني ويعود إلى الحضرمي بالزيادة، والحضرمي لا يرى غريمه، حتى طلب من الدلال رؤيته[(٢)].

شراء الكتب يحتاج إلى منهجية

وشراء الكتب أمر يحتاج إلى منهجية كاحتياج العلم إليها، وعلى الطالب أن يستنير برأي أهل العلم، ولا سيما المتخصصون، والمؤلف أطلق العناية بتحصيل الكتب، وقيده ابن جماعة بالمحتاج إليه منها[(٣)]، وعليه أن يحرص على الأمهات والأصول من الكتب، وألا يسرف في

(١) «نفح الطيب» (١/ ٤٦٣).
(٢) «الورَاقة والورَّاقون» (ص٢٦ ـ ٢٨).
(٣) انظر: «تذكرة السامع والمتكلم» (ص١٢٦).

الشراء، وأن يعلم أنه لا يغني كتاب عن كتاب[١]، بل ولا طبعة عن طبعة أخرى خصوصًا ما كان محققًا.

شراء الكتب عبادة

وشراء الكتب عبادة يؤجر عليها فاعلها؛ لأنها آلة التحصيل ووسيلة من وسائل العلم والفقه في الدين، والوسائل لها أحكام المقاصد، ولأنها مما لا ينقطع العمل به بعد الموت، حيث تبقى فينتفع به من بعده[٢]، كما في مكتبات المشايخ الموقوفة على المساجد والجامعات وغيرها.

الحذر من جمع الكتب بدون استفادة

وعليه أن يحذر أن يكون ممن يجمع الكتب ولا يستفيد منها، وهذا أمر نبه عليه العلماء، ولقد أحسن القائل:

إذا لم تَكُنْ حافظًا واعيًا فَجَمْعُكَ لِلْكُتْبِ لا يَنْفَعُ[٣]

افتخار العلماء بتحصيل نسخة من كتاب، لا سيما بخط مؤلفه

ومما يدل على عناية العلماء بالكتب أنهم يفتخرون بتحصيل النسخ النفيسة، ويعبّرون بما يدل على تملكهم لها.

ومن ذلك أن الذهبي لما ترجم لابن ماكولا وذكر كتابه «تهذيب مستمر الأوهام» قال: «قلت: ملكته، وهو كتاب نفيس يدل على تبحر ابن ماكولا وإمامته»[٤]. ولما تحدث ابن كثير عن كتاب أبي نُعيم «معجم الصحابة» قال: «وهو عندي بخط أبي نُعيم»[٥].

نسخ الكتاب إذا لم يمكن شراؤه

قوله: (ولْيشتغل بنسخه أو استنساخه إذا كان نفيسًا)؛ أي: إذا كان الكتاب نفيسًا ولم يمكن شراؤه لعدم الثمن، أو لعدم الكتاب، فإنه

(١) انظر: «حلية طالب العلم» (ص٥٤).
(٢) انظر: «إضاءات في طريق العلم» (ص٦٩).
(٣) هذا البيت ومعه أبيات اخرى جاءت في «روضة العقلاء» (ص٣٨) منسوبة للشاعر: محمد بن يسير ـ بالياء والسين المهملة ـ الخزاعي، وكذا في «الحيوان» للجاحظ (١/ ٥٩)، و«سمط اللآلي» للبكري (١/ ٥١٤) وفي النسبة أقوال أخرى.
(٤) «تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٢٠٤).
(٥) «البداية والنهاية» (١٦/ ٧٣٣).

يقوم بنسخه، أو يطلب من أحد النُسَّاخ أن ينسخه؛ لأن السين في **قوله**: (أو استنساخه) للطلب، ولا يشتغل هو بنسخه، إلا فيما تعذر عليه تحصيله، لعدم ثمنه أو أجرة استنساخه، واليوم ـ ولله الحمد ـ وجدت آلات التصوير، ووسائل الحصول على الكتب بأيسر الطرق وأقل الأثمان.

العناية بالكتابة

قوله: (وليعتنِ بتصحيحه)؛ أي: وإذا أراد أن ينسخ كتابًا، فإنه لا يهتم بحسن الخط؛ لأن هذا يأخذ وقتًا وجهدًا، وإنما يهتم بصحة الكتابة وسلامتها من التحريف ونحوه.

استعارة الكتب

قوله: (ولا يرتضي[1] الاستعارة مع إمكان تحصيله)؛ أي: ولا ينبغي لطالب العلم أن يستعير كتابًا مع إمكان تحصيله بشرائه أو إجارته؛ لأن الاستعارة قد يكون فيها منّة للمعير.

من آداب الاستعارة:
١ ـ ألا يتأخر بالكتاب عن صاحبه

قوله: (فإن استعاره لم يبطئْ به؛ لئلا يُفَوِّتَ الانتفاع به على صاحبه) هذا أدب نفيس من آداب استعارة الكتب، وهو ألا يتأخر بالكتاب عن صاحبه، بحيث يحبسه عنده بعد الانتهاء منه؛ لئلا يفوت الانتفاع به على صاحبه، ولئلا يكون سببًا في منع إعارته لشخصٍ آخر، فيكون هذا المستعير الذي أَخَّرَ الكتاب عنده سببًا في قطع المعروف وانتفاع الآخرين بهذا الكتاب، ولأنه إذا أخره قد ينساه صاحبه ولا يدري مَنِ الذي استعاره، فيضيع كتابُه، وقد لا يجده يباع.

٢ ـ ألا يكسل في تحصيل الفائدة منه

(ولا يكسل عن تحصيل الفائدة منه)؛ أي: ولا يكسل المستعير ويتوانى في تحصيل الفائدة من الكتاب المُستعار بحيث يجعل الاستفادة منه على سبيل التراخي؛ لأن هذا يؤدي إلى حبس الكتاب وتأخيره عن صاحبه، وفيه ما تقدم.

(١) في المطبوع «ولا يرتضِ» بحذف الياء على أن «لا» ناهية، وفي الأصل بإثبات الياء على أنها نافية، والنفي أبلغ من النهي.

٣ ـ ألا يمتنع من إعارته غيره

(ولا يمتنع من إعارته غيرَه)[١]؛ أي: لا يمتنع المستعير من إعارة الكتاب لشخصٍ ثالثٍ، وهذه مسألة خلافية، فالأصح عند الشافعية أن المستعير ليس له أن يعير غيره، وهو الصحيح من الوجهين عند الحنابلة[٢].

والقول الثاني: أن المستعير له أن يعير غيره، وهو قول الحنفية، وكذا قول المالكية لكنهم يرون الكراهة، والقول بالجواز هو الوجه الثاني في مذهب الحنابلة، والراجح عندهم عدم الجواز[٣].

والخلاف مبني على مسألة، وهي: هل الإعارة تمليك للمنفعة، أو مجرد إباحة لتلك المنفعة؟ والفرق أن الانتفاع في الأول مستند إلى الملك، والثاني مستند إلى الإباحة، والملك أقوى. والأظهر أنه ليس للمستعير أن يعير غيره؛ لأن المستعير يملك الانتفاع بالإذن المجرد، ولا يملك النفع، ثم إن الإعارة تصرف في مال الغير بلا إذنه[٤].

استحباب إعارة الكتب

قوله: **(لأنه إعانة على العلم مع ما في مطلق العارية من الفضل)** هذا تعليل للحث على إعارة الكتب، وقد نص النووي في «المجموع» على الاستحباب لأمرين:

---

(١) هذه الجمل الثلاث: **(فإن استعاره لم يبطئْ به؛ لئلا يُفَوِّتَ الانتفاع به على صاحبه، ولا يكسل عن تحصيل الفائدة منه، ولا يمتنع من إعارته غيرَه)** هكذا جاءت في المطبوع، وهي بذلك تُفيد ثلاثة آداب، وجاءت في الأصل هكذا: **(فإن استعاره لم يبطئْ به؛ لئلا يُفَوِّتَ الانتفاع به على صاحبه، ولئلا يكسل عن تحصيل الفائدة منه، ولئلا يمتنع من إعارته غيرَه)** وهي بذلك تعليل لعدم تأخير الكتاب عن صاحبه، والثالثة فيها إشكال؛ لأن مُفادها أن المستعير لا يتأخر بإعادة الكتاب؛ لئلا يمتنع صاحبه من إعارته شخصًا آخر، والمثبت في المطبوع خلاف هذا، وهو مخالف للأصح عند الشافعية من أن المستعير ليس له أن يُعير غيره.

(٢) انظر: «مغني المحتاج» (٣/ ٣١٥)، «تصحيح الفروع» (٤/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥)، «الإنصاف» (٦/ ١٠١).

(٣) «الهداية مع البناية» (٩/ ١٦٧)، «الشرح الكبير بحاشية الدسوقي» (٣/ ٤٣٣)، «شرح الزرقاني على مختصر خليل» (٦/ ٢٢٦).

(٤) انظر: «إعارة الكتب» (ص٤٣).

الأول: أن الإعارة إعانة على العلم؛ لما تقدم من أن الكتب هي آلة العلم ووسيلته. قال وكيع: «أول بركة الحديث إعارة الكتب»(١).

الثاني: ما جاء في نصوص الشريعة من مشروعية العارية والحث عليها، والأكثرون من أهل العلم على الاستحباب، بل بعضهم قال بالوجوب(٢). والعارية داخلة في قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤]. فإن العارية داخلة في المعروف، وهي نوع من الإحسان، فتدخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥]. وقد كانت إعارة الكتب للطلبة والمشيخة أمرًا قد استحسنه الأولون والآخرون؛ لما فيه من نشر العلم خاصة، وإفادةِ الناس عامة، حتى عُدَّ من صفات العلماء المحمودة.

نماذج من محبة المتقدمين إعارة الكتب

قال ابن سُكَّرَة: كان ابن الخاضبة ـ الحافظ مفيد بغداد، (ت ٤٨٩) ـ محبوبًا إلى الناس كلهم، فاضلًا، حسن الذكر، ما رأيتُ مثله على طريقته، وكان لا يأتيه مستعيرٌ كتابًا إلا أعطاه أو دله عليه(٣).

وتقدم ما ذكره ياقوت الحموي عن معاصره ابن حمدون، وتعجُّبه من مسارعته إعارة الكتب للطلبة، وقوله عنه: ما بخلت بإعارة كتاب قط، ولا أخذت عليه رهنًا.

كراهة بعض المتقدمين إعارة الكتب

قوله: **(روي أنَّ رجلًا قال لأبي العتاهية(٤) أعرني كتابك، قال إني**

---

(١) «الجامع» (١/ ٢٤٠).

(٢) انظر: «حاشية ابن عابدين» (٢/ ١٨١).

(٣) «تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٢٢٤).

(٤) هو: أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني العَنَزِي من قبيلة عَنَزَة بالولاء، ولد في عين التمر بقرب الكوفة، ونشأ في الكوفة، شاعرٌ مكثر، سريع الخاطر، له شعر كثير في الزهد والوعظ، وأكثر شعره حكم وأمثال، وكان شعره سهل القول، قريب المأخذ، بعيدًا من التكلف. توفي في بغداد سنة (٢١١). انظر: «تاريخ بغداد» (٦/ ٢٥٠)، «الأعلام» للزركلي (١/ ٣١٩).

أكره ذلك. قال: أما علمت أن المكارم موصولة بالمكاره؟! فأعاره)[١]

هذا مثال من منهج المتقدمين في كراهة إعارة الكتب، لكن جواب المستعير قوي، ومعناه: أن مكارم الأخلاق وأصول الفضائل موصولة بالمكاره وهي المشقات، بحيث لا يتحلّى بها إلا من جاهد نفسه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**حُفت الجنة بالمكاره، وحُفت النار بالشهوات**»[٢]. وفي ذلك حضٌّ على الطاعات وأعمال الخير وإن كرهتها النفوس وشقَّ عليها. وقال المتنبي:

لولا المشقة ساد الناسُ كلهمُ ... الجود يُفقر والإقدام قتّال[٣]

استحباب شكر المعير

قوله: (ويستحب شكر المُعِير؛ لإحسانه) هذا أدب رفيع، وخلق جميل، ألا وهو شكر المعير على إحسانه بإعارة الكتاب، والشكر من كمال الإيمان، وحسن الإسلام، وهو دليل على المروءة والاعتراف بالفضل لذي الفضل، وفي الشكر تشجيع ذوي المعروف والإحسان على أفعال الخير والمداومة عليها. وقد جاء في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**». وفي لفظ: «**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**»[٤].

قوله: (وليحذر من الإبطاء بها عن أربابها) هذا الكلام زائد على الأصل؛ لأنه تقدم، ولعل القاسمي ذكره؛ توطئة لما بعده.

تحذير السلف من حبس الكتاب عند المستعير

قوله: (قال الزُّهري[٥]: إياك وغُلولَ الكتب ـ يعني حبسها عن

---

(١) رواه الخطيب في «الجامع» (١/ ٢٤١).
(٢) رواه البخاري (٦٤٨٧)، ومسلم (٢٨٢٢).
(٣) «ديوانه بشرح العكبري» (٣/ ٢٨٧).
(٤) رواه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤)، وأحمد (١٢/ ٤٧٢). قال الترمذي: «هذا حديث صحيح». وفي الباب أحاديث أخرى لا تخلو أسانيدها من مقال، لكن باجتماعها تقوى.
(٥) هو: محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزُّهري، الفقيه المدني، نزيل الشام، مشهور بالإمامة والجلالة، كان ثقةً حافظًا، وصفه الشافعي والدارقطني وغير واحد بالتدليس، رأى ولقي عددًا قليلًا من الصحابة لا يزيدون عن =

أصحابها) مقولة الزهري قالها مخاطبًا تلميذه يونس بن يزيد[١]، **وقوله: (يعني حبسها عن أصحابها)** ليس من كلام القاسمي، وإنما هو من كلام الزهري لما قال ليونس: إياك وغلول الكتب، قال: وما غلول الكتب؟ قال: حبسها عن أصحابها[٢].

ما يترتب على ذلك

قوله: (وبسبب حبسها امتنع غير واحد من إعارتها) هذه عبارة الخطيب في «جامعه» ومعناها: أن حبس الكتاب عند المستعير والتباطؤ في رده إلى صاحبه صار سببًا في امتناع بعض العلماء من الإعارة، قال سفيان: «لا تُعِرْ أحدًا كتابًا»[٣].

وقال بعضهم:

أجود بِجُلِّ مالي لا أُبَالِي ... وأَبْخَلُ عند مسألةِ الكتابِ
وذاكَ لأنني أنفقتُ حِرصًا ... على تحصيلهِ شَرْخَ الشبابِ[٤]

وقال آخر:

ألا يا مُستعيرَ الكُتْبِ دعني ... فإن إعارتي لِلْكُتْبِ عارُ
فمحبوبي من الدنيا كتابٌ ... فهل أبصرتَ محبوبًا يُعارُ؟![٥]

نماذج من الأشعار التي قيلت في موضوع استعارة الكتب

قوله: (وأنشدوا في ذلك أشياء كثيرة)؛ أي: أنشد العلماء في موضوع إعارة الكتب شعرًا كثيرًا يدل على حرصهم على الكتب والعناية

= عشرة، وأهمهم أنس بن مالك رضي الله عنه، قد روى عنه الزهري ما يقرب من خمسين حديثًا، روى عن حميد بن عبد الرحمن، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج وخلق آخرين، وعنه: مالك، وابن عيينة، والليث بن سعد، وخلق كثير، ولد سنة خمسين على أحد الأقوال، ومات سنة مائة وثلاث أو أربع وعشرين، استشهد به مسلم في أحاديث قليلة. انظر: «تهذيب الكمال» (٢٦/ ٤١٩).

(١) ترجمته في «تهذيب الكمال» (٣٢/ ٥٥١).

(٢) «الجامع» (١/ ٢٤٢)، «أدب الإملاء والاستملاء» (ص١٧٦)، تفسير القرطبي (٤/ ٢٦٢).

(٣) «الجامع» (١/ ٢٤٤).

(٤) «تقييد العلم» (ص١٤٩)، «أدب الإملاء والاستملاء» (ص١٧٧).

(٥) «إضاءات في طريق العلم» (ص٩١).

بحفظها وعدم الرغبة في إعارتها، لولا الخوف من كتم العلم، فإذا أعاروها توثقوا في إعارتها بشروط وقيود. ومن ذلك قول بعضهم:

جَلَّ قدرُ الكتاب يا صَاحِ عندي ... فهو أغلى مِنَ الجواهرِ قَدْرَا

لستُ يومًا مُعِيْرَهُ من صديقٍ ... لا ولا مِنْ أخٍ أُحاذِرُ غَدْرَا

ما على مَنْ يَصونُه من ملامٍ ... بل له العذرُ فيه سرًّا وجهرَا

لن أُعِيْرَ الكتابَ إلا برهنٍ ... من نفيسِ الرُّهُونِ تِبْرًا ودُرَّا[١]

وقال آخر:

يا مُسْتَعِيرَ كِتابِي ... لا تُكْثِرنَّ عِتَابِي

إلا برهنٍ وثيقٍ ... من فِضَّةٍ أو ثيابِ

وقال آخر:

أَيُّها المستعيرُ مني كتابًا ... إن رددتَ الكتابَ كان صوابَا

أنت واللَّهِ إن رددتَ كتابًا ... كنتَ أُعْطِيتَه أخذتَ كتابَا[٢]

وقال آخر:

أيها المستعير مني كتابًا ... ارضَ لي منه ما لنفسك ترضَى

لا ترى ردَّ ما أعرتك نفلًا ... وترى ردَّ ما استعرتك فرضَا[٣]

وقال آخر:

أعِرْ صَدِيقَكَ ماحَصَّلتَ من كُتُبٍ ... تَفُزْ بشكرٍ أَرِيْجِ النَّشرِ عن كَثَبِ

فَإنْ أعَارُوكَ فَارْدُدْها على عَجَلٍ ... حتّى تُعَارَ بلا منعٍ ولا نَصَبِ[٤]

وقال آخر:

إذا استعرتَ كتابي وانتفعتَ بهِ ... فاحذرْ وُقِيتَ الرَّدَى مِنْ أن تُؤخِّرَهُ

---

(١) «الجامع» (١/ ٢٤٤)، «أدب الإملاء والاستملاء» (ص١٧٨).
(٢) «الجامع» (١/ ٢٤٥).
(٣) «الجامع» (١/ ٢٤٤)، «أدب الإملاء والاستملاء» (١٧٦).
(٤) «أدب الإملاء والاستملاء» (ص١٧٦).

وَرُدَّهُ مسرعًا إني شُغِفْتُ بهِ   لولا مخافةُ كَتْمِ العِلْمِ لمْ تَرَهُ[١]

خلاصة آداب استعارة الكتب

وخلاصة آداب الاستعارة من كلام المؤلف وغيره:

الأدب الأول: الحرص التام على صيانة الكتاب، وحفظه من الضياع أو التمزق، أو من وضعه في مكان لا يليق به.

الثاني: ليس للمستعير أن يُعلق على الكتاب، إلا إذا علم رضى صاحبه. والتعليقُ له شروط من أهمها:

١ ـ أن يكون الخطُّ حسنًا لا يعيب الكتاب لرداءته.

٢ ـ أهمية ما يُعلَّق، فلا يُعلق إلا الفوائد المهمة المتعلقة بذلك الكتاب، مثل: تنبيهٍ على إشكال، أو احتراز، أو تنبيه على خطأ، ونحو ذلك.

٣ ـ أن يكون سليمًا من الخطأ.

٤ ـ أن يكون التعليق في المكان المناسب، فلا يكون بين الأسطر أو في غير موضعه.

الأدب الثالث: ليس للمستعير أن يصلح خطأً وجده في الكتاب، إلا إذا استأذن من صاحبه؛ لأن التصويب تصرفٌ في ملك الغير يفتقر إلى إذنه، وعليه فلا يأثم تارك التصويب مطلقًا، ولأن المستعير ربما ظن أن العبارة خطأ وهي صواب، فيشوه الكتاب. واستثنى العلماء الكتاب الموقوف، فإن الخطأ فيه يُصوَّبُ جزمًا، خصوصًا ما كان خطأً محضًا لا يحتمل التأويل، وإن استأذن من الناظر على الكتاب فهو حسن.

الرابع: المبادرة بردِّ الكتاب فور الانتهاء منه، وقد عدَّ العلماء حبس الكتاب بعد الانتهاء من المقصود منه من الظلم الذي لا يليق بمن يطلب علمًا.

الخامس: ألا يتصرف فيه بما لا يتناوله إذن الإعارة لفظًا أو

---

(١) عن كتاب ترجمة «الشيخ العلامة عبد الله بن عقيل» (١٨/٤).

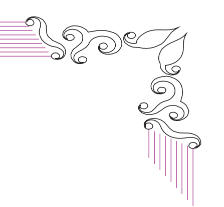
عرفًا، فلا يرهنه، أو يعيره شخصًا آخر، أو يودعه، ونحو ذلك من وجوه التصرف.

السادس: إذا استعاره بنفسه تعيّن عليه ـ بحسب الأصل ـ أن يرده بنفسه، ولا يرسله مع غيره؛ إجلالًا للكتاب من ناحية، وحفظًا لحق المعير من ناحية أخرى، إلا إن علم من حال المعير الرضا بذلك.

السابع: أن يظهر للمعير شكره وامتنانه والدعاء له بما يناسب المقام؛ لعموم الأدلة في الشكر على صنائع المعروف، وإعارة الكتب من أهمها[١].



(١) «انظر: «الجامع» للخطيب (١/ ٢٤٠ ـ ٢٤٨)، «تقييد العلم» (ص١٤٦ ـ ١٥٠)، «مغني المحتاج» (٣/ ٣١٥)، «تذكرة السامع والمتكلم» (ص١٢٦)، «إعارة الكتب» (ص٣٨) وما بعدها.



خاتمة

هذه نبذة من آداب المدرس والدارس، أو المعلم والمتعلم، مختصرة بالنسبة إلى ما جاء فيها وصُنِّفَ في أبوابها، وقد أردت إحياء ما قاله الأئمة المتقدمون في هذا وتَطْرِيَةَ ذكره؛ لما فيه من الفوائد والحكم والنصائح التي هي نتيجة ما أوصَى به السلف أيام استبحار العلوم ونضارتها في حضارة القرون الأولى، فليحرص المدرس والدارس عليها، وليحافظ العالم والمتعلم على التَّخَلق بها والاهتداء بها، فثمرة العلم العمل، وبالله الاستعانة، وعليه المُتَّكل.

دمشق

جمال الدين القاسمي

* * *

هذه الخاتمة من كلام جمال الدين القاسمي أشار فيها إلى أن ما تقدم ما هو إلا نبذة مختصرة من آداب الدارس والمدرس بالنسبة إلى ما جاء عن الأئمة السابقين وما صُنِّفَ من كتب تقدمت الإشارة إلى بعضها في أول هذا الشرح.

وقد قصد بإيراد هذه النبذة تطرية ما ذكره المتقدمون في هذا الباب ونشره وإشاعته في المعاصرين؛ لما فيه من الفوائد والنصائح والحكم، التي ينبغي للدارس والمدرس تحويلها إلى واقع عملي، وفي هذا خير كثير ومصالح جمّة.

الحث على العمل بالعلم

ثم حث في آخرها الدارس والمدرس على الأخذ بما جاء فيها، وأن ثمرة العلم العمل، وهذه ـ والله ـ ثمرة العلم النافع، فإن العلم يراد للعمل، كما أن الأموال تجمع لإنفاقها، وهذا أمر من الأهمية بمكان،

وقد جاءت النصوص الشرعية التي تؤكد على طالب العلم أن يكون عاملًا بعلمه ممتثلًا لما علمه واستفاده[(١)].

سئل ابن المبارك: هل للعلماء علامة يعرفون بها؟ قال: «علامة العالم من عمل بعلمه، واستقلَّ كثير العمل من نفسه، ورغب في علم غيره، وقبل الحق من كل من أتاه به، وأخذ العلم حيث وجد، فهذه علامة العالم وصفته»[(٢)].

كلام نفيس للخطيب البغدادي في العمل بالعلم

يقول الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللهُ: «ثم إني موصيك يا طالب العلم بإخلاص النية في طلبه، وإجهاد النفس على العمل بموجبه، فإن العلم شجرة، والعمل ثمرة، وليس يعد عالمًا من لم يكن بعلمه عاملًا». وقيل: العلم والد، والعمل مولود، والعلم مع العمل، والرواية مع الدراية.

فلا تأنس بالعمل ما دمت مستوحشًا من العلم، ولا تأنس بالعلم ما كنت مقصرًا في العمل، ولكن اجمع بينهما، وإن قلَّ نصيبك منهما.

وما شيء أضعف من عالم ترك الناس علمه لفساد طريقته، وجاهل أخذ الناس بجهله لنظرهم إلى عبادته.

والقليل من هذا مع القليل من هذا أنجى في العاقبة، إذا تفضل الله بالرحمة، وتمم على عبده النعمة».

ثم يختم الخطيب هذه النصيحة قائلًا: «وكما لا تنفع الأموال إلا بإنفاقها؛ كذلك لا تنفع العلوم إلا لمن عمل بها وراعى واجباتها، فلينظر امرؤ لنفسه، وليغتنم وقته، فإن الثَّواءَ قليل، والرحيل قريب، والطريق مخوف، والاغترار غالب، والخطر عظيم، والناقد بصير، والله تعالى بالمرصاد، وإليه المرجع والمعاد، ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]»[(٣)].

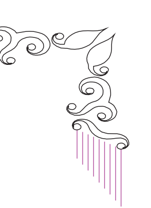
---

(١) انظر: «العمل بالعلم بين الواقع والواجب» لراقمه.
(٢) «طبقات الحنابلة» (٢/ ١٥٠).
(٣) «اقتضاء العلم العمل» (ص١٤ ـ ١٦) بتصرف.

وقد تم الفراغ من كتابة هذا الشرح الساعة التاسعة وخمس عشرة دقيقة من ليلة السبت لخمسٍ بقين من شهر ذي الحجة خاتمة عام ثمانيةٍ وثلاثين، ثم راجعتها في مكة في العشر الأخير من شهر الله المحرم عام تسعةٍ وثلاثين، ثم تمت مراجعتها المراجعة النهائية ليلة السبت لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيعٍ الآخر من السَّنة المذكورة.

والله أسأل أن يجعل عملي صالحًا، ولعباده نافعًا، وأن يكتب لي الأجر ولمن قدّم لي يد المساعدة في تبييض هذا الكتاب، أو مراجعته؛ إنه سميع قريب مجيب، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.





فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة